



تسنيم الحبيب

# من جنة الأسماء السقوط

مرايا

منشورات تكوين  
TAKWEEN PUBLISHING



# السقوط من جنة الأسماء

## رواية

### تسنيم الحبيب



الكاتب: تسنيم الحبيب

عنوان الكتاب: السقوط من جنة الأسماء

تصميم الغلاف: حسين المطوع

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 6-39-775-9921-978

الطبعة الأولى - مايو/ أيار - 2022

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

للتفون: + 965 98 81 04 40

بغداد - شارع المنتبى، بناية الكهجي


للتفون: + 964 78 11 00 58 60

✉ takween.publishing@gmail.  takweenkw

com

 takween\_publishing

 TakweenPH

 www.takweenkw.com

# السقوط من جنة الأسماء

أيها النهر العذب

يا صلاة الشمس

وترنيمه الأمهات

اجر

هل يكممك العطش؟

# مرايا

أنا الطفل الذي وقف اغترابا

وقوفا شيب القلب الفتيا

أنا الطفل الذي سكت احتراقا

ودمعي من جفائي شكا إليا

أنا الطفل الذي ظن انتماء

فحلت خطوتي منفى قصيا

يقتلني التشرذم ذاك أني

أنا الطفل الذي دفنوه حيا

حسن الفضلي

«مُجاب.. مُجاب.. مُجاب».

أستمر بسماع هذا النداء، يوم ثالث ورابع وربما خامس، يندس الصوت قربي ويشغلني عن تيهي، أتعجبُ وأسأل من المنادي؟ من المنادي؟

أحاول فتح عيني، الضوء الخجول السائل من المسارب يربك نظرتي، ثم يخفت الصوت أو ربما يزول، أو ربما أنوب أنا في الغياب مرة أخرى.

«مُجاب.. مُجا.....».

أصوات قريبة، أصوات بعيدة، ربما كانت مقتطفة من أحلامي. ماهي الأحلام؟ ما هو  
الصحو؟

«مُجاب...».

يُنادي الصوت مرة أخرى، ينزلق على سمعي، يا ترى.. هل يناديني؟

مُجاب..

هل هذا هو اسمي؟

الكويت

٢٠١٩

(١)

لقد عُدت.

اندلع سُلْمُ الطائرة ليهبط عبر دركاته القادمون، امتزجت بهم متخلصا من اختلافي الذي  
يلاحقني كَوسم منذ الولادة. هواء أعرفه استقبلني بطعم الملح، هذا ليل الوطن. أحسستُ  
بتعبي يفيض مني، وحين وطأتُ الأرض مبعثرا بدأتُ بتسوية حقيبة ظهري. ركبْتُ الحافلة  
واقفا متشبثا بعمودٍ فضيٍ طويل يهددني بالانزلاق فتتنزلقُ مني ألف فكرة. وصلتُ إلى  
مبنى المطار وقصدتُ ركنَ استقبال القادمين تمشي في نظرتي عبارة «الحمد لله على  
السلامة». لا بأس، أنا هنا بعد سنوات لا أودُّ عدها أعودُ من حيث بدأتُ.

هيئتُ أوراقِي الثبوتية منتظما في الصفِّ الطويل أمامَ موظفِ الجوازاتِ الذي قارنَ بين  
سحنتي وأوراقِي الثبوتية، وعقد حاجبيه متشككا:

«من أسترااليا؟».

أومأت برأسي متوقعا أن أطرّد ارتيابه غير أنه استدعى بعض موظفي الجوازات ليتم تداول أمري بينهم، وفيما قصد كل الواصلين جهة الأمتعة وصاروا يتفقدون حقائبهم كنت رهين شك الموظفين الذين سمحوا لي أخيرا بالعبور بعد إحساسي القاتم بأني أواجه كابوس حياتي الذي لطالما فررت منه.

قصدت دورة المياه قبل أن أعبّر إلى بهو انتظار القادمين، والذي تترقبني فيه أسرتي، وقفزت صور عدة أمامي ثم انسحبت إلى داخلي. أخشى أشياء كثيرة، أخشى أن تطوّقني أمي بذراعها غير عابئة بالجموع التي يحرك فضولها أي فعل مماثل في ازدحام المعابر، أود أن أعبّرهم وأعبّر كل هذا بهدوء وتهذيب، أن أتماسك فلا أذوب في حضرة الدمع الساخن أو الاحتضان الشديد، ولا يعني هذا أن أشواقي فاترة. فبقدر شوقي يخيفني لقاءهم.

دار ألم في معدتي، أعرف هذا الألم، إذ يعود بي إلى زيارتي الأولى للندن قبل سنوات، حيث استقبلني والدي في مطار هيثرو فيما أحتّ خطواتي على التقدم وأرثي لانتظاره وانتظاري. حين تصافحنا وشدني إلى صدره تبلّل كتفي الأيمن بدموعه، وبقيت عيناى تبحثان عن منفذ للدموع الحبيسة خلف جدار روجي. وددت حينها -ولو هلة - أن أسأله «لماذا اختار فراقنا منذ البداية» لكنني أعرف الإجابة.. وأكره العتاب.

ولأني أكره أيضا لحظات اللقاء والوداع على حدّ سواء فإني أنقبض أيضا مرة أخرى هنا - في مطار الكويت - حين أتخيل كيف يترقبني أهلي في بهو استقبال القادمين وأتساءل كيف يمكن أن تُسرّع الأحداث الراهنة لتحملنا إلى مناطق الاستقرار وتناى بنا عن الانفعال المؤذي.

بللت وجهي بالماء أطرّد دبق الرحلة من بشرتي، سرحت شعري، تقدّم إليّ عامل النظافة يحرك ابتسامته على وجنتيه كما يحرك مكنته، تذكرت أنني لم أحول ما معي من النقود

إلى عملة الدينار، غيرَ أنني وجدتُ في منحه عشرين درهما فكرةً لا بأس بها، كنتُ قد تزودت ببعض الدراهم في مطار دبي أثناء «التوقف المؤقت» لرحلتي الجوية من أستراليا إلى الكويت، إذ دفعني النعاسُ هناك للحصول على كوب قهوة.

طالعتني المرأة الصبورة في دورة المياه، لقد كَبُرَت يا هذا.

لم يكن طارئاً عليّ أن أنظرَ لوجهي في المرايا، الوجهُ الذي لم يستوقفني قبل هذا، بسوادٍ محجريه وتعرجات جانبي فمه، وبعض الشعيرات البيض في فوديه، ربما اختلستُ في السنين الماضية نظرات سريعة وحسب، أو ربما انشغلت حتى العمى وسرقتُ نظرتي الأوطانُ العديدة التي أنغمس في ترابها ومائها، ويمشي في رثتي هواؤها دون أن يسكنني، ربما لم أجدَ النظر بما يكفي، لكنَّ هذه النظرة تبدو مختلفة جداً.

نظرة تقول لي، بل تصرخ فيّ مؤكدةً أنني كبرتُ.. كبرتُ كثيراً.

هل كان لزاماً عليّ أن أعودَ إلى المربع الأول، لأحسنَ التفرس في وجهي؟ أن أعود لنقطة الانبعاث الأولى لأصدمَ بالمرايا التي كانت آخر من ودّعتني قبل أعوام لا أريد عدّها وأول من يستقبلني الآن؟ أم أن للعودة -إلى المراتع الأولى- عيوناً مختلفة تجعلنا نعيدُ النظر لواقعنا وركائزنا وتحملنا على تصديق ما تبدّلنا إليه، لا أشعرُ أنني تبدلت، لا أشعرُ أنني غبت. أنا لا أشعرُ بشيء أصلاً، أو ربما لا أريد أن أشعر.

لا أريد أن أشعر مذسكنتُ الطائرة في مكانها في مطار الكويت، وتدققُ المسافرون المسرعون، وتباطأ غيرهم.. أنني مروع، أردتُ أن أكون سيد اللحظة، قويا، منيعاً من تلك العواطف/العواصف التي تتقاذفني بقوة لأحسّ بأشياء كحب الوطن والحنين وشهقة الانتماء الأولى ومراتع الصبا وما أشبهه، فضلت أن أعود كزائر يستلذ بجمال الحاضر، يبتسم في وجه الموظف ويرتب أوراقه ثم يجر حقيبته على البلاط اللامع، وربما يذهب لشرب قهوة وهو يقرأ كتاباً ممتعاً. أو يقول ما أجمل المكان! وكم تغير، وكم تطور. غير أن الفرار

من لحظات المكاشفة ضرب من الجنون، ولو بذلنا جهودنا في النأي عن هذه المواجهة  
لذكرنا بها الغير، كموظف الجوازات مثلا.

خرجتُ من دورة المياه أبحثُ بعيني عن حقائبي بين الأمتعة الدائرة على المنحنى الأسود  
السيار، حررتُ الحقيبة الأولى ومن ثمّ الثانية، ثبتهما على العربة المعدنية، فكرتُ أنّ عليّ  
اعتياداً رؤية منظر الأتواب البيض على الرجال والعباءات السود على النساء، دفعتُ العربة  
جهة موظف المرحلة الأخيرة، ستفتحُ البوابة الآن وأصير في حضرة اللقاء، هم هناك، أمي  
وزوجها وإخوتي، خلف حاجز الأبواب المتحركة.

حين قصدتُ لندن للمرة الأولى، كان أبي بانتظاري، نزل في معدتي القلق كما حالي الراهن،  
ودارت الحربُ بين جمودي وحنيني، غير أنّي استطعت عبور لحظاتي الحرجة حين سألني  
في سيارة الأجرة عن محلّ إقامتي، ذكرتُ له أن إدارة البعثة استأجرتُ لي سكناً في  
ستراند قريبا من جامعة كنجز كوليغ لدراسة الحقوق، وعرفتُ حينها أنّي غير مرحب بي  
في بيته، على أنّ زوجته استقبلتني بود وعرفتني على أخوي بلطف، وقدمتُ لي وجبة  
محشي الكوسا التي لم أتخيل يوما أنّي سأستطيع تذوقها، وحين شيعتني إلى باب البيتِ  
الإنجليزي أوصتني بتكرار الزيارة، فقلتُ في نفسي أنّ تلك تسوية لطيفة. وإذ ذاك هرب  
عني حرجُ المواجهات، ومحاولة إنهاء أشباح الأشواق النائمة في قعر روعي.

هل يشبه اليوم الأمس؟ هل يمكنني هنا أن أحمي حصوني المُنهكة من هجمات العودة بعد  
كل هذه السنين المنصرمة؟ هل أستطيع أن أخرج الآن من البوابة عابرا إلى أحضان الأسرة  
وإلى أحضان الوطن وشاعرا بانتصار أو هزيمة؟

لا أظن..

فلا تشبه الكويت مكانا ما، وليس اليوم كالأمس، وأنا قد اكتفيت تماما.

عاد «مُجاب»!

تهيبثُ رؤيته، عشرونَ عاما من الفراق غيرتَ الكثيرَ من الأمور لكني أدري أنني سأعود في مرمى نظرتَه لمعدني الخام، قبل التشكيل الزمني، وقبل تفاعلاتي/انتفاضاتي/تحولاتي الذاتية.

سأعود خولة الهشة، الحانية، خولة الصغيرة، الطفلة التي كانت تلتجئُ لصدره الواسع هربا من ضيقها، وتحتاج ابتسامته لتتعكزها وصبره ليدعم تراخيها، ربما لن يزعجني ذلك، ربما يطيب ويحلو أن أعود لذاتي القديمة ولو كانت تلك التي سعيت لمحوها وارتداء نوات جديدة. كلانا يعود اليوم.

عندما هاتفنتني أمي وأخبرتني باعتزامه على العودة وقعتُ في بئر صوتها، غطستُ بالأسئلة، لماذا يعود؟ مالذي طرأ عليه ليغير مساره وينعطف في رحلة جديدة لإياب قديم؟ كيف سيكون لقاؤنا؟ هل سنجرُّ الحكايات والأشواق كأبي شقيقين؟ وهل سنعوض الأيام/الأعمار الغاربة؟ هل سيعتذر عن المرتين اللتين حاولت فيهما أن أراه فهرب؟ أنهيت المكالمة، بلا تفكير ارتديت عباءتي، سعيت لمشواري الأحب -الجمعية التعاونية- دفعتُ العربة، أخذت حزمة بقدونس ونعناع وريحان، علبتي روب، كيس ذرة مجمدة. صعدت ل الميزانين، سألت البائعة عن عطر رجالي تطرحه علامة بيبيلوس فأشارت لزجاجات ملونة لم يكن ما أقصده أيا منها، لم أتأثر، ابتعت عطرا آخر لم يرسخ في ذاكرتي اسمه، تبخر كما تبخر كل الطريق ووجدتني في مطبخي، أغسل أوراق البقدونس. اقتربت مني الخادمة مُبادرة:

«سَلْطَة ماما؟».

هزرت رأسي:

«أنا أعملها».

بقيت تحوم حولي، ولا أدري لم رفضتُ تعاونها، أخذتُ أنظف الخضار، أقطعها، أخلط المقادير، أحضّر الصلصة. أزين الطبق بأوراق الخس، والسماق، أبتسم، مجاب يحب السماق، يكاد يضيفه لأي طبق، هل استخدمَ السماق في أستراليا؟ في لندن؟ لا يهم، هو عائد أخيرا، وأنا كأية شقيقة مهذبة سأذهب بصحبة عائلتي وأولادي وربما زوجي لاستقباله، سأحاول قدر الإمكان أن أغلق المنافذ على اعتمالات القلبِ المعطوب القايح في قفص الصدر، كيف لي أن أخبره أنني مذ علمتُ بخبر رجوعه لم أعد بخير. لم أعد تلك التي ظنت بأنها تجاوزت كل المنعطفات القديمة لتكون خولة الجديدة، الزوجة الطيبة والأم الحنون والابنة الشاكرة والكنة الصالحة والمواطنة المستقيمة. كيف أخبره أنني لم أر وجهه ولم أحاول ذلك مُذ غاب.

عندما تأكدنا من سفره قبل نحو عشرين عاما، عمدتُ إلى صورته كلها، وضعتها في صندوق أسفل سريري، قلتُ أنني أريد نسيان وجهه، نسيانه تماما، لا طاقة لي لأضيف لأحزاني أختا حبيبا أبكيه، فقدتُ الأب في الخامسة حين فضّل كرامته علينا فصرتُ أترقب عودته كل يوم، أقول ربما يعود به حنانه أو شعوره بالمسؤولية أو أي أمر آخر، ربما يعود لأجلي. كلما رن الهاتف في منزلنا أتوثب من مكاني لأجيب فقد يحملُ خبرا عنه، وعندما انتقلنا إلى بيت جدي، صرتُ أتنصتُ على الحوارات العالية والمنخفضة والهمسات المسروقة من شفاه الكبار، حتى طُعنْتُ باليأس حين تزوجتُ أمي، وانتقلنا لمنزل الجابرية، وصرتُ أنزعُ من روحي شوك الأمل، لماذا أتوجعُ لغائب آخر قد لا يعود أيضا؟ قد يعثر على حياته الهاربة في رحلة الانتقام/الهرب من نفسه، أنا مللتُ الانتظارات العقيمة هذه، مللتُ احتساب اللحظات، والترقب الأجرد، وانتظار الأب والأخ. ثم ابتليتُ بانتظار الزوج المفترض.

كيف أخبرُ مجابا أنني منذ امتدتْ خيوطُ الاتصالات في نوافذ التكنولوجيا وصار من السهل جدا أن يبعث بصوره وصوته في شاشات الهاتف صرتُ أمسحها بسهولة متناهية، وبقسوة لذيذة، تشبه انتصارا ما، كأنني أربح جولة تُدهشني ثم تكسرني إلى داخلي. ولكي أعذر نفسي وأواسيها كنتُ أسحب من غضبي تبريرا ما، أطمئن إليه وأصدقه، وأقرّ أنني لا أريد التعرف على مجاب جديد لا أعرفه، مجاب الدكتور في المحاماة وحقوق الإنسان، الذي

صار في منتصف العمر وعلّق على قوامه وجهاً آخر يشبهه لكنه ليس هو. هل سيصدق أنني سأتعَب إن عاينت صورهِ الجديدةَ لأنني سأحصى العمر الذي مرّ ومضغني دونه.

أنا أيضاً لم أبعث له يوماً بصورتني!

حين تزوجتُ أخيراً قبل أحد عشر عاماً طلبتُ أمي أن أبعث له عبر البريد الإلكتروني صور الزفاف، تحججتُ حينها بـ عيسى، قلت إنه لا يسمحُ ببعث صوري عبر الإنترنت. يومها لم أكن أملك جهاز «آي فون». لم يعلّق مجاب على اعتذاري، وما سألني صورة أخرى بعد ذلك.

لقد شوّهنا -نحن الإثنين- الفراق، غرّبنا عن ذواتنا، أنا.. هو، والدليل أنه ما راسلني مرة بصفة خاصة، يحادثني عبر الهاتف في مجموعة الأهل والتي أسميناها «قروب بيت الجابرية» بـ كيف الحال ثم تُنسرب الكلمات إلى حكايا الآخرين وأحوالهم. اليوم سيعود، وأنا أظل أسأل كيف سيكون لقاءنا؟ هل سيعرف أية إنسانة أنا اليوم.

اليوم..

تفتحت أمامي أبواب كثر في مرحلتي الحالية وأنا سيدة في الأربعين، أوقاتي مشغولة جداً، لا أقضي الليالي في صحبة السقف الأبكم، ولا الصباحات في نذب الحظ، ولا أرهف لهيف عبور السيارات ولا أتمنى أن أهرب من واقعي وأستقل إحداها وأظل أسأل نفسي مراراً: لكن... إلى أين؟

بالطبع فكرتُ كثيراً -أول زواجي- في بيت أمي كمستقر أو منفذ، لكن خوفي كان يمنعني، الخوف مم؟ هو اجس كثيرة كانت تنخر عقلي، يطل فيها وجهاً ولديّ، تعيسين ومتسخين ويبيكان لبُعدي عنهما كما بكيثُ لبعدي والدي، أو يتعرضان لسوء المعاملة، أو تستغلها زوجة أب أمعن في تخيلها، فأصاب بالحنق ثم الانكسار.

أو أجدني أفقد الأمل في المواطنة، ويهرب مني في حال وقع الطلاق.. حلم الجواز الأزرق. أو أجدني أمام المرأة ألعن نفسي، وأعرف أنني لا أستطيع الهرب من قدرتي، وأنني أشبه أبي

تماما في تخليه عنا وهربه بحثا عن ذاته. أو أجدني وحيدة منبوذة منطفئة في بيت أمي / زوج أمي، أو أراني أجيب عن أسئلة/مُساءلات كثيرة في زيارة عائلية، كأن أجيب عن سؤال خالتي الصغرى وهي تشكك: «وأنت ألا تخطئين؟» أو أنصتُ لكلام خالي عن عظمة صبر المرأة على سوء خلق الزوج دون قدرتي على الردّ والدفاع عن نفسي، أو تسرّب لي زوجة خالي تلميحا مواربا عن عمري الذي لا يليق به تدلّل الصغيرات. أو أرى فتيات العائلة وهن يغرفن لأزواجهن من المائدة العامرة وكلّ منهن تُكركر وتقول بمودة «نصيب زوجي» بينما يبقى صحنى فارغا!

هواجس منطقية ولا منطقية، تحارشنى وتعاركنى كلما استجد وجعٌ ولَبَسْتُنِي وحشة حياتي، رأسي ملتقى المخاوف، مضخة القلق، وعيناى حجران مصمتان.

ثم إن أمي ماكانت لترحب بي.

عندما أنجبْتُ «علياً» كنتُ خائفة القوى، خنقتني كآبةُ إنجاب الطفل الثاني في زواج غير مستقر بالأساس، مكثتُ في بيت الجابرية أسبوعا، أقضيه في مشاطرة الوليد البكاء، أو النظر إليه بأسف، و«عبد الهادي» الذي كاد أن يبلغ السنّين يلهو مع سارة، أختي التي تكاد تكون له أما بديلة، تُنيمه في غرفتها وتهتم بنظافته وطعامه فبيت «ماما نادية» هو المفضل دائما. زارني زوجي مرة واحدة، كان يُبدي امتعاضه ولا يكتمه بينما تُسرف أمي معه في التلطف، لم يكلمني ولم ينظر إليّ، اكتفى بأخذ الوليد في حضنه ونظر إليه لمدة طويلة دون أن يُحيل عنه عينيه. أخيرا وضعه في السرير المُزَيّن بالتور والزهور الزرقاء وقام واقفا، واضطرتت -لأكون زوجة مؤدبة على عكس انطباعه عني وما يحاول أن يجعلني أصدّق به- أن أمشي خلفه إلى باب البيت. قرب الباب قال لي:

«ارجعي بيتك بسرعة بلا دلع» ثم أغلق الباب دون أن يسمع مني.

لو كنتُ في وضع آخر، كأية زوجة، لفرحتُ بكلامه حمّال الأوجه، لكنني في بؤسى ذاك سعد الغضبُ إلى منابت شعري، كنت أرتجّ، والغرفة المزينة بالدانتيل ترتج، وكنت أتصعب عرقا،

وأود أن أصرخ به وبنفسي وبأمي، لكنني فقط ابتلعتُ كل قهري.

ثم عن أي بيت يتحدث وأنا أسكن في غرفة تختنق في بيت أبويه.. بيت الحمولة.

عندما فرغ المكان حدثتني أمي:

«اسمعي يا خولة، أنت أعز من روعي، وهذا بيتك وعمك أبو حسين ما يقصر معك، لكن تعرفين.. ما تسعد أم بطلاق بنتها، وما تحصل المرأة على زوج جديد كل يوم، وأنت بالذات صعب تحصيلين على حياة جديدة، تحملي واصبري، ولا تكثري التطلب، اقنعي».

وحين سكتُ دون إبداء أي انطباع ردت وقالت:

«من مثلك ترضى بأزواج أقل شأنًا بكثير، أنت في نعيم، زوجك ليس مخبولاً أو مصاباً بمرض وليس مطلقاً ذا عيال، اصبري عليه.. ستتغير الأمور.. لمصلحتك أقول.. احمدي ربك واقنعي».

حين خرجتُ من الغرفة، أحسست أن روعي تخرج من جسدي.

إذن كهذا الأمر، لأني ال بدون، النشاط في عائلة المواطنين عليّ أن أقبل بما يُتاح وأبلع الجمر وأصمت، لا بل أن أبلعه وأبتسم وأقهقه وأصفق حتى، فزوجي... ممتاز، إنه فقط يحتقرني ويحصي أنفاسي ويراقب كلماتي وخطراتي وحركاتي وسكناتي ويتحكم بأكلي ونومي وطريقة ثيابي ويؤول كلماتي بألف تأويل ويستعديني ... وأنا فقط لا أروق له!

وإنه فقط يُبقيني في بيت أهله بغرفة واحدة، وعليّ أن أشكر هذا الوضع، فأنا ال بدون التي لا بد أن تتحلّى بالقناعة، ولا يحق لها أن تحلم بحيوات الكنات الأخريات، الكويتيات، بنات الألقاب والعوائل، اللاتي لا يقبلن إلا بجناح كامل مجهز ومرفق بمطبخ وغرف منفصلة لأطفالهن الذين لم يأتوا بعد، أنا ال بدون.. ال بدون التي لن يشفع لها أصلها النبيل الذي أقنعوها به منذ الصغر.

بكيث، لكنها كانت المرة الغزيرة والأخيرة، وقررتُ رغم كل شيء أن آخذ بكلام/سياط أُمي، وأبقى أجد نفسي. واعتزمت ألا أعتبر أُمي وبيتها ملاذا بعد اليوم.

لكن شيئاً من العمق كان يؤكد لي أن هذه التي تدور أمام عيني ليست حياتي، أن ثمة سعة أخرى ورحبة تنتظرني، وغلّفت نفسي ومستقبلاتي بهذا الخاطر.. ورضيئت. ليس هذا مهما الآن، وبعد أن نهبتني السنوات المتعاقبة، ومجاب على وشك الوصول ويدي مخضرة بأوراق البقدونس، ليس هذا مهما. سأفرغ من السلطة التي أفرمها كما فرغت من أمور كانت تفرمني وتطحني لأجمع رمادي وأشكلي كما أنا اليوم.

\* \* \*

الثامنة مساءً، أُعلن عن وصول الطائرة القادمة من دبي إلى مطار الكويت، لا أدري لم فضّل مجاب ألا يأخذ خطأ مستقيماً من أستراليا إلى الكويت. أُمي صامتة تعلق عينيها على بوابة القادمين، حسين متوتر كعادته، أنا أعبث في الهاتف، لا أعرف أن أفسر حالتي، أشعر بألم في معدتي، أبو حسين مرح كعادته يكرر على أُمي: قرت عيناك يا غالية، لتبتسم بتكلف، سارة تطلب مني أن أرافقها إلى مقهى المطار، تقول «أشعر بالعطش»، ثم تقول إنها تود تجربة عطر جديد في منصة العطور، ثم تتململ وتطلب كوب قهوة، تنهرها أُمي:

«اصبري قليلاً.. يظهرُ في أية لحظة». تصبر ونصبر، أتفحص وجوه القادمين، أرصد فرح اللقاء، لهفته على وجوه المنتظرين، يُداخلي إحساس بالحنين فجأة، تثبت عيني على الوجه الحبيب، أقول لهم:

«هذا هو».

(٣)

انحناء الضوء الباهت على الجدار المزين بورق فاخر أعادني إلى المكان، نبهني إلى أنني - هنا- في الكويت في منطقة الجابرية تحديدا أنام في سريري في غرفة جديدة في منزلي القديم، حقائبي مُشرعة لم أستطع أن أطلق سراح حاجياتها ولا أن أصنفها أو أرتبها، أتذكر فقط كيف عبثت بها أمي ثم أخذت منها شهادة «الدكتورة» لتعلقها على الجدار في غرفة الاستقبال وكيف تدافع أخوالي وخالتي وإخوتي قبلا لتهنئتي والفرح بعودتي.

أتذكر أيضا طبق «الهريس» المنزلي الذي طهته أمي بالدجاج والذي اشتقت له طيلة مدة السفر غير أنني ليلة أمس وحينما تجلى في الطبق أمامي ما قدرت أن أمد له يدي، بالطبع أكلت هريسا في أستراليا، في بيت «الدكتور عبد الرزاق»، وفي حسينية «القاسم بن الحسن» بعض المرات، لكنه لم يكن أبدا يشبه هريس الأمس، الأمس البعيد.

ليلة أمس تخشبْتُ كثيرا على أنني حاولت ألا أفعل، لا يستحق مني الجمع المنتظر هذا اللا انفعال، يريدون حرارة واحتضانا وحكايا، وأنا حاولت لكنني أخفقت، حتى انسحبوا وهم يؤكدون على ضرورة استسلامي للراحة بعد رحلة السفر المتعبة، ورغم ذلك، حينما ذهبوا حاولت الانفراد بأمي، أو حاولت أن أعيد ذلك الوصل النائي، كانت تخبرُ الخادمة بتفاصيل تجهيزات غداء الغد، ضرورة طهو اللحم بالبهارات والقرنفل وتقطيع الخضار، لم تسألني عما يمكن أن أريده، ربما فكرتُ أنها تحفظني وتعرف ما أحтаجه بعد ارتحالي الطويل.

أخرجتُ هاتفي من جيبي، لوهلة أحسستُ بضرورة مشاركتها بعض الأحاسيس، وشهوة البوح صارت لحوحة بنحو غريب - فكرت، سأحدثها عن غلاب ويعقوب، عن أبي ميسم الطيب دون أن أذكر صدوده عني آخر أيامي في ملبورن، ودكتور عبد الرزاق، عن زوجته التي استغاثت بي وندمتُ على ما جرى بيننا، هل ستلومني؟ قد تفعل ولكنني أتوقع الآن أن تفهمني وقد تعثر لي على رخصة ما. سأريها عبر الهاتف صور مهدي الذي أصلحتُ سوء الفهم فيما بيني وبينه، ورامين الذي توثقت علاقتي به بعد عودتي الثانية إلى أستراليا، وأسمعها نعاء «أبو صبا» الشجي وترانيمه بعد أن صار مشهورا تحتضن شبكة الإنترنت الكثير من مقاطعه المصورة، سيعجبها حتما، تحب أمي أصوات النعاة الشجية، وقد

يعجبني أيضا فأسر لإعجابها أو أحزن وأفتقد الأماسي التي جمعتنا في أستراليا لأتذكر ما فرّق بيننا. الحواجز المكانية والمسافات بدت متهتكة، وأنا سأنطلق.

اقتربْتُ:

«تنامين؟».

بدت حَيْرِي:

«تحتاج شيئا يمه؟».

قربْتُ الهاتف من امتداد بصرها، بدت متحمسة، نقرتُ أيقونة ملف الصور، ثم الصورة الأولى.

«هذا رامين الأفغاني، صديقي، عامل مصبغة ملبورن في أستراليا، حدثك عنه».

هزت رأسها..

مقطع مصور:

«اسمعي... هذا أبو صبا».

أدفع بصوته عاليا منطلقا من سماعة الهاتف:

«عاشق وقلبي الحنين الليلة ذاب

روحي مشتاقة لصوركم بالحبايب».

تقول:

«صوته جميل».

تتسع ابتسامتي موافقا.

صورة أخرى:

«أختي بيبي آيات وأمها».

تصمت:

«وهذا أخي سيد أيوب».

تحجم.. تبتسم:

«كبر عن آخر مرة رأيتة فيها.. كان يزور خولة قبل ثلاث سنوات».

أشرع في الانتقال للصورة الأخرى..

تشير لي:

«اعفني حبيبي.. أتعب من التركيز في الهاتف، لدي طنين في أذني وصداع».

أصمت.. تصمت.. يتكسر صوتي:

«أروح أنا.. تصبحين على خير».

لا ألومها، تعاني من صداع، وربما تشعر أن هذه الصور التي ما عاشتها معي تغربها عني، تذكرها بالفراق الكبير، ومحاولاتها الدؤوبة للتكيف مع عدم وجودي، لا بد أنها قاست الكثير، أمي بهشاشتها لم تكن لتقدر أن تجتاز فقدي بسهولة حتى وإن صنعت المشكلات بيننا حواجزها وحالت بيننا وبين التفاهم على كثير من الأمور.

أو ربما آذنتها صور أخوي من والدي.

عندما انتقلتُ إلى لندن سنة ٢٠٠٤ حاولت توثيق الاتصالات بها من بيت منطقة ستراند، ربما لأن طراوة جديدة دبت في طرق المسافات المتصحرة بيننا، كنتُ خارجا من تجربة شديدة، وفي تلك اللحظات إذ أكلني أسفي على فعلتي قررت أن أعَمِّق تواصلنا عليّ أحظى براحة خاطر، وحتى حين التقينا في «مشهد» بعد ست سنوات من السفر والافتراق وبعد أن حصلت على درجة البكالوريوس، حاولت أن أرمم ما خَلَفته فيها من ألم ولم أزل أتساءل إلى اليوم عن جدوى ذلك.

لم أصلح شيئا، هل سأقدر على هذا الآن ؟

أيام استقرارى الأولى بأستراليا أوصيتُ عصام ابن الخال أن يشرحَ لها طريقة التواصل عبر المسنجر، صرْتُ أنتظر الإضاءة الخضراء، لها، لـ أخويّ حسين وأحمد، نلتقي قليلا، يتسرب الحديث، ويغلّفنا صمْتُ الأسئلة المتكررة، ما بين كيف الحال والأطفال والجو عندكم و.. لا أخبار.

قد تبرق حكاية ما، كما استهل أبو حسين الحوار مرة بـ «كشفوه»!

كان يخبر عن اكتشاف مكن صدام حسين بحرارة دبت في أوصال الحديث الميّت، وهذا ما لا يحدث مرارا. بعدها صارت اللقاءات مملة جدا، كنا عوالم منفصلة نات عن تراثها المشترك المتين.

في أستراليا طيلة الأعوام الماضية وحينما كنت أقوم من النوم لسبب أو آخر، سواء في ليلة متفتحة الرقدة أو ليلة سخية مسهبة كنتُ أحنّ إلى بيتِ الجابرية وإن لم أع ذلك، وإن كابرْتُ عليه، أحنّ إلى وجه سارونة. شعرها الناعم، وجنتها دائمة الضحكات، كلماتها المجزوءة، وتوسلاتها كي ألهو معها، أتصنّع أني تألمت مثلا، أقول آخ فتكركر، أو أتصنع السقوط، فتجلجل رنة ضحكتها وتلتصق بمخيلتي، أحنّ إلى صوت أمي وهدوئها فيتسرب غضبي وأشتاق، أحنّ إلى حسين وأحمد وخولة التي بدت لي غريبة في أيامنا الأخيرة. أحنّ أيضا -بخجل- إلى أبي حسين، لكني اليوم وبعد عودتي صرتُ أحنّ إلى أستراليا!

الأشياء كلها، الثابتة والطارئة، تمتزج أمامي وتغمسني في لحظة هلامية عملاقة، فلا أنا قادر على مجاراتها بالقفز، ولا أنا قادر على السير بثبات. ما هي يا ترى مشكلتي؟ لأنني عجزت عن تشخيصها، هل هي «وضعي» حقا؟

أم طردي للغربة؟

أم رواسبي القديمة التي حاولت أن أفرّ منها لكنها تعاندي وتترسخ في عروقي بفجاجة ووقاحة؟

أم شيء خفي يسكن ذاتي ولم أعرفه يوما؟

عبر الكثير من «أشباهي» هذه المحكّات، وعادوا بوجوه نضرة، أو استقروا في منافعهم قانعين بـ نزر الكرامة! لكني لا أقدر أن أفعل ذلك، أن أكون ضيفا هنا ومواطننا نموذجيا أو غير نموذجي هناك، ولا أقدر أيضا أن أكون..... أنا!

أن أمارس طقوس الصباح والمساء، أن أنام دون هواجس أو أستيقظ دون رغبة ملحة بالعودة للنوم/الهروب. اليوم أنا أستيقظ هنا، في الجابرية، في الكويت، في غرفتي القديمة، بشهادة عالية، وفرص طيبة. كل شيء يقول لي: إنها بداية مثلى أو هي جيدة بما يكفي.. المهم أنها بداية جديدة يا «سيد مجاب»!

ولكني بصمتي أقول لكل هذه الأشياء السمجة أنني لم أحب البدايات يوما.

كل البدايات الأولى ثقيلة جدا على مستقبلاتي، بداية كل يوم، بداية كل سنة جديدة، اليوم الأول للمدرسة، اليوم الأول ما بعد السفر، بداية الفراق/بداية اللقاء، كل شيء، على عكس النهايات، تبدو لي -غالبا- مقبولة وربما مُرضية جدا، فعندما أفرغ من الشيء -أي شيء- أشعر بخفة وتحرر، يخبو الضغط وترتخي كل حبال المشدودة، تفر تنهيدة من سجن صدري وأشعر بالفكّك. وهذا ما لم يحدث في بيت ستراند، لأنني لم أتخلص من أستراليا ورواسبها، ولا تخلصت من الكويت وحنينها، وكنت أوقن أن لي إلى إحداها عودة.

وها هي ذي عودة/ بداية، محتشدة بالاغتراب، عودة تتوهني وترضخني لسؤال المرايا اللجوج:

«من أنا؟».

## (٤)

أتأمل المكان الذي أنتمي له، حرصتُ على تنسيقه بالألوان الباردة، الحالمة، أكثرث من النباتات الداخلية والنوافير الملونة المياه، الكراسي المتسقة مع مفارش الطاومات، وضعت في إحدى الزوايا مكتبة مصغرة فيها أهم المراجع والموسوعات المعنية بتربية الطفل، وفي زاوية أخرى علبة شوكولاتة فخمة وبعض العصائر وإبريق شاي، كل شيء يبعث على الراحة، والتخفف، أخيرا.. الانتماء. أكاد أقضي في هذا المكان جلّ يومي، لا أشعر بالوقت الراكض، ولولا «ليلي» التي تتكلف البقاء في صحبتي لقضيت وقتنا أطول.

ليلي فتاة طيبة، لكنها لا تستطيع تجاوز العلاقة المرسومة بيننا، علاقة السيد والمسود، المسؤول والموظف، تظل تمعن في التواضع الباهت المبالغ رغم إصراري على أريحيته، لم يكن عبثا أن تكون «بدون» مثلي، أو كما كنتُ. فعندما هياتُ أسباب افتتاح الحضانة أضمرتُ في نفسي أن أوفر للعاطلات البدون أكبر فرصة ممكنة، مرة قلت لها:

«هناك فرق بين التواضع والتضاؤل، كوني على طبيعتك معي».

ارتبكت ثم ابتسمت، لكنها عبست بعد ذلك وقالت مدافعة:

«أنا على طبيعتي!».

ربما هي على طبيعتها، ربما أنا التي أقشر طبيعتي وأرتدي أخرى مختلفة، لكنني أغلي بالفعل كأني على مرّجل كبير من الهم، يشويني هذا الانكسار في عينيها، يذكرني بنفسي.

عندما أخبرتها أنني بدون أو كنت كذلك قبل سنوات سابقة، وحصلت بفضل زواجي على الجنسية الكويتية، لم تعقب، فقط تحركت شفيتها بشيء أظنه تهنيدة أو ربما همسة لم أسمعها، ربما فكرت أنها قد تجاوزت الثلاثين دون زواج أو فكرت بنحو آخر.

سنتان، لم تتغير خلالهما ليلى، لم يتأثر انضباطها، دقيقة موزونة ملتزمة، سكرتيرة مثالية، لكن هذه الحضانة الجميلة لم تمنحنا هبة الصداقة، أو ربما أكون أنا ممن لا يقدر أن يمنح المسببات. أو كنت كذلك.

في سنوات زواجي الأولى لم أفصح في اجتذاب عواطف عيسى تجاهي، ربما توقع حينها أمورا أكبر مني. في الحقيقة توقع الجميع مني ذلك، وافترضوا أنني القادرة على احتمال التناقضات والصبر - لماذا؟ لأنني الفتاة بدون.

كرر عيسى على مسمعي مرارا أنه لم يتقدم للزواج من فتاة صغيرة وبحث عن امرأة عاقلة، لا تُقيد بالسعادة اللحظية، تتجاوز الراهن، لا تحصر الفرح في شراء الأثواب والأحذية والحقائب، لا تُسأله ولا تتطلب، تقدّس الطاعة، وتخلق الاستقرار. كلماته ثقيلة، ترسب على عنقي، تمتص أنفاسي، كيف أوحيت له بأني كما يأمل؟ كيف قرر ذلك من لقاء جمعنا قبل عقد القران؟ أم أنه افترض ذلك وحسب، ثم هل كان هو كما بدا؟

اليوم أفكر بأسباب زواجنا، أحيانا أحدث ذاتي بضرورة عبور هذا المأزق، والنزوح عن مواقع الذاكرة اللعينة، لكني لا أقدر، يلح علي باستمرار ذلك الشعور بالقلق وربما الدونية، ويلاحقني حتى في استقراري الأخير، أفكر أن عيسى تغير معي للأفضل فلماذا لا أتغير؟ ولماذا لا أريد أن أتغير، ولا أريد أن أغفر، ولا أنسى كيف كان يتعامل معي، وكيف رأني سابقا. كيف رأني أهله ونسباؤه وسكان بيت ضاحية صباح السالم، الفتاة بدون التي اقتربت من الثلاثين والتي ستقبل بولدنا المطلق مرتين والمتعثر في دراسته. حين اقترنت بعيسى لم يكن قد حصل على شهادة الثانوية العامة، بعد رسوبه المستمر انتقل للدراسة في الدورات الخاصة التي تقبل بشهادة المرحلة المتوسطة، وعمل بعدها في القطاع الخاص في شركة لأحد أقرباء العائلة، ورغم أنه قارئ شره ويشهد له الجميع بأنه شخص

لمّاح ومتحدث جيد، ويقصده أصدقاؤه في مآزقهم الشخصية ومعضلات حياتهم الاجتماعية، لكنه عجز عن فهمي وتعثر في تحصيله العلمي.

تردد أمه: عين ما صلّت على النبي.

في يوم خطبتي اقتربت مني وقالت لي:

«عيسى أذكى عيالي، لكن الحسد أكله أكلا، حين كان في الثالثة عشر أصيب بقطع في الرباط الصليبي أثناء لعبه في أحد أشواط المباريات التي تنظمها المؤسسات الشبابية الأهلية، واحتاج علاجاً لمدة ثمانية أشهر خسر خلالها الكثير من دروسه .. فرسب».

وفي أول أيام زواجي كانت تؤكد أنه أصيب باكتئاب حاد فترث خلاله رغبته في الدراسة فتأخر، ومرة قالت أن مدرسا متعصبا استقصده بعد نقاش مذهبي فتسبب بطرده من مدرسته وانتقل لمدرسة أخرى. تعددت الأقوال والعجيب أنني بسذاجتي كنت أصدقها جميعا، إلى أن فهمت عيسى جيدا وعرفت أنه شخص مزاجي وحسب.

حين يحل الصيف يسافر مع وُلدينا ووالديه وأخته الصغرى في رحلة العطلة المنتظمة، وأبقى أنا في الكويت لأنني لا أحمل مثل زوجي وابنيّ الجواز الأزرق، كنت أتسول من طفليّ عبد الهادي وعلي شيئا من العاطفة دون جدوى. مرة سألتهما وأنا أعد الحقائب:

«تشتاقان لماما؟».

ضحكا وهزا رأسيهما..

«ابقيا معي!».

عبسا.. بكى عبد الهادي.

سمعني عيسى، سدد إلى عيني سهام نظرتة حتى خشيت أن يفقأهما. حين أغلق باب الغرفة ليلا قال بصوت ثابت متعال.. ثقيل.. منسق كأستاذ يؤنب طالبا في مدرسة:

«الأم.. لا تكون أنانية أبدا، تفضل سعادة أبنائها وأنسهم على سعادتها وراحة بالها، راجعي أمومتك».

فهمت حينها كيف تكون الكلمة أوجع من النصل.

وتساءلت لماذا تخذلني المواقف دائما؟

يومها عادت إليّ الذكريات المرة لكل صيف، حينما كانت أمي تأخذ إخوتي -الكويتيين- أحمد وحسين وسارة وتسافر مع زوجها/أبي حسين لقضاء العطلة، لنبقى أنا ومجاب نستحث حر الصيف. عاد إليّ وجمع يوم الجمعة، عندما كانت الأسرة الكويتية تذهب لزيارة بيت الشامية، حيث عائلة زوج أمي؛ أعمام وعمات إخوتي وتتركنا وحيدين. عاد إليّ كل ما حاولت أن أتناساه.

ولكن هل البوح ضروري الآن؟ بعد أن طابت حياتي، وعثرت على الطريق إلى قلب عيسى، وأصبحت كويتية أسافر مع أسرتي الجميلة، بل أصبحت أدير حضانة مسجلة رخصتها باسمي، الحضانة الهدية التي قدمها لي عيسى في عيد زواجنا العاشر.

بعد ثمان سنوات من زواجنا تحول عيسى المزاجي إلى شخص مجتهد، أو ربما نضج، أو ربما صارت الجدية في الكسب والتحصيل توافق مزاجه، كنت قد أنجبت ابنتي الأخيرة «حوراء» عندما اتجه في مغامرة غير مسبوقه إلى الاشتغال بالعقار، ووافقه الحظ فكسب الكثير، وتغير تعاطيه معي وتبدلت معاملته، صار يناديني بـ «وجه الخير» والغالية وأم العيال، وصرت فجأة هدية الحياة ومنحتها.

في ذلك الصيف حين سافرنا للمرة الأولى معا إلى لندن حيث يستقر أبي، قرر أن يكمل دراسته فور عودتنا للكويت، وشجعني على إكمال دراستي والانتساب لأي جامعة متاحة

بعد أن حصلت على الجواز الأزرق والجنسية الكويتية، وحين حانت ذكرى زواجنا العاشر قدم لي الحضانة، هدية يمكنها أن تسحب من ذاكرتي كل الأحداث الموجهة. لكنها لم تفعل.

هل أنا حاقدة؟

يُقال إن المرأة تنسى، يُعالج حنان المحبين قسوتها، يهذبها، يحررها من بؤسها، لكن محبة عيسى لم تمس بؤرة روحي، في داخلي غضب يستشيط، ولولا تعقل أحاول أن أتحدى به لكنت قد قررت أن أنتقم، أن انفصل عنه وأطلب الطلاق في أوج حاجته لي وسكونه لحياتنا واعتياده على وجودي، أن أزدريه في الوقت الذي صار فيه يطلب رضي ويُدلني، ذلك الدلال الذي تمنيته سلفاً.

أحياناً أفكر، أن أحوالي تبدلت بسبب ذكائي، يقال «تمسكنت لحد ما تمكنت»، وأنا بالفعل في بداية حياتنا كنتُ أتمسكن، أوحى له أنه وحده عالمي، وأحرص على رضاه وأعتني بكل تفاصيل حياته واحتياجاته، لا أذكر أنه سعى لتطبيب خاطري مرة فيما أسعى باستمرار لمراضاته واستجلاب مودته، يقول لي الآن:

أنت رَوْضِ قسوتي.. أنت علمتني الحنان.

أبتسم أمامه.. دون أن تؤثر بي كلماته.

أشعر بانتصار صغير، لكنني أحتشد مع ذلك بالغضب. أفكر أننا -أنا وهو- متناقضان ولائقان لبعضنا، فهو المتحدث اللبق القارئ النهم والمثقف العارف بالكثير من المعلومات العلمية والآراء السياسية وحتى النفسية والاجتماعية فاشل في دراسته الأكاديمية وغريب الأطوار أيضاً، وأنا التي ركضت أعماراً لنيل وده فلما نلت زهدته وازدريته.

لم يعد هذا مهماً، أنا الآن مواطنة كويتية منتجة، صاحبة حضانة، أنا مربية، أنا سيدة مكاني، أنسج الألفة في لحظتي، مكثفية جداً، متحررة، أذرو سكري في طعم الذكريات المر وأبتسم.

اقتنصتني المرايا الكبيرة قبالي.

لم أكن أبتسم.

(٥)

تغيرت الكويت.

قبل أن أسافر كانت العطلة الأسبوعية يومي الخميس والجمعة.

أثناء إقامتنا في منزل الجابرية اعتاد أبو حسين اصطحابنا كل أربعاء للمدينة الترفيهية، بمجرد وصولنا يعلن أنني قائد رحلة الترفيه، يُداريني مستجلبا رضي، فنبدأ كما أفضل بلعبة السندباد ثم ننتقي من الألعاب ما نحب، يشتري لنا البوظة والذرة والنفيش دون تذمر، أبو حسين رجل طيب، لكن ذلك لم يشفع له عندي يوما، لذا حينما يمارس دوره الأبوي الطبيعي في نصحي أو توبيخي أنحس منه وأتعمد الصمت والتجاهل لأمر له حقيقة عدم قبولي به، وفي مواجهتي مع الذات كنت ألوم أمي، لم أكن أبدي غضبي، غير أنني رسخت ذلك الحاجز بيننا ولم أقبل بعبء زوجها وبالمقابل لم أعطه ما يرضيه رغم أنه يرضى بالأقل.

اليوم السبت، وتوقعْتُ أن أجد إخوتي في مدارسهم أو وظائفهم، والوزارات في نشاطها لأقدم أوراق إقامتي، لكنها الساعة الثامنة صباحا والبيت في نعيم العطلة.

فتحت الستارة، رأيت أبو حسين يتريّض في الحديقة، رجل فارق السبعين منذ أعوام ولا يبدو عليه إلا الاستمتاع بوقته، أبو حسين لا يدخن، ينام باكرا ويفتح صدره لضوء الصباح، لا أذكر أنني رأيته غاضبا.

ذهبت للمطبخ، أبحث عما يسد جوعي، في السابق كانت أُمي تضع قطع «البقاصم والدرابيل» في خزانة قرب الفرن، فتحت بابها، يبدو أن الأمور ليست في مكانها المعتاد دائما، باغتني أحمد، يحمل في يده عطرا ويبخ منه بسخاء:

«اصطدتك!».

ضحكت وسألته:

«إلى أين يا عريس بهذا الهدام وهذه الوسامة؟».

ضحك بدوره.

«أنا ماشي، دعوت خطيبتي على الفطور».

هزرت رأسي:

«الله معاكم».

عندما غادرت قبل أعوام تركتُ حسين في العاشرة، ليلة السفر كنت أهيبُ بعض الحاجيات بسريّة، لم أُرِد لأحد اكتشاف خطتي، وبذروة قلقي دخل غرفتي فاضطربت كمن كُشفت جريمته، بعصبية قلت له:

«اطلع».

كان يحمل جهاز تحكم التلفاز ويبدو أنه يحتاجني لأصلح له أمرا:

«مجاب.. الله يخليك».

أصررت بغضب:

«مشغول».

خرج مخذولا. بيّت نيتي لمراضاته بعد ذلك وتوديعه بما يليق - لكن الوقت سرقني وسافرت وأنا أحمل الذكرى كندبة.

أدمن حسين الرسوم المتحركة، والألعاب الإلكترونية، كان أبوه يأتينا بكل جهاز جديد ينزل في الأسواق، ويذهب بنا لمجمع الرحاب لشراء الألعاب، غير أنه حين تُقبل علينا نتائج اختبارات حسين يبدي غضبه ويكاد يحلف أنه لن يسمح له باللعب في الأجهزة التي يسميها كلها «أتاري» مرة أخرى، تمضي أيام بسيطة، وينسى غضبه ويذهب بنا لنفس المشوار. من كان يتصور أن يتخرج حسين من إيرلندا طبييا؟

أحبني حسين دوما، كنت في نظره الأخ الكبير القوي الذكي، رغم أن أباه كان يجرح رابطننا بالمقارنة الدائمة بيننا أو بحثه غير المناسب.

«كن مثل مجاب.. شاطر مجتهد».

لم يكن حسين متحكما بعلامات تحصيله الدراسي تلك الفترة، إذ أبحر في عالم الرسوم المتحركة حتى الغرق فيما اعتدت أن أجنبي المركز الأول على دفعتي كل عام باستثناء السنة الأخيرة طبعاً. قبلها تميزت في نشاط الإذاعة المدرسية، وفي نشاط الصحافة ولولا وضعي لكنت الأول في مسابقة ألعاب القوى بينما بقي حسين آنذاك خاملاً. ورغم فارق السن بيننا إلا أن ذلك كان مؤلماً لي ومحرجاً، وربما له أيضاً.

أحمد.. تركته في السادسة. صبي بگاء يستمر بالالتصاق بأمي ويطالبها بالنوم قربه كل ليلة على الرغم من وجود سارة، الأخت الصغرى المدللة.

لم أودع حسين.

لم أودع أحمد.

لم أودع أحدا..

خرجتُ متلصصا من المنزل دون أن أثير ريبة أحدهم، يحركني غضبي وبؤسي لابتلاع هول المغامرة وحيدا، زاهدا بأي نوع من المشاركة، راغبا بالانعتاق من كل ما يشدني إلى المكان معتقدا بخلاصي، لكنني حملت كل أشيائه معي.

لماذا وصلت الأمور لتلك المنطقة؟ كيف صرت في غفلة هذا الكائن الغاضب، الساخط على غيره ونفسه، أين ذهب كل ذلك الزهو والاعتداد بالنفس والسعد بعد اقتناص لمعة إعجاب تسيل مع نظرات الدائرين/المنتشرين حولي. في المدرسة والمركز والنادي وبيت الجد الكبير.

فجأة صار كل شيء متناقضا تماما مع مفاهيمي المألوفة عن نفسي، صار مُرا، كل شيء، حتى الأشياء المفترض أنها مفرحة، لباقتي، نباهتي، وسامتي، ثقافتي، درجات التفوق الدراسي اللعينة، فأنا رغم ألقها لن أنتسب للجامعة، وإن نجحت الواسطة الحلم وأجدى أنني ابن «كويتية» فلن تفتح لي الوظائف أبوابها بسهولة، وإن تحققت المعاجز وحالفي طيب الحظ ودعاء الوالدة وقبلت بي الوظائف.. فهل يقبل بي خالي (أبو مريم)؟

الأحلام والأمني كلها تُنحر عبر أربعة نصول: ب د ون، «بدون» وصمة ال..... النبذ، الاختلاف، الإقصاء.

بدون مثل «علي بو ترمس» الذي يبيع النقولات في جمعية المنطقة و«أم جراح صليبية» التي تعطيها أمي ملابس الفائزة كل موسم، أنا مثلها تماما رغم كل تلك السعة والوفرة والقدرة على التذمر، والعيش في بيت الجابرية الفاره وحقيبة المدرسة الأديداس وسيارة الساب الموعودة. مثلها رغم الهوة الشاسعة التي تفصلنا، مثلها تماما، سأبقى هكذا بلا حلم ولا أمنية، سأرى أخوي وأترابي وأبناء الأخوال في أفضل الوظائف. وأنا.. ماذا عني؟! كيف انحدرت لهذا المستوى من التفكير؟ كيف صار هنالك أنا وهم؟ كيف صرت في فقاعة تائهة وحدي وهم على الأرض الصلبة.

أنا بدون. ولن أصل إلى شيء، سأبقى أدور في المضمار دون غاية حتى تنتهي قصتي  
الحزينة وتخمد أنفاسي، وربما أكون حينها قد صنعت أبناء آخرين، بدون مثلي تماما،  
يدورن في المضمار دون توقف، ككائن الطاحونة، معصوب العينين في عمائه التام.

إذن «والله لن أدرس»!

عبأثني، صرث متأهبا تماما للتشطي، في سنتي الثانوية الأخيرة، قررت أن أنسف كل ما  
بنيته. لن أدرس، لن أفتح كتابا سمجا من هذه الكتب المكومة على المكتب، سأمزق أوراق  
المراجعة والتلخيصات، ونماذج الاختبارات. ثانوية عامة.. هه! الثانوية العامة ليست  
لأشكالي، إنها لهم، ل بدر وعصام وحسين وأحمد. هؤلاء الذين يطل من وجوههم نعيم  
المصير الآمن، والاطمئنان والسلام، أنا على فوهة بركاني.

استشعرت أمي الخطب، وللأسف لم تكن عاملا مؤازرا، إذ شعرت أنها في صفهم، تطلب  
مني القبول بالفتات وأنا لم أعتد ذلك، ولا أستطيع اعتياد ذلك، «هذا قدرك». من قال أننا لا  
نتمكن من تشكيل المقادير؟

حسنا سأشكل مقاديري، سأهجر الأرض التي لفظتني والفتاة التي رفضتني والجامعة التي  
استثقلتني، سأغير قدرتي بنفسني، سأأثر لجرحي، سأسلخ عني جلدي، لن أعود مجاب  
المهذب اللطيف الطيب المتفوق العاقل، سأصير شخصا آخر تماما.. حتى لو لم أعد أعرفني!

هل صرت إذن هذا الشخص، الآن، وأنا أعود لبيت الجابرية وأمارس انسيابيتي المتمنعة  
في أسرتي. أحوم نحو أسئلتي، هل أنا ما سعيت لأكونه؟

من أنا؟

# طيور.. وهجرة في غير موسمها

مات الصبا لما وُلدتُ عديما

حيّ وتحسبني الكويت رميما

كالعشب ما اخضرّ الربيع به

حتى تصرّمه الخريف هشيما

حسن الفضلي

الكويت

١٩٩٨ / ٨ / ١٢

أصبح المكان هذا مجنونا جدا، وأصبح البيت لا يطاق!

تعمدتُ أن أحدث الضجة وقت الغداء رغم عضضة أمي لشفتها وبحلقة عينيها، وتعمدت أن أثير حنق الرجل البليد زوجها الذي انكسر فور سماع جملتي ثم أكمل طعامه بهدوء دون أن يقول كلمة واحدة، ورغم أن أمي قالت لي «الله ياخذك إن شاء الله» إلا أنني ضحكت وأكملت السلطة وعلبة الروب دون اهتمام.

توقعت ردة فعله وفعلها. هو ببلادته وبروده وأمي بتعجلها. ما لا أفهمه هو برود مجاب إزاء هذا المأزق اليومي، فهل يحب مجاب هذا الدب القطبي الملقب بزواج أمي؟ ولماذا يتحرج من النيل منه؟ وما الذي يمكن أن يصدر من هذا الأخرق سوى الرضوخ والاستسلام؟

أعرف أنه يفتح صدره لكلماتي المدبية، ويبلغ كل إهاناتي وتلميحاتي، وأعرف أنه لن يفعل  
إزائي ما يمكن أن يؤذيني لكن ما لا أعرفه هو علة لذتي وأنا أقوم بذلك.

أقلنا مرة في سيارته لمشوار صالون التجميل حيث نويت وأمي حلاقة خاصة، وكان كما  
هي عادته منشرح البال دون سبب، يضحك على كل كلمة، ويوصل الدرب بقصص وطرائف  
حتى أحسست أن كلماته صارت أوتادا تضرب في رأسي، وحين مررنا بمرتفع في الشارع لم  
ينتبه لتقليل سرعة السيارة فارتفعت بنا ثم ارتطمت بنحو من الشدة، صحت به:  
«وجع».

فساد الصمت الهادر، لكن أُمي قطعت ذلك بصوت متحشرج من الغضب لتطلب منه أن  
يلغي المشوار ونعود للبيت.

صفعتني بمجرد وصولنا ولم تكن تلك مشكلة تُذكر، المشكلة أنه هو الذي سعى لمرضاتي،  
وأخذ يخفف عن أُمي:

«جاهل.. لا تدرك ما تقوله يا غالية».

والتفت إلي:

«يا بابا ما عليه، أمك تصفحك عادي».

ضحك ثم قال:

«صفعتني أُمي على خدي مرة، كنت في الثانية عشرة من عمري.. تصدقان، اختفت بثرة  
من وجهي، صفا وجهي بفضل صفعتها».

وقهقهه بينما قالت أُمي: أرجوك لا تشجعها.

ذلك اليوم، تركتهما صاعدة إلى غرفتي وشفقت بابي بعنف ناقمة عليها، على أمي الرقيقة التي تدوخ من خط الجرح على جلودنا والتي يبدو أنها صارت تملك القدرة على الصفع والإيلام، وها أنا الآن على طاولة الطعام ألحس ملعقة الروب لكني أقول في أعماقي - كما قلت لنفسني تلك المرة، وكل مرة، وكل لحظة:

أكرهه، أكرهه!

أكرهه حد أن يُبكيني حنانه الثقيل، واهتمامه الذي يشبه اهتمام طالب موسوس بدرجة ضائعة.

كيف تحتمل أمي رجلا ببلاهته، إذ يعتذر بالساعة ألف مرة، ويتردد في توضيح ما يرغب به وينكفى على نفسه صامتا مُنهزما بدل أن يعلن بوضوح عما يحزنه، كيف تحترم نفسها حين تقارنه.. بأبي؟

أبي.. يا رباها!

سيد عبد الله، النايف، المتحدث، الذي يشهد الجميع بفصاحته وحكمته. يقولون أنه حين كان في السادسة ألف أول قصيدة رثائية ولحنها وقرأها في مجلس الحاج مبارك في المرقاب، حين انتهى قام جدي وقبل رأسه وأعطاه «ليرة ذهب مجيدي» قائلا له:

«أنت فعلا وارث جدنا السيد مجاب».

تثيرني الأسماء، تحفز بي شهوة المعرفة، أطلب في كل مرة حين يسيل حديث «عنا» أن أستكشف أصولي، شعور يُسكنني بالكفاية، يملؤني، يعمر فراغي وإحساسي الأبدي بالقلة، أنتشي - أو هكذا كنت - حين أسمع عن حكايا أهلنا ومسقط رأسنا وألتذ بأن يُؤكّد أن عطرا عريقا يفوح منا، منا.. منا شيخ عشيرة، منا دكتور معروف، منا عالم دين، منا رسّام، ناشط حقوقي، شهداء، ومناضلة بيئية تعرفت عليها عبر الحكايا السائلة في زيارة لبيت بنات الحاج مبارك ذات عيد، لدينا أبناء عمومة في أكثر من منطقة في العالم، لدي إرث سعيد

في ذاكرتي الحزينة، لدي حكاية ما مختلفة لكنها غير مخزية كما اعتقدت، أو كما تمرر بنات عائلة أبي حسين ليستنقصني، أنا لدي حكاية.

وُلد جدي يتيما في «الفاو»، ربته أمه المكافحة «زهرة»، التي ترملت بعد ثمانية أشهر من زواجها، زهرة الشمعة كما يطلق عليها أهل الحي، كانت في ذلك المساء تنظف البامية لوجبة غداء اليوم المقبل، فمن بين كئات «بيت السادة» برزت زهرة بعطائها وحبها لأم زوجها وأبيه وإخوته، حين سألتها مرة لماذا لا تنادين أم زوجك بعمة كما سائر الكئات، ردت: أم الغالي.. أُمي.

لم يزعجها أن تلوي الجارات شفاهن ولا أن تتسع ثغورهن، ولا أن تهزأ بها الكئات الأخريات، غَدَّت كل شيء بحب صاف، ونشاط ظاهر. تصحو صباحا، تصلي وتلف رأسها بوشاح ثقيل يؤكد على حشمتها، وترفع كميها عن ذراعين بيضاوين تنافسان بياض الضوء، ثم تبدأ في عجن الطحين، لا تتذرع بضيف حبيب صغير بدأ يعلن عن نفسه في أحشائها، ولا تتملص عن مهامها متوارية بغثيان الصباح، تأخذ عجيناها إلى التنور وتخبز أقراص الخبز لبيت أهل زوجها، بيت السادة، فإذا ما انتهت عمدت إلى «حوش» الماشية، تسابق الخادمة «نصرة» التي تأتي للمعاونة كل يوم من حيها الفقير.

عند الضحى، تجالس أم زوجها والكئات والأخوات، وتتعاون بالقليل الذي يتبقى لها من مهام إعداد وجبة الغداء، لا يهمها الظهور، ولا التباهي، تترك كل الأمور في مسراها بلين واطمئنان، رضية هانئة.

حين نظفت ثمار البامية في ذلك المساء، سحبها الشرود لرؤيا العصر، إذ سرقت فيه لحظات لتغفو، رأت خلال نومها طائرا أسود يحط في فناء البيت، فكرت أنه غراب في مدينة ليست بها غربان، لكنها حين اقتربت منه عرفت أنه لا يشبه أي طائر آخر. حدق بها بعينين كالجمر، ثم أخذ بمنقاره وشاحها وطار بهدوء في سماء خالية.

استيقظت بثقل، يبدو أنها شعرت بوهن في ظهرها، وبشيء كبير في صدرها، لكنها هشت كل شيء وقامت باسمه تسعى لمجلس النساء في فناء البيت وتحتسي معهن شاي العصر، أخبرتها إحداهن ذلك اليوم أن وجهها مائل للصفرة، فأكدت أنها متاعب الحمل ليس أكثر، وصارت تريهن انتفاخا خجولا في بدنهما الهزيل، وأخبرتاهن أنها أوصت «السيد» بأن يحضر لها من بغداد ثيابا مناسبة للضيف القادم تضيفها لما أعدته أمها لها من ثياب وأدوات، وأنها حين يولد السيد الصغير ستأخذه إلى مرقد «سبع الدجيل» وتهزه في «المنز» وتوزع على روح صاحب المقام السيد محمد سبع الدجيل سبعة أرطال من حلوى النعناع.

حضر السيد الصغير، وغاب السيد الكبير.

في ذلك المساء ويد زهرة مشغولة بثمار البامية، جاء الطارق الفجيع ليخبر العائلة بأن السيد أحمد قد دهسته شاحنة كبيرة في طريقه من بغداد إلى الفاو، ونزل الكرب على بيت السادة.

من كان يُحرز أن تتحول زهرة الوادعة إلى لبوة جريحة، حين طلب منها خالها أن تتزوج ابنه الأكبر لتنضم إلى زوجته الثالثة في ربة التعداد؟ من كان يحسب أنها تقدر أن تُخرج: «لا» من حنجرتها بكل ذلك الثبات رغم ضغوط العائلة والمجتمع، وتضيف لـ لاؤها أنها ستبقى أرملة السيد أحمد إلى آخر نفس في هذا العمر؟ من كان يفهم أن تلك الشابة الحسنة لم يعد يعينها من هذه الدنيا الواسعة إلا وجه ولدها السيد أمير الصغير، جدي الذي ورث جمال أبيه وذكاءه وفصاحته وربما بركة جده مجاب قاضي الحاجات.

السيد مجاب الكبير، المتشعب من شجرة كبيرة يسمونها الموسوية، والتي تنتهي إلى موسى الكاظم، الإمام المسجون، الذي قُتل مسموما بعد سنوات الغربة في سجن العباسيين. عُرف عن السيد مجاب -جدنا- بأنه رجل مبارك وله شيء عند الله، يرفع كفيه فيزيح قلقا جاثما من صدر أم ويهون الطلق على حبلى ويطلق أسيرا مظلوما من الزنزانة، وتزيد بفضل بركات الرعاة والسعاة والتجار، نافذ الرأي في الاستخارة والاستشارة، ذو الديوان المشرع الصدر والمفتوح لكل الضيوف والمسافرين في كل أوقات اليوم.

يحكون عن أحواله الغريبة فيقولون أنه رجل لا تفارق البسمة وجهه، باش حان، يجيد الاستماع لشكاوى الناس وهمومهم التي لا تنتهي، وصبور على افتضاض النزاعات، وحاذق في إصلاح المتخاصمين، ودود يحب أن يسلم على الجميع في الحي والطرق ودكاكين الباعة وفي المراقد والمجالس، لكنه إذا حضر شهر المحرم وبانت التماعة هلاله في السماء تبدل أحواله، فيصبح الوجه البشوش أحزن الوجوه وأكثرها استجلابا للكدر، ويستبدل الرجل الوقور نعليه بقدمين حافيتين تجوس الطرقات، ويصير في صدر المجالس بكاء كامرأة مغلوبة على أمرها أو كرجل غاضب ينازع الثأر أوتار صدره.

يحكون أنه في آخر يوم من حياته بعث إلى عياله كلهم عصرا في وقت ترتاح فيه الأبدان بعد كد الصباح رسالة على لسان خادم العائلة، قال لهم:

«أنا مسافر هذا المساء».

لما اجتمعوا حوله، وزّع عليهم وصايا بدت عادية، وأدار أعناقهم لأهمهم، ولأرملة أخيههم وولدها، ثم سلّم عليهم بكل بشاشة. في الفجر التالي بعثت أمهم لبيوتهم الخادم يخبرهم أن أباهم مات على سجادة صلاة الصبح.

أعيد هذه الأخبار في ذهني - أديرها مرارا، يتمازج الفخر فيّ مع الشوق للمزيد، محبة الماضي الذي يحمل لي أو أتهيا أنه يحمل لي ملامح هربت من ذاكرتي، ويصرخ بي السؤال: ماذا أفعل أنا هنا؟ هل أنتمي لهؤلاء؟ هل يليق بي أن أطلق كلمة أبي من رحم صوتي لتجهض قرب قدمي زوج أمي الذي أعلى ما يستطيع تحليله هو أحداث مباراة لكرة القدم ولن يجيد بكل الأحوال ذلك، وجهه الباسم يستل العبوس من وجه شياطيني العتية.

أنا أحمل غضبا مكبوتا يحرقني، يصير مواسم حياتي جهنم عظيمة، محرقة تسعى بلهيبها إلى كل الأشياء، أستطيع بكلمة واحدة أن أوقد المكان، أخرب اجتماع العائلة الغبي حول وجبة العشاء أو فيلم السهرة، أريد ذلك، أريد أن أحطم أصنام سعادة أمي العجماء البلهاء،

أريد أن أجعلها تتيقظ من حلمها الذي رسمته في خيالها، أريدها أن تصحو من غفلة وهم الأسرة السعيدة وأن تدرك أن دب الباندا الأحمر هذا ليس تعويضا.

أنا أريد أبي البعيد، أريد أبي.

كنتُ في الخامسة.

الخمس سنوات الأولى من عمري هي كل رصيد السعادة الذي أملكه، والذي أظن أنه يمثل حقيقتي. أو لأقل أنها تكويني الأول، أو هي منطقة الأمان التي كلما دهمتني خطوب الحياة أحن إليها، الفترة التي أحب ذاتي فيها وأطمئن لها ولا أتغرب بتلمّس تضاريس شراستي الطارئة. فترة أتمناها وأدرك أنها لن تعود، كان أبي يؤكد لأمي حين يوجهها في تربيتنا أن القلب يتكون بمشاعره ومبادئه وأهدافه وذائقته في الأربع سنوات الأولى، وأنا أتعجب كيف صار قلبي بهذا السوء نظرا لتلك السنوات التي عشتها بين أب ودود وأم طيبة، وأخ مؤنس، وسعادة غامرة، وصورة مثالية لأسرة مُحبة، أو هذا ما أذكره، لا أذكر أن صراخا ما ارتفع بين أبي وأمي، لا أذكر أن شجارا دب بيني وبين مُجاب، لا أذكر أي أمر سيء حصل في أيامنا الغاربة، كيف أتذكر أيامي؟

تومض صورة قديمة حانية في عتمة خيالي، أنا، خولة الصغيرة، بشعري الأسود الناعم القصير، أرثدي فستانا مخمليا أحمر، أنزل عبر دركات السلم إلى صالة المنزل. في الصالة أمي بثوب حريري أبيض، ووجه باسم، تُجلسني في حجرها، تطعمني خبزا وجبنا، وحليبنا ساخنا، ومجاب يشاهد حلقة من مسلسل السنافر الكرتوني، شرشبييل يخيفني، شرشبييل أكبر مخاوفي، في الليل في غرفتي الخاصة التي صرت أسكنها مذ أكملتُ الرابعة أرى أشياء غريبة في أحلامي، وتر قلبي يشتد ويرتخي ويرتفع حزن إلى عيني، أقصد غرفة مُجاب.

«أخاف».

يكبرني بثلاثة أعوام لكنه يهيني أبوة دافئة، يهيني فراشا قرب سريريه، يقرأ لي آيات يحفظها، يحكي لي قصة جميلة، أو يرسم معي بألوانه المائية التي يحافظ عليها من عبثي في الأوقات المعتادة، الآن أفكر، أسأل نفسي: لماذا كنت أقصده هو وأترك باب غرفة أبوي مقفلا؟ يطل كأول وجه في محني الصغيرة ويلوح كصارية الإنقاذ الأولى - لا أقصد أبي، الودود الحنون، لأن في داخلي صورة مسبقة مكونة عنه، عن تعبه، عن كدحه. «أبوك يشقى طول النهار» لا يستنكف أن يعمل نهارا في متجر الحلويات الذي يملكه جدي في «الديرة»، ويستثمر الليل في القراءة والتحضير لمجالس طيلة العام ومقالاته في مجلة العربي.

حين أدخل إلى غرفته الخاصة في الطابق العلوي، تفوح رائحة دهن المسك الأبيض والمشموم، ممتزجة بعطر الورق، ورائحة خاصة كامنة تسكن فجًا في ذاكرتي، يبتسم:

«تعالى بابا».

أدخل بهدوء، أراقب عينيه، منكبا على ورقه، كتبه الكثيرة، يفرغ من التدوين، ثم يبدأ في إطلاق طيور صوته، يرجع الألحان ويمزجها، تلك الألحان الصاعدة من حنجرتة تحيلني إلى العراق، وإلى حزن المواسم، يقول لي:

«هذا التغريد الحزين.. وهذا النصارى.. وهذا المجاريد.. اسمعي:

يا والدي والله هزيمة..

أنا أصير من صغر سني يتيمة

أثاري الأبوا يا ناس خيمة..

يقيي على بناته وحريمه».

تطراً عليّ صورة طفلة حائرة، تتشكل من ألحان صوته، طفلة حزينة جدا، تمرر لي حزن فقد الآباء، طفلة أعرفها في قصصه الرطبة، تمد لي كفا وتبللني.

ولا أقصد أُمي.

أُمي الهادئة، الرقيقة، التي تسقط مغشياً عليها حين تذهب بنا للتطعيم الدوري أو حين ترى الدم يجرح ركلة أهدنا، والتي تدوخ من منظر القياء وتنكمش من صوت الصراخ أو الرعد، الرهيفة التي قادتها الرقة للزواج من والدي.

ارتبطت أُمي بوالدي في آخر السبعينيات، حين كان من الطبيعي أن تقترن بنت الكويت برجل شهيم من العراق، الشاب الطيب محمود السيرة وابن السادة الذي يحيي مجلس العائلة الشهري.

هاجر جدي إلى الكويت في أول الخمسينيات، ترك تراب قبر أمه طريا في مقبرة وادي السلام وقرر أن يلحد معها أوجاع الماضي ويقصد مع عمه الأصغر الجارة التي يشد إليها العراقيون الرحال وتستقبلهم بترحاب، كان جدي قد أكمل حينها الرابعة والعشرين، وقد درس في حوزة النجف الأشرف ثلاثة أعوام فقط، بنصيحة من جارهم القديم في الفاو الحاج مبارك الذي كان قد قدم من الكويت ليقدم واجب العزاء وبمساعدة منه قرر جدي أن يترك العراق ليستقر في الكويت التي تحمل له ملامح وطن، لم تكن مسألة الانتماءات تربكه، لكن موت أمه سحب أنفاسه وأحال عراقه إلى حافة الدنيا.

انقضى أسبوع العزاء، وكلمات الحاج مبارك تنمو في حدائق رأسه، وسماء الفاو تبهت في عينيه، وهوؤها يشقيه، والصورة النمطية التي يطلب منه أعمامه وأخواله وجيرانه أن يكونها تفزعه، فلماذا لا يرحل؟ ألا تجري في أوصال العرب دماء واحدة؟

لذا حزم أمتعته، أخذ معه وشاح أمه المشبع بعطورها، وصورة لوالديه، وبعض الكتب على أن يعود بعد ساعة من الوقت ليأخذ كتبه الأخرى، ورافق عمه قاصدا الحاج مبارك في وطن البحر والنهار.

رحل الحاج مبارك من العراق واستقر في الكويت عاملا في أحد البيوت التي تمتد من الأسرة الحاكمة، عاد بعد مدة ليأخذ معه إحدى فتيات المنطقة زوجة تعينه على الغربة، واشترى لوالديه بيتا وأثته وساعد في زواج أخته، ثم غاب حتى توفيت زهرة فعاد معزيا وهو يفخر بأنه صار يحمل هويتين: الكويتية والعراقية، فيما بعد في مطلع الستينيات تم تجنيس الحاج مبارك وعائلته عرفانا من الشيخ الكويتي وأسرته الطيبة.

حصل عم جدي الأصغر على الجنسية، بينما لسبب ما حُرّمها جدي، سبب مهلهل الملامح لم أعثر له على وجه حقيقي إلى اليوم، فتارة تقول أُمي أنه لم يكن جديا في مسعى المواطنة حيث لم يكن يقدر أهمية ورقة تُمنح لتعلن عن كينونيته وتارة تؤكد أن موت الحاج مبارك حال دون ذلك ولا أفهم إلى اليوم الرابط بين المسألتين، والحاصل أن جدي عاش في الكويت دون ورقة إثبات، فلا هو عراقي ولا هو كويتي، وهذا ما دار أيضا على أبي.. وعلينا.

عاش جدي شبابه وكهولته وشيخوخته في الكويت، استأجر متجرا لبيع الحلوى: الرهش والزلابيا والدراويل والكعك الذي يسمى «قرص عقيلي» وحلوى الطحين التي تسمى الغربية، وكان يؤكد للجميع باسماء:

«المؤمنون حلويون».

و«من أطعم أخاه حلاوة أذهب الله عنه مرارة الموت».

وحين وُلد أبي في المستشفى «الأمريكاني» في الكويت وزع على الطاقم الطبي حلوياته، المولدة والممرضات والمساعدات، ولما لم يكن بقربه أحد من عائلته، استشار الحاج مبارك في التسمية، فأسماه: عبد الله.

لم يعرف أبي وطننا سوى الكويت، فيها وُلد ونشأ وقطع المراحل المدرسية حتى تخرج من كلية الآداب في الجامعة، وفيها تزوج بأُمي، وأنجب ولديه: مجاب وأنا، وفيها مارس ما يحب، الكتابة في الصحف، في صحيفة الجامعة، ومجلة العربي التي فُتن بها، وقرأ في

جريدة القبس أشعار أحمد مطر، وفيها أيضا خدَم في الحسينيات المنتشرة بكثرة وصدق بصوته الجميل في مواسم الحزن والفرح.

لكن الأمور لا تبقى على حالها، تبدلت أشياء كثيرة، في المكان، في الأنفُس، في حيواتنا الصغيرة، أنا أيضا استحلثُ لأخرى، مختلفة، أحيانا كثيرة لا أعرف نفسي، ولا أعرف لماذا ألجأ لحلول غرائبية، ولا أدري كيف أفسر ذلك الجنوح نحو السوداوية، أو عدم الرضا. لا أفهم لماذا كلما أذيتُ زوج أمي -وأنا ألتذ بأذاه- لجأت إلى استذكار أبي؟

العودة للتصور الأول لطراوة طفولتي تُنعشني، تُسكن القليل من ألمي، أو ربما تنتشلني من خانة الغضب إلى رقة الحزن، الحزن أمر جميل، آخ.. ليت كل الأشياء الموجهة تكتفي بإحزاننا ولا تُشيط غضبنا، الاكتفاء بالحزن ونزف الدمع يشعُرني أن الكون يتعاطف معي، يشعُرني أنني لستُ وحشا كما يظهر للجميع، يؤكد لي أنني فتاة موجهة، مجروحة بفقد أبيها وهجره لها، مشتاقة إليه، لكني لا أكتفي بذلك بل أفتح أبواب جهنم صدري لسياط السخط، وهذا ما يُحرقني.

استذكار أبي يدفعني للشعور بالانتصار، لسبب ما يُرضيني، وبكل غرابة يُثبتني عند الصورة الأولى القديمة، ويمحو من وعيي كل التبدلات الجديدة التي أستأصلها كما نتوءات متدنة من ثمرة ناضجة، أتساءل في عمقي، في بؤرة روحي، كيف أنسى أن أبي اختار الهجرة على البقاء معنا؟ وكيف تجلّد على الفراق وكوّن في حياته الجديدة أسرة أخرى؟ وبكل بساطة لماذا لم يأخذنا معه؟

لماذا؟

لماذا؟

الأشياء كلها غير مفهومة، أنا غير مفهومة، أحب أبي وأحن إليه رغم صدوده، وأكره زوج أمي وأمعن في إهانته رغم....

لا أطيق حتى أن أصف حنانه، لا أريد أن أخضع وألين معه ولو بالقليل، ولو بكلمة طيبة، ولو بصمت خال من شوك الكلام، ولو باعتراف سريّ لذاتي، لذا، حين تقول لي أمي الآن وعلى مائدة الغداء أن أشكره على الأثاث الجديد الذي اشتراه لغرفتي ظنا منه أنه سيُجبر قلب البنت البدون المكسور، البنت التي لن تكمل دراستها في الجامعة هذه السنة، أبطلق في عينيها ثم أقول:

«لم يجبره أحد.. ولا أريد أثاثا من أحد».

وأتم وجبتي باسمه.. متحدية.

ولكن لمن؟

الكويت

مايو/ ٢٠٠٠

هذه الهجرة تسري في دماننا.

مقدر لنا هذ الترحال.

هاجر جدي من العراق إلى الكويت، وهاجر أبي من الكويت إلى لندن، وأنا سأهاجر خلسة إلى المجهول.

سأقابل «حميد فاضل» أخيرا بعد تسويات وانتظارات عديدة. الشاطئ الساكن الذي أقصده هذا الصباح يستقبلني بحب عفوي، نوارس وسحب ورائحة مراوغة، تراب بارد وسفينة بعيدة تمضي بأفكاري المتناوشة، زرقة مائلة إلى الخضرة تذكرني بي، بانتمائي الذي لم أجده إلى هذه اللحظة، لا أدري لماذا الأشياء صعبة لهذا الحد، لماذا عذابي صعب مستصعب، لماذا لا تتيسر الأمور فأصير في عذابي مُشبهها للجميع، لماذا عليّ أن أبدو صوتا نشازا يصعب تحمله في وسط ترنيم متسق.

لو كنت مثلهم ربما لهانت الأمور، لصار لي أن أبكي أو أحزن أو أندب حظي، ابن الكويتية الذي عاش كالكويتيين ولم يعرف وطنا غير هذا الوطن الصامت الطارئ المشكلة، لن يقدر أن يبكي ضعفه كما أشباهه.

أحمل أوراقهم لكني أشد عن حيواتهم.

حتى حبي كان مختلفا.

...

في بيت الجد الكبير أربع أخوال وخالتين، أمي الوسطى وأكبر البنات، حضرت إلى الدنيا بعد سنة من ولادة أخيها، خالي مالك، الخال المحبوب المهذب الذي يجيد التعامل مع الجميع، واسع العلاقات وكثير الأصدقاء، لدى خالي مالك بنت واحدة، هي مريم وهي أمنيّتي.

قبل زواج أمي بـ أبي حسين كنا نسكن في بيت العائلة، تصغرني مريم بعام واحد، تستمر تزورنا كل جمعة، تأتي برفقة أسرتها، نقضي أوقاتا طويلة باللعب معا، نشبه بعضنا في كثير من الأشياء، التفوق الدراسي مثلا، حبها للون الأزرق، كعكة الفانيليا، ترش الليمون والسماق على طعامها مثلي تماما، تكره الكتشب. بعد وجبة الغداء ينفض الرجال إلى غرفة المجلس التي يسمونها الديوانية، بينما تبقى النساء في صالة البيت، يتخفن من أوشحتهن، وتحضّر أطباق المكسرات والشاي، كنت أرى مريم، الطفلة الوحيدة الملتصقة بأمها، والتي لا تخرج كي تعلق برفقة الأحفاد في الحوش الكبير إلا إذا دعوتها.

بالنسبة لنا، يشكل يوم الجمعة موجة في وتيرة أيامنا المعتادة على اعتبار أن بيت الجد هذا هو بيتنا الذي نسكنه. نستعد بعد صلاة الظهر والعصر ونتهيأ للقادمين، تبقى أمي في المطبخ تعاون جدتي في تحضير أطباق الطعام المميزة عما نأكله طيلة الأسبوع، بينما أستعد بالاستحمام وارتداء ثياب مناسبة تشبه ثياب الخروج.

تلك الجمعة كان قد مر على سفر أبي سنة ونصف، وفيها أتممت الثامنة من عمري ومن المفترض أن يحتفل أخوالي بذكرى مولدي. استيقظت أبكر من العادة، عقرب الساعة يشير للتاسعة والنصف، تركت فراشي ورتبت الملاءات كما تحرص أمي التي تنام في غرفة مقابلة لغرفتنا، بمنامتي هبطت إلى المطبخ متوقعا أن أرى أمي منهمكة مع جدتي في إعداد الطعام كما اعتدت، الجوع يقرصني لكني منشغل بكعكة مولدي التي اختارتها أمي من متجر البحصلي للحلويات، أفتح باب الثلاجة وأعاود النظر إليها مرارا، نهرتني جدتي بخفوت:

«يفسد الطعام.. ابعدي يا ولد».

سألتها:

«أين أمي؟».

تنهدت:

«يا قلبي.. لم تخرج من الغرفة.. رضينا بالهم والهم ما رضي بنا».

صعدت السلالم إلى غرفتها، طرقت الباب، كان مقفلا ولم تجبني، مشى الخوف على قلبي، عاودت الطرق بقوة وصرخت:

«ماما.. ماما..».

أخيرا فتحت الباب، كان شعرها غير مسرح وأنفها محمر، وصوتها مختنق، والغرفة تطفو بالعتمة، احتضنتني ومسحت على رأسي.

«مريضة ياماما؟».

سألثها، هزت رأسها نافية، ثم أوصتني أن أخلع منامتي وأستحم وأقلم أظافري لأرتدي زي «سوبر مان» الذي اشتريته لي بالأمس، وحثتني على الإسراع فإلصباح يركض ليأتي الظهر ويحضر معه أبناء الأخوال والخالات، تحركت لأفعل ما طلبت متوقعا أن تبدأ هي أيضا بالاستعداد لمهام هذا اليوم الاستثنائي لكني رأيتها تندس في فراشها وتحكم الغطاء على وجهها وتطلب إليّ أن أحكم إغلاق الباب.

حين حل الظهر، تدفق الأخوال بعوائلهم، ولم يبدُ أن أحدا منهم كان مهتما باحتفالي الصغير، وحين فُرشت سفرة الغداء واتخذت نساء العائلة جانبا من السفرة بينما جلس الرجال في الجانب الآخر كان ثمة أمر يُناقش دون أن أفهمه.

أخيرا قال خالي:

«صار الذي صار».

بينما قالت خالتي:

«وأين نادية الآن؟».

«في غرفتها».

أجابت جدتي.

وحين قال جدي:

«بسم الله مدوا أياديكم.. واتركوا عنكم كل السوالف».

رأيتُ أمي تخطو نحو السفرة ساهمة بينما تلاحقها نظرات الجميع، وتجلس بجانبني لتطعمني بيدها وهي تبتسم بطرف فمها وتؤكد لي أننا سنبتهج باحتفالي. لم تأكل أمي شيئا، لكن حين وضعت زوجة خالي الكعكة على الطاولة وصدق لي الجميع لاحقت جدتي

أمي بقطعة من الكعكة، وألحت عليها لتأكل، ثم قام الجميع بإعطائي الهدايا، دراجة بعجلتين، علبة صلصال ملون، كراسة وألوان مائية، مجموعة قصص المكتبة الخضراء، ملاءات لسريري، مريم أهدتني لعبة على شكل أسد يتحرك بالبطارية ويصدر زئيرا عاليا. «ويلاه.. إزعاج».

ردد جدي وهو يضحك. وضحك معه الجميع إلا أمي.

حين حل العصر وطلب منا اللعب في الحوش الكبير، ركبتُ دراجتي وصرت أطوف في المساحة الممكنة، ألحق القطعة التي تزور حوشنا بين فترة وأخرى فيضحك الأطفال، وتضحك مريم.

لكني وقعت من الدراجة على ركبتي وتبقع بنطالي بالدم، قصدت أمي لأريها جرحي ودخلتُ صالة المنزل فرأيت دموعها.

جلست النساء حولها وقد أرخيت أجفانهن وتغصّنت جباههن وأهدلن أكتافهن.

قالت خالتي الكبرى:

«هذا شيء محتوم.. هذا ما يسويه الفراق».

ردت أمي بعد أن تمخّطت في المحرمة الورقية:

«لكن.. ما توقعت الطلاق بهذي السرعة.. هنتُ عليه بسهولة».

قدمت لها زوجة خالي كوب ماء وهي تقول:

«أنت رفضت السفر معه.. رفضت الالتحاق به.. وهو كما نعرفه.. صاحب كرامة.. والرجل لا يصبر على زوجة بعيدة».

عضت جدتي شفثها السفلى مؤنبة.

«كافي.. انتهى الأمر».

استأنفت زوجة خالي:

«أنت صغيرة وجميلة والعمر بصالحك.. ولعلها خيرة».

نسيث جرح ركبتي وركضت إلى غرفتي وأغلقت الباب، لقد طلق أبي أمي إذن.

رميث نفسي على فراشي، أتأمل السقف، ثم أدير عيني في الهدايا حولي، طعم ملحي تكون في فمي، وأعرف أنني رغم سنواتي الثمان أدرك معنى الطلاق، كانت الأمور لتختلف لو لم يُحسم الأمر، كان هناك ما أسميه أملا، أمل في العودة إلى الأسرة الآمنة، إلى عافية اجتماع الأبوين، لكن الطلاق وضع الحد الفاصل.

لا أدري كيف مر الوقت إذ دخلت أمي الغرفة، جلست قربي ومطت شفثيها بابتسامة فاشلة، أمسكت يدي وطلبت مني أن أَلعب مع الأطفال، لكنني تقلبت على جانبي وقلت:

«أنام».

وظللث أتساءل: هل كرهه أبي أمي؟ هل كرهني أيضا؟

عشت طيلة سنواتي الأولى موقنا أن والدي متحابان، يبدو أن أمي بقيت قوية في وجود أبي، لم تكن تهمها مسألة الهوية والانتماء والأوراق الثبوتية، أو ربما أهمتها غير أنها لم تؤرقها، وجود أبي بجانبها جعلها منيعة وصلبة، لكنه لم يصبر على وطن يطرده، أتذكر أن حوارات مطولة طافت بينهما، ترددت خلالها كثيرا كلمة لندن.. لجوء إنساني.. نعيش بلندن.. أهلي بلندن، أعرف أن لي أبناء عمومة في بريطانيا في منطقة «هونسلو» و«بيتربرا» و«سلاو» لطالما حدثنا أبي عنهم، كما أن لي أقرباء في العراق، كانت أمي ترد «ما أترك الكويت.. صعب أفارق أهلي» فيمتد الصمت بينهما وتُغلق أبواب العُرف.

أخيراً أعد أبي حقايبه، يبدو أنه كان قد أنهى مراسلاته مع مراكز اللجوء في لندن، قطع تذكرة سفر من الكويت دونما عودة، بعد أن استخرج ما يسمى «جواز المرور» بمحاولات كثيرة. في تلك الفترة افترس وحش الصمت بيتنا، أبي صامت على المائدة، في السيارة، في الصباح، في المساء، في غرفته، وأمي واجمة، أو باكية في غرفة الجلوس، أو أثناء إعداد الطعام، أو خلال التحدث عبر الهاتف، تنام في غرفتهما وحيدة بينما ينام أبي في مكتبه، يتحادثان دون تبادل النظرات. ثم أن أبي قد سافر بعد وداع غاضب بينهما.

الآن أفكر هل أخطأت أمي؟ أم أخطأ أبي؟ هل فكّر أبي كما أفكر الآن على الشاطئ الذي أنتظر فيه من يُسمى «حميد» ليخلصني؟

هل عرف أبي ألا مستقبل له ولا لعياله ولا لعيال عياله ولا لذريته كلها في وطن ينبذه وينبذهم ولا يعترف بهم بل يبقّهم على الهامش ويسلبهم كيانهم؟ سافر أبي في منتصف الثمانينيات أيام كان الوضع أكثر رحمة من اليوم، كيف كان سيشعر ويتصرف لو عاش أيامنا نحن، هل يعلم أبي أن الأبواب كلها سُدت في وجوهنا، لا تقبل بنا مقاعد الدراسة ولا الوظائف ولا العوائل.

لا يقبل بنا أحدا!

لم يقبل بي خالي مالك زوجا لمريم. حين أفصحت له أمي عن رغبتني كان يزورنا في بيت الجابرية حيث أقضي عطلتي، لم يرفع عينيه في عينيّ أمي وهمس بـ «خير إن شاء الله». وحين رافقته لباب البيت أثناء خروجه ابتسم في وجهي وقال لي:

«يا سيد أنت ولدنا.. لكن أمورك صعبة حبيبي».

فهمت أنه رفض، وبأجمل صورة ممكنة، وبألين الجِيل الكلامية التي يتقنها خالي المهذب، لكن «اللا» تبقى «لا» موجعة ومدببة ومؤيسة، مهما كانت المُلحقات لطيفة. الأمر الهام أن خالي نجح في عدم إغضابي منه، لأنني غضبت من نفسي وحنقت عليها، وعلى أحلامي

الحمقاء وسذاجتي واعتقادي بإمكانية أن يقبل بي، كيف سيقبل بي؟ ولماذا؟ والمستقبل الكدر تظهر ملامحه بجلاء، كم كنت غيبا.

أنا غبي وأحمق، وحالم بصورة ساذجة حين تخيلتُ أن مريم قد تكون زوجتي التي تشاركني بيت الوالدة أو بيت «بو حسين» الذي لطالما تكبرت عليه واستكثرت أبوته أو أيا ماكان يحاول تقديمه بحب وطيبة. قبل أن تُحدّث أمي خالي، دخل أبو حسين إلى غرفتي، كان يرتدي لباسه المنزلي الأزرق المخطط بالرمادي، ويضع كوفية بيضاء على رأسه، طرق الباب، وكنت مستلقيا على صوفا طويلة في جانب الغرفة متعبا من مشوار الطريق الذي قطعته من الخيران إلى البيت، وفرحا بصورة غبية بأوهام مخدرة.

قال لي:

«نوسّع لك الدار، تدري.. نبنى لك طابقا يا يُّبه، والمهر عليّ.. لن تدفع أمك دينارا واحدا».

وقفت مبتسما وحائرا، شيء في صدري يدفعني لأقبّل رأسه شاكرا، وشيء آخر كالصمغ، يلصقني في مكاني، اكتفيت بأن قلت:

«مشكور عمي».

كنت شاكرا وممتنا، فالمهر الذي لن تدفعه الدولة سيتدبر ولن يُشقي أمي بسلفة أو اقتراض من البنك، والسكن سينتهي دون السقوط في مهاوي الإيجارات، بالطبع ستتبقى أمور، لو تم الأمر الذي ماكان ليتم، لكني حينها كنت قد جمعت مبلغا من أعمال المتفرقة مذ تخرجت من الثانوية، ومن عملي أخيرا في منتزه الخيران، وهكذا اكتملت أضلاع الحلم الذي انكسر فتهشمت ضلوعي.

لم يكتف الوجد مني، لم أزل طريدة مغوية والحزن قناصي، فبعد شهر من ذلك اللقاء خُطبت مريم لجابر حفيد عم أمي، المهندس في شركة البترول، وستعيش معه في منطقة الأحمدية تحت السقف الآمن لتشاركه الحياة المضمونة. يا للتعاسة يا سيد مجاب، مشكلتك

أنك تؤمن بكونك هبة ربانية عظيمة لا يمكن أن تُرفض وتُذرى، لم يزل بريق نبوغك على مقاعد الدراسة والتفوق يسلب وعيك وإدراكك ولم يزل ترفّع أهل عشيرتك في الفاو يمشي في صفائح دمك، وتستمر بالاعتقاد أنك عريس مرغوب، وأنت نجم العائلة الموهوب، السيد الفذ، وأنت أمنية الفتاة التي أحببتها وتصدق لوهلة حمقاء أن الأمر يمكن أن ينجح وأن الحياة ستريك وجوها حلوة وتحقق لك الأحلام الغبية، لكن لا! عليك أن تصحو وأن تفهم، لن تهبك هذه الأرض أنفاسك حتى، سيلتحفك الاختناق، يلتف عليك كأفعى شرهة، تعصرك حتى تطحن ضلوعك. غير أنك لن تبقى لتفنى في اعتصار الثعبان المقدس، ولن تسمح لمروءتك وأحاسيس انتمائك الغبية أن تُجذرك في أرض يتشهاك فيها فأس جائع لجذعك، لن تصبر لترى مريم تمشي بصحبة جابر أمام عينيك، لن تحدث هذه الأمور أمامك، لا بد أن تخوض مغامرتك وتعب القنطرة لتصل إلى مكان يحتفي بعقربيتك، يُشعرك بأنك ثمين ومقبول ومحبوب.

هذه الهجرة تجري في دماننا.

مقدر لنا هذا الترحال.

زُرعت فكرة الهجرة في رأسي أيام مرحلة الثانوية، حينما بدأت استيعاب وضعي، ولمست الحدود المرسومة لحياتي، وحين تخرجت ومُنعت من الدراسة في الجامعة اشتغلت في أعمال متعددة، وقتها اقترحت أمي أن تستعين بمعارفها وأعمامها ليتوسط لي أحدهم كي أستخرج جواز سفر يسمى جواز مرور لأدرس في الخارج، في أية جامعة خارج الكويت، حيث تلتزم هي وأبو حسين بالتكاليف، خصوصا وأن معدل تخرجي جيد جدا، ولو كنت أمتلك الجنسية الكويتية لقبلت بي أية كلية. بالطبع كنت لأحرز نسبة أفضل من هذه لو بذلت جهدا -أي جهد- في الفصل الدراسي الأخير لكن الإحباط أصابني بلوثة الغضب التي منعني من فعل أي شيء سوى الإهمال وجلد الذات، فتركت كل الدروس على حالها ولم أراجع أي نص أو مقرر، أنا الذي كنت أكثرث بالنصف درجة صرت فجأة غير عابئ، وبنفس هذه الوتيرة قضيت أيام ما بعد تخرجي، الجامعة أوصدت أبوابها، ولم أقبل أن أدرس في

المعاهد أو الدورات الخاصة المتاحة، ولما كان لأمي دور سيء في هذا إذ حرصتني لأقبل الفتات و«أقنع» أعلنت الحرب عليها وعلى بيت الجابرية، وصرت أرفض أن أستلم منها مصروفي الشهري، وعنادا قررت الهجرة وترك البيت.

في البداية، وحتى أستطيع تدبير أموري المادية كملء خزان وقود السيارة أو شراء القليل من الثياب أو الكتب التي أحب قراءتها عملت أعمالا حرة، فمرة صرت أبيع النقولات في الجمعية التعاونية، الأمر الذي أشعل فتيل غضب عائلة أُمي، أخوالي وأنسبائي وخالتي، كانوا يتساءلون: ما السبب؟ وكنت أُمعن في العناد، نعم أفضل أن أضيّع عمري في هذه الأعمال التي يزدرونها على أن أدرس في معاهد تُشعرنني بدونيتي، «ينكسر خشمك» يقولون لي للتحذير من مغبة الغرور، لا يعرفون أن كل عظم بي قد كُسر منذ خرجت من كهف الوهم وعبرت الظل إلى صورتني الحقيقية. بعدها انتقلت للعمل في منتزه الخيران، وهذا ما أسميته هجرتي الصغيرة الأولى من بيت الجابرية.

\* \* \*

التحقت بمنتزه الخيران عام ١٩٩٧ للعمل في قسم الإشراف على موظفي صالة الألعاب الإلكترونية، يبعد منتزه الخيران عن العاصمة ما يقارب ١١٠ كيلو متر مما يهيء لي عزلة عن الضجيج اليومي في المدينة ويرسخ انفصالي عن أسرة بيت الجابرية، أخذت حاجياتي في حقيبة متوسطة الحجم لأبقى في سكن الموظفين هناك في جناح مشترك مع ساجد اليمني وعلاء المصري، وصرت لا أقصد الجابرية إلا في يوم العطلة الذي يُعطي لي مرة كل أسبوعين، رغم أنني أفوته أحيانا وأبقى في المنتزه ممعنا في الخصام الصامت بيننا.

في الأيام الأولى كانت أُمي تتصل بي مرارا وتبكي أو تصرخ أو تُهينني بقولها «مثل والدك غدار»، تقفل الخط في وجهي وأنا أسيج نفسي بالصمت، فهي لن تفهمني مهما بررتُ ومهما وضحت ولن تُدرك غضبي، وفكرت حينها أن الابتعاد حل مناسب لي، فبيت الجابرية في كل الأحوال ليس بيت والدي بل بيت زوجها، والسكن المنعزل في هذا العمر أجدي من

البقاء في دائرة المشاحنات، المشاحنات معها هي، فعلاقتي بأبي حسين مغلقة بالصمت والاحترام، إذ لم أكن قبالة وقحا، لكنني لم أتمكن أن أحمل نفسي على محبته.

في الأسابيع الأولى في الخيران كنت متحمسا، أصحو عند الفجر قبل موعد دوامي الرسمي، أخرج بعد تهيئة نفسي إلى الشاطئ الذي تطل عليه الشاليهات والفلل الكبيرة، أمشي حافيا على الرمل الناعم وأصغي لصلاة النوارس وأطالع هيمنة الضوء، شيء جميل أن تعمل في بيتك، في مسكنك، ألا تفصل مسافة ما بين غرفتك وسريرك ومقر عملك، ألفة محبة كانت قد بدأت في التكاثر في دمي تطرد عني وحشة البدايات التي أكرهها، وحين أرثدي زيي الرسمي: الدشداشة والعقال، وهو زيي المتعاد في أيامي أنتعش وأبدأ يومي المهني، أذهب في السابعة إلى صالة الألعاب الإلكترونية، الصالة الوحيدة في المنتجع، هنالك ساحة للمراجيح الهوائية والمركبات والطائرات ولعبة العروسة التي تذكرنني بأرض المعارض في منطقة مشرف حيث كان أبو حسين يصحبنا للعب، ويشتريني لي كل ما أحب من كتب في معرض الكتاب، هنالك أيضا مطعم المرينا في المنتجع، المطعم الوحيد الذي يكتظ بالعائلات في نهاية الأسبوع بينما يفرغ في الأيام العادية حيث يكاد ينحسر عدد الزوار إلى أسرتين فقط وأحيانا لا أحد.

يعمل علاء في مسبح كُبر، يشرف على الأحواض ويدرب الأولاد وربما الرجال الراغبين في السباحة، ويحرص على أن تتم فرقة الإنقاذ مهامها وتُبقي أعينا يقظة على الأحواض وتنتبه لكل الحوادث وتهيئ كل الاحتياطات اللازمة، ساجد دكتور بيطري، يهتم ويشرف على خيول المنتجع في عيادة صغيرة جدا، ويحرص على نظافتها وطعامها، حين يأتي مساء تفوح منه رائحة الإسطبل، يدخل ليستحم سريعا ثم نحرص ثلاثتنا على الأكل معا، وتسيل أحاديثنا، عن الغربية والغربة في الوطن.

في الأيام الأولى عاملني كل من ساجد وعلاء بتحفظ، وكنت ألمس تضاريس سؤالهما المتواري في طيات كلامهما، يقول علاء:

«هذا القسم من المنتزه هو المبنى الذي يضم المصريين.. لكن حظي أوقعني في أهل اليمن».

يضحك واللحمة في فمه.

«هو أنت يماني يا مُجاب؟».

أهز رأسي نافيا وتعوي ذئاب حقودة في صدري، هل أقول له لا أنا كويتي كما كنت أكذب على الصبيان في المدرسة، فإذا ما حانت رحلة مدرسية مخصصة فقط للكويتيين أو نشاط معين أو حتى مسابقة محلية يستبعدني المعلمون فتفوح رائحة كذبتني وأرخي رأسي على الدرج وأهرب مخزيا.

«لا.. أنا غير كويتي».

«عراقي؟» يسأل ساجد.

هل أجيبه بنعم.. أنا عراقي الأصل، حقيقة لا أنكرها، لكن الكويت وطن جدي وأبي، وهذا حال شريحة كبيرة من الكويتيين، أصولهم من العراق أو الجزيرة العربية أو فارس، هذا الوطن يتسع للكثير فلماذا يضيق عليّ أنا؟

أقول له: أنا بدون، وأبدأ الرحلة الكلامية المقيتة الثقيلة التي تشعرني أنني أتقياً، يكتفي ساجد بما يسمع بينما يكثر علاء من الأسئلة، أين أبوك أين أمك كيف تعيش من هم أهلك كيف درست كيف تملك سيارة فورد أين تعيش؟ ألمس في صوته اهتماما حقيقيا حين يختم أسئلته بتنهدية طويلة:

«دُنيا عجيبية».

ننام جميعا، وأنام على أمنية وطن.. ومريم.

حين أضع على الوسادة رأسي أفكر أنني سأجمع مبلغا مناسباً من خلال عملي في منتزه الخيران، هنالك علاوات وبدلات طيبة، والسكن مجاني والطعام كذلك، وأوقات الفراغ سخية، والهدوء هبة بعد ضجيج نهاية الأسبوع، أستطيع أن أمارس ما يروق لي، أقرأ وأكتب وأركض وأركب الخيل إن أحببت وألعب الرماية وأرقب الشاطئ الساكن في الليل. سأجمع مبلغ زواجي وأدخر الدينار على الدينار، وأستكين بعزلتي لأهدأ وأنسى جراح الدراسة، وأفكر في مستقبلي مع مريم، لكن من قال أن الأفكار تتحقق في الواقع؟ ومن قال أن الأمور تجري وفق مخططاتنا؟

«لكل شيء حكمة».

يقول لنا أبو حسين هذه الجملة في أوقات متفرقة، حين تتعطل بنا السيارة في الطريق إلى المدرسة، حين يمرض أحدنا، حين تفقد أُمي بطاقتها المدنية أو علاقة مفاتيح سيارتها، يظل يحكي لنا عن قصة الوزير الذي يكرر جملة «هو خير إن شاء الله»، فلما خرج في رحلة الصيد مع الحاكم الذي سقط ونال جرحاً عميقاً في ذراعه أو رأسه، فواساه الوزير الموقن إزاء ذلك بجملة المعتادة «هو خير إن شاء الله» الأمر الذي دفع الحاكم الغاضب لسجنه ذلك أنه لم يعثر في جرحه على خير ما، على حكمة ما، بل ما نال منه سوى الوجع. لكنه أخيراً عثر على الحكمة في رحلة لاحقة، حيث أسره رجال من قبيلة أكلة لحوم البشر، فأكلوا حاشيته وتركوه حين وجدوا أثر الجرح في بدنه، فعافته أنفسهم، ولمس بتلك التجربة الحكمة المتوارية. أنا لم أجد حكمتي، لم أطمئن ليقيني، لم أعثر على الخيرة المخبوءة في زواج مريم من جابر، ولم أقدر أن أنتشل الحكمة المطوية في انتقالاتي من عمل لآخر حسب أمزجة أرباب العمل والظروف المتغيرة، ولم أستسغ ولا أريد أن أستسغ فكرة أن هذا البلاء يرفع درجتي عند الله ويمحصني من الذنوب.

لا أريد هذه القناعة!

عندما تواجهنا الأمور التي لطالما آمنا بها وصار اعتقادها بديهيًا ومن المسلّمات نقع في فخ الاختبار ومواجهة الذات، وأنا أثناء احتدام تجربتي وابتلائي الخاص أردت التمرد على

اعتقادي الذي أفتته، فيتشعب حينها غضبي، غضبي على ظرفي.. غضبي على مشاعري..  
غضبي على نفسي.. وغضبي على غضبي!

غضبي إزاء استحالة زواجي من مريم حرّكني لأقدم استقالتي من وظيفة منتزه الخيران،  
وعدت بعدها لبيت الجابرية، متماسكا من الخارج، ومفتتا من الداخل، موحيا للجميع أنني  
غير عابئ بأي أمر، بتعقل ظاهر وهدوء صرت أنتقل من وظيفة لأخرى، عملت في مركز  
خدمة الطالب في مكتبة جمعية منطقتنا التعاونية، ثم عملت في شركة لترويج الإنترنت،  
ثم سلّمني خالي الأكبر مسؤولية متجره لبيع الذهب في منطقة المباركية، وكان سخيا معي  
في الراتب الوفير والإكراميات، وكدت أركن آنذاك لأُموري المستقرة، وأجد خيار البقاء في  
الوظيفة مقبولا، مع صحبة الباعة الذين يشبهني أغلبهم، عيال الديرة البدون، المتوسطو  
الوضع المادي، أنيقو المظهر، الذين ينسجمون مع لوحة المواطنة بشكل متناسق ومفجع..  
يصعب أمر التمييز! لكن البدون يبقى بدون، مهما ناغم اللوحة.

حسنا، لن أبقى إذن، سأترك أمر متجر خالي، وأترك الأسرة التي صارت غريبة عني،  
وأخوض المغامرة، كما خاضها غيري من أشباهي وبتروا جذورهم من الأرض، النقود التي  
جمعتها من أعمالني صارت ذخيرة الهجرة غير القانونية، منذ ١٩٩٨ وأنا أحاول جعل مسار  
الرحيل قانونيا، بحيث أستخرج رخصة السفر وجواز المرور، لكن المعاملات تتعرقل،  
وتتجمد، ويُطلب مني العودة لنقطة البداية، أدور في حلقة صماء ودروب تفضي لدروب  
دون نهاية. كلّمت حميد فاضل أخيرا، أو أيا كان اسمه، حميد فاضل أم حميد جاسم، أم  
سالم حميد، تتغير أسماؤه كل مرة وحسب كل رواية يرويها أشباهي ممن نجح ذويهم في  
العبور إلى الضفة الأخرى، لكن الثابت أنه الشخص الذي سيتم معاملات السفر ويستخرج  
لي جوازا لأرحل نظير المبلغ الذي سأقدمه.

اتفقنا أن نلتقي قرب مواقف شاطئ البلاجات. في مكالمة المساء حدد لي الساعة وأخبرني  
أنه سيحضر بسيارة تويوتا بيضاء مرتديا «دشداشة» بيضاء، مكشوف الرأس، له ذقن  
حليق، وشارب خفيف. انتظرته لربع ساعة كنت خلالها أعيد النظر لساعتي، وحين بدأت

ساعات النهار بالتقادم صارت حرارة الجو تُخرجني من هدوئي، تعرّقت كثيرا، في يوم من أواخر شهر إبريل، لم أزل أبحث فيه عن النسمة اللطيفة، وفكرة النجاة، وأنتظر فيه حميد فاضل المهزّب الذي سيأخذ بي لأرض المواطنة «أستراليا» كما اتفقنا.

وصل أخيرا، لم يكن كما تخيلته، في منتصف الثلاثين يحمل ملفا فاقع الاحمرار وقلم bic أسود، يتحدث باستعجال ويعبث بمسبحة صفراء تمتص حرّ النهار:

- مُجاب؟

أهز رأسي بنعم.. أعطيه صورا شخصية، بطاقة الهوية، شهادة ميلاد، يُلحق أوراقى بمحتويات الملف الأحمر، ثم يمسكه بإحكام ويهف به على وجهه، أسلمه ظرف النقود، كل تعب الأشهر الماضية، مرتبات الخيران ومركز خدمة الطالب ومتجر مجوهرات الخال، وقرض من صديق، يحك ذقنه ويؤكد أن المبلغ كافٍ ولن تتطلب الهجرة المزيد، لكنه قبل أن يرتمي في سيارته يقول:

«احسب حساب مصاريف مُفاجئة.. خلّ معك مبلغا إضافيا».

# الحكاية الأولى

## ركض في ذاكرة التراب والماء

أنا الغريب أيتها البلاد

أنا الذي ودعت ما لم أراه

أنا الذي أبكي ما لا يمكن أن أفقده

أنا رصيف الموانئ وابن قاعات الانتظار

الشاعر محمد العتابي

(١)

مطار الكويت الدولي/المدرج

١٢ يونيو ٢٠٠٠

أجلس على الكرسي، الأرض بعيدة، الوجوه تذوب، تُلصقني المفاجأة في الكرسي، تمتد أصابع من العتمة على أنفاسي. الآن لا بد أن أقوم، لا بد أن أشغل العقل الذي تعب من التفكير لمدة طويلة، حتى مل التخمينات ومصارعة الاحتمالات، أقوم من مكاني، أضع حقيبة اليد في أعلى الكرسي، في قلب شيء أبيض ذي باب، أقرب إلى الخزانة، أغلق الباب، أعود لمكاني، قرب النافذة التي تُظهر مدرج الطائرة، مُتطرّف تماماً لأول مرة.

سأفعلها.

تقترب مضيئة عجوز من حافة الكرسي البعيد، تخبرنا -نحن الركاب الثلاثة- بضرورة ربط الأحزمة لأن الطائرة ستقلع بعد قليل، فأسرع كولد مهذب وأحكم إيثاق الحزام بينما يتلکأ جاري الأجنبي الملبّد المزاج، أمد عنقي أماما لمعرفة أحوال الجار الثالث، فأجده غافيا بسلام أحسده عليه. تُضيء علامة حمراء في الأعلى، أشعر بالبرد رغم أننا في ظهيرة يومٍ صيفيٍّ، فجأة أتذكر أن مفاتيح السيارة معي، أشعر بقلبي يهوي في بقعة الفزع، ماذا لو أقول لهم أنني لم أعد أريد السفر، لم تزل الهجرة إلى هذه اللحظة خيارا، من الممكن أن أقنص اللحظة المناسبة وأهرب كمن يسقط من سطر في صفحة حكاية، ماذا سيقول أبو حسين حينما يدرك أنني لم أعد علاقة المفاتيح؟ ماذا ستقول أمي؟ كيف سيفكر الجميع؟ كيف فكّرتُ إذ لم أخطط جيدا لهذه الأمور البسيطة؟

يتكثّف الصوت، فجأة، أهنّزّ بتهذيب، المكان كائن متحرك، يصير الهواء ثقيلًا ويترسّب على أذني، يُسرّع بي الارتفاع، تبيّض النافذة قربي تماما، أصمّ أو أوشك على ذلك، أبتلع ريقِي وأتذكر أنني تركت علبة اللبان في الحقيبة فوق الكرسي ولن أقوم بطبيعة الحال وأعبّر جاري في الكرسيين المجاورين لأحضرها، لا بأس، سيزول الضغط بعد أن يستقر وضع الطائرة في الهواء. ليست المرة الأولى التي أركب فيها الطائرة، المرة الثانية بالفعل.

في المرة الأولى ركبته راجعا بعد أشهر الغزو إلى الكويت من مطار دبي.

كنت في الثانية عشرة حين نابّتنا كارثة الغزو الصدامي على الكويت. في صيف أغسطس تلك السنة سافرت جدتي صحبة جدي إلى الولايات المتحدة لإجراء عملية في عينها اليمنى، وإذ صار بيت العائلة فارغا إلا منا أصر خالي الأكبر على انتقالنا إلى بيته حرصا منه على والدتي، غير أن والدتي فضلت البقاء طلبا للاستقلالية والراحة ومنعا للإجراج الذي تصنعه احتكاكات المعيشة اليومية، لكن حين فجعتنا المحنة صار لزاما على أخوالي كلهم أن يتجمعوا مع عائلاتهم في البيت الكبير، سارت الأيام مقلقة، والترقب وضغط الأعصاب يُسممان هواء المكان، وقتها كنت أتعرف على مستهلات المراهقة، تُراودني أفكار غريبة،

وأترنح بين حالات مجهولة من الغضب والذعر، وأقضي أوقاتا طويلة أقيس طولي وأقارنه بأطوال أبناء الأخوال، ودون سبب معين كنت أفخر بشاربي.

قالت لي أمي:

«تُشبهه أباك».

رد خالي الأصغر:

«عراقي أصلي».

ضحك الجميع بينما احتقنت بالغضب، إذ صرت أشعر بعدائية لا أفهمها تجاه أخوالي، فمن جهة أحمل وصمة الأصول العراقية التي صارت تشبه الإدانة في تلك الأيام، ومن جهة أخرى لم أكن أطيق أي انتقاص لوالدي، والأحاديث التي كانت تدور حوله سابقا فتحلل أفعاله وتشخص أسباب غيابه وتنتقص وتنتقد زواجه في لندن من إحدى بنات عمه.. كل تلك الأمور التي تتداول حوله وكنت أقبلها أو لم تكن تهمني صارت في هذا العمر تُشيطني غضبا.

صعدت إلى غرفتي بينما استمر خالي بالقول:

«دمكم حار.. لا فائدة».

رد خالي مالك:

«اسكت عنه».

سيسكت عني وأسكت عنه، لكنّ حنقي لا يسكت، رغم أن أمورا كثيرة كانت تجري أمام عيني تؤكد أن أخوالي لا يحملون الضغينة لي ولا لأبي ولا للعراق أصلا.. إلا أنني كنت أستلذ

بجعل الأمور تسير في هذا المسار، كأني أجد مبررا لغضبي، كأني أهىء أسبابا لأعاقب أحدهم.

في مساء ما طرق بابنا شاب من الجيش الشعبي، بحلته الخضراء البسيطة، وبُنَيْتته الضعيفة، كان دون العشرين بالتأكيد، ارتعبنا، سأله خالي مالك: «خير؟».

وعلى عكس المتوقع، بدا الشاب مرتبكا:

«أسأل عن بيت حاج علي رضا.. قالوا إنه في هذا الحي».

أجابه زوج خالتي:

«حاج علي انتقل منطقة ثانية.. خير إن شاء الله؟».

تنهد الشاب ثم نكس رأسه، لكنه لم يخرج، عاود خالي طرح الأسئلة:

«معك أحد؟».

هز الشاب رأسه نافيا، حينها بدا كطفل صغير، قال:

«كنة الحاج علي عمه أمي، أعطوني العنوان حتى أبقى عندها».

لمعت عينيه:

«أوصتني أمي: لا تقتل أحدا.. حلفتني بالعبّاس، أخذوني عنوة وألبسوني حلة خضراء واسعة وبسطارا غابت فيه قدمي، وأعطوني بندقية لم أحمل مثلها يوما ولم أعرف كيفية استعمالها وقذفوني هنا».

ثم قال:

«والله جوعان».

ركضت زوجة خالي الأكبر وأحضرت له شطائر كانت قد أعدت للعشاء وكوب شاي وحين خرج من الباب قالت له:

«الله يعينكم يا يمة.. الله يعيننا جميعا.. حسبي الله على الظالم».

يومها.. تداخلت المشاعر في رأسي، صارت كرجوة ساخنة، مزعجة، أنا كويتي أحترق حزنا لما ناب أرضي، أنا عراقي أحترق حزنا لما ناب أرضي، أنا بدون أحترق حزنا لوجودي، ليس للكفة أن تميل إلى أي اتجاه.

استمرت الأمور بالتطور تلك الفترة، صار العناد يمشي في صفائح دمي.

عزم خالي مالك على السفر إلى الإمارات في منتصف شهر أكتوبر، ولم يكن شيء ليُثنيه عن أخذنا معه، كان قرارا وليس خيارا، حين رأيت أُمِّي تجمع حاجياتنا بألية قلت لها:

«أنا باق هنا .. ما يجبرني شيء على رفقتكم».

نظرت لي بعينين متحجرتين، ثم ردت:

«ما يعود الأمر لك».

صرخت:

«يعود لك.. لإخوتك؟ أنا ما يغصبي أحد».

قامت واتجهت نحوي ثم أمسكتني من ساعدي وهزتني بعنف لأول مرة، قالت:

«جدّك مات في أمريكا، وجدتك مع عائلة كويتية ثانية وصلت إلى دبي أمس وعلينا أن نلحق بها، وتخرس أنت وتطيع الكبار وتمشي على الأوامر واسأل الله ألا يوقفونا في الحدود بسببك أنت وسبب جوازك».

ثم انتحبت وبلا إرادة انتحبت معها وضممتها إلى صدري.

حزني على جدي حرّني، بكيت عليه تلك الليلة، على جدي الطيب الذي غاب في تغريبة حزينة، ودُفن هناك وحيدا بلا عزاء يليق بعيدا عن شُبانه الأربعة وأنسابه وبناته، هذا ما يقوله الأخوال والناس، وهذا ما كنتُ أستمر بتصوّره، أتصور جدي بدشداشته البيضاء ينزل في التراب كمسمار في لوح، من قدمه إلى رأسه، يلوح لي ويغيب، وأتصور جدتي بعينين مذبوحتين قرب قبره، ضائعة وباكية ولا تعرف طريق الرجوع للبيت، على كل حال، مات جدي في سيارة الإسعاف، كان قد شعر بوخز في صدره ثم ثقل لسانه الأمر الذي دعا جدتي لتهرع لجارهم الكويتي في نفس العمارة، الأرملة «سليمان» الذي يسافر مصطافا مع والدته وأخته وابنتيها، وحين طلب سليمان الإسعاف وحُمل جدي بالحماله، تلتقت والدته جدتي لتهدئ من روعها بينما رافق سليمان جدي الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في سيارة الإسعاف.

سليمان هذا هو «أبو حسين» زوج أمي، الأرملة الأربعةيني الذي توفيت زوجته بسرطان الرحم بعد زواج استمر لسبعة أعوام دون أطفال. يبدو أن المحنة لها وجه آخر في حياة أمي، فهي التي جمعتها بالزوج الأكيد الأبدي، الذي عوّضها عن فرار أبي، ورحيله الجارح.

حين قطعنا الدروب من الكويت إلى المملكة السعودية وإلى الهفوف ومنها إلى حدود الإمارات في السيارة الجيمس الكبيرة، كان سليمان بانتظار أخوالي، بطيبته ومروءته التي شهدت بهما جدتي، ولئن لم يدخر جهدا في تهيئة السكن بالتعاون مع القنصلية الكويتية، وقام بكل الترتيبات لجمع الشمل، وخلص الأوراق والمعاملات بصورة سلسة، فإن الكثير من الأمور تهون ليتبقى اللقاء الدامع ويبدأ الإخوة عزاءهم.

في الإمارات أنهيت الأول الإعدادي، ما يعادل الثالث المتوسط في الكويت، حين أعود من المدرسة مرتديا «الكندورة» وهو زي شبيه بالبدشداشة البيضاء، أنزلها وأنزل إلى الطابق السفلي لشقتنا في عمارة المطينة في دبي لأجد سليمان -غالبا- في صالتنا يجالس أحوالي الذين يكررون عبارة «لوما الظروف ما تركنا الكويت»، بينما تعد أمي والنسوة أطباق مائدة الغداء، يسكن سليمان وأمه وشقيقته في شقة مجاورة، تدعو الفتاتان «خولة» وبنات الأخوال لمشاركتهم اللعب أو الرسم أو مشاهدة مسرحية لولو الصغيرة. وخولة التي قد بلغت الحادية عشرة حينذاك، كانت تعود من جمعهن.. حزينة كل مرة، وغاضبة لدرجة الوعيد، أو لدرجة التعهد لنفسها على مسمعي ومسمع أمي بالأ تعود، لكن في تلك الغربية وذلك الملل كان من السهل نقض العهود.

تفوقت في تلك السنة أيضا كما هو معتاد، وزيادة في التودد إليّ أخذني سليمان إلى مجمع كراون بلازا، هبطنا من السيارة لتصفعنا الرطوبة، دخلنا المجمع وقال لي:

«اختر ما تحب.. تستاهل الهدايا».

لم اختر شيئا، لم أكن أريد ذلك، بالذات لم أرد هديته، لكني لم أجرؤ على إفصاح ما يعتمل في صدري، في النهاية، اشترى لي ساعة تشبه الآلة الحاسبة، وحين عاد بي إلى البيت كانت أمي باستقبالنا، قالت له:

«الله يعطيكم العافية».

مطرقا إلى الأرض أجابها بخفوت لا يليق به:

«الله يعافيكم».

ولو كان قد رفع عينيه، لو كان فعلها ... كنت سأفقؤهما.

تأكدت حينها أن أمرا يدور، وأن أفكاري ليست أوهاما، وأن انعطافا هاما سيحصل، ولا أدري كيف هدأت حروبي الذاتية حين تفشت أخبار الضربة الجوية، وانشغلنا بتتبع المصير والخوف على الوطن والأهل، إذ ابتعدت كل الأفكار عن رأسي وصارت تسكنني الكويت.. والكويت فقط.

وحين جاءنا خبر التحرير وحين حددت القنصلية موعد عودتنا في منتصف يوليو، وحين ركبت الطائرة لأول مرة، عائدا برفقة أخوالي وأسرة سليمان، عارفا بالاتفاق المبرم بين الأسرتين على زواج أمي، وحين هبطت الطائرة، وحين قبّلت ترابها وسجدت شكرا عليه، حينذاك.. وفي كل ذلك.. لم يكن يشغلني سوى الكويت.

والآن في هذه الطائرة، وهي تنهب المسافات البيضاء، ألا تشغلني الكويت؟ هل يمكن أن أعيد كل الأشياء لصورتها الأولى؟ كويت.. كويت.. كيف تركتك يا حبيبتي.. يا حلما على طرف الهدب، كيف فعلتها؟ كيف طاوعني قلبي.. أرجوكِ اقبلي بي لأقبل بنفسي.. لأعود وأكون ذاتي، أرجوكِ لا تقصيني.. لا تطرديني.. لا تحيليني إلى المنفى.. إلى العدم.. أرجوكِ.. أرجوكِ.

## (٢)

تايلند/مطار سوفارنابومي الدولي

١٢/يونيو ٢٠٠٠

أخيرا.. تفتح الطائرة أبوابها، ولحظي لم أكن أحمل إلا حقيبة الظهر الحاوية جوازي المزور ونقودي، علكة، علاقة مفاتيح سيارة، بنطالا وقميصا ولباسا داخليا، أوصاني حميد بالأأ تجشم عناء حمل حقيبة كبيرة، أكد لي أنني سأعبر حدودا كثيرة وتخفيف الأحمال سيكون عاملا مساعدا. أنزل من المدرج، هواء جاف يكلم روحي، أضيع في لغة غير مفهومة،

متصلب الأطراف، قلق، أعصابي شبكة من أنابيب الكهرباء المكشوفة، الوجوه تخلع عنها هبة الترحاب، أسير خلف الركاب، أحدثني: لا بأس.. سيمضي هذا كله، أفكر ماذا لو أخذت طائرة أخرى وعدت إلى الكويت الآن، أشعر بهزائم تطوح بي في أرض حرب لا أسبرها، لا أعرف خصومي، أنا والعالم ضدي، أحاول أن أوازر نفسي، أصل لمبنى المطار، صفرة فاقعة تسحب أنفاسي، أكره اللون الأصفر، أقف في طابور طويل، أحاول التركيز، أصل لشباك الاستقبال، أتحدث الإنجليزية بطلاقة، يطالعني المسؤول للتأكد من صورتني، يهبط بي الذعر إلى مهوى معتم، ماذا لو كشفت؟ كيف وثقت بحميد أو أيا كان اسمه؟ هل سأسجن هنا؟ تدور صور من أفلام كئيبة أمامي، واللحظات تتمطى بلؤم، وإذ يختم الموظف جوازي أخيرا، أتنفس بعمق وأمضي في طريقي، أبحث بعيني عن لافتة مفردة الخروج باللغة الإنجليزية، أدير عيني، أعثر أخيرا عليها، أخبرني حميد بأن المندوب سيستقبلني خارج المطار، «كيف سأعرفه؟» أكد لي أنه سيحمل بطاقة فيها اسمي.

أعبر البوابة، أسير متصفحاً الوجوه، والمكان، والطبيعة، والجمال والقبح الكامنين في الأشياء، الوجوه السعيدة باللقاء، الوجوه المتحجرة، العمال المتسارعين، الأطفال، بكاءهم المسكوب على الأرصفة... بكائي وحش محبوس في صدري، ألقى المندوب يحمل لافتة تُظهر اسمي، سحنة عربية تطفو على وجهه، أشعر بالألفة، أمشي إليه.

«أنا مجاب».

لم أنتظر منه طلاوة الترحيب لكنني لم أتوقع ذلك الجفاء أيضاً، معقود الحاجبين يجيبني:

«تأخرت كثيراً».

وإزاء لهجته التي لا أقدر على تخمينها، أرد بدهشة:

«أنا؟».

يشير لي إلى اتجاه السيارة، يحثني للإسراع، يقول لي:

«نتيجة لذلك ستطول أمورك كثيرا».

أتساءل عن الأمور التي ستطول، وعمما يقصده بالتأخير، نمشي، ألحظ السحب وهي تكاد تخفي قرص الشمس، نصل إلى السيارة الصغيرة، أجلس في الخلف حيث يجلس قرب السائق الذي يحدثه بلغة لا أفهمها، رائحة زنخة تطمسني بغثيان غامر، تتحرك السيارة، يمد المندوب يده لي بجهاز هاتف نقال، آخذه وأقرأ العلامة المحفورة عليه، نوكيا. لم أكن أملك هاتفا في الكويت.

«٥٠٠٠٠٠ بات».

أسأله:

«نعم؟».

يرتفع صوته:

«ادفع ٥٠٠٠٠٠.. للهاتف».

براعتي في الرياضيات لم تخولني لإنجاح عمليات التحويل الحسابية، أدرس يدي في جيب الحقيبة أخرج المحفظة بحذر شديد، تزعجني هواجس رأسي، أفكر باللصوص والعصابات، أخرج المبلغ وأنا أبسمل لا إراديا، أحسب الأوراق النقدية، أسلمه، بصوت أمي أقرأ آية الكرسي.

«ستحتاج الهاتف.. من اليوم ستبدأ رحلتك».

يقرصني الجوع، تغيم الأشياء أمام عيني، أشتهي طبقا من البرياني الحار من طهو أمي، أردد بصوتها مرة أخرى: بسم الله خير الأسماء بسم الله رب الأرض والسماء بسم الله الذي لا يضر مع اسمه سم ولا داء.

تلتهم الظلمة السماء، والطريق، وأفكاري، يثقل النعاس أجفاني، أقاوم، مفزوع من الصمت  
وهدير العجلات على الطريق الذي نأى عن ملامح المدينة، اختفت أعمدة الإنارة والأرصفة،  
أسمع المندوب يخاطبني:

«أخرتنا».

لا أفهم كيف أخرتهم وأنا مقيد بمواعيد رحلة في مطار وطائرة، تقف السيارة.

«هيا.. انزل».

أسأله:

«أين أذهب؟».

ولئن هبط من السيارة واتجه لبابي ليفتحه دون كلمة فإني أستجيب له تَرَجُّني أسوأ  
الاحتمالات.

«شوف يا طيب.. تمشي في هذا الاتجاه.. مستقيم.. مستقيم.. طوالي.. تلاقي الجماعة..  
أكثر من هذا ما أفيدك».

يختفي في السيارة التي تبتعد أضواؤها وتذوب في الظلمة، أتبع إرشاداته، أمشي، وأمشي،  
وأمشي، ولوهلة أحس أنني لا أعرف لماذا أمشي وماذا أقصد ومن أكون، تنفصل ساقِي  
عني، أفكر: لو أحضرت مصباحا ضوئيا، لو أحمل سكيناً، لو أحمل مسدساً، لو أحمل تفاحة،  
لو أعود، لو أفتح عيني لأجدني في غرفتي في الجابرية، تطرق سارونة بابي بيد صغيرة  
ولا أفتح لها، لو كنت كويتياً، لكني لست كويتياً، أنا بدون، لذا لن أعود، وسأستمر في المشي  
هنا في هذه البقعة المظلمة التي تبدو لي كحلقة دوّارة تنيه فيها نقطتي البداية والنهاية،  
أسمع بُباحاً من بعيد، أتصور كلاباً سائبة، أو ذئاباً، هل ألعن النصاب حميد؟ أقتعد الأرض،  
يستبدّ بي وهني وغضبي.

يا ترى كم الساعة الآن؟ بتوقيت تايلند، وبتوقيت الكويت، هل عرف الأهل أين أنا؟ هل لاحظوا غيابي؟ هل أبلغوا الشرطة ليبحثوا عني؟ تهب نسمة باردة أستجيب لها وأرتعش، القميص الذي يعلوني تبلل بالعرق وصار الهواء يُحارِش جلدِي، رغم هذا أشعر بالعطش، أخرج قنينة الماء من حقيبة الظهر، أعب الماء كله.

لم أزل عطشا، لا بأس سينتهي كل هذا، هذه ضرائب تغيير المصير، هذه مدفوعات معرفة الذات، أنا مُجاب، حفيد مجاب، جدي الأكبر الذي كلما استبد بأهل الفاو خطبهم فزعوا إليه لتستجاب دعوتهم، كنتُ أسأل أبي، لماذا لا يدعون الله بأنفسهم، يُجيبني بابتسامته أن الشفع يعني اثنين، وأن الشفيع صوت ثان يرافق دعوة الداعي، وأن جدي كان له صوت محبوب عند الله، وأني سُميت على اسمه كي أدعو الله كثيرا فيستجيب لي، لكني لا أدعو الله، ولا أظنه يسمعني، أو لا يريد أن يسمعني، لأنه يعرف أنني غير راض عما أعطاني، ولا أقدر على الرضا، أين كنتُ عندما وُزِع الأقدار على البشر وصار لهم وطن وانتماء؟ لماذا انتزعني من العدم وألقاني في رحم أمي لأعيد مسيرة شقاء أبي؟ لماذا أنا هنا الآن؟ ولماذا لا يسمعني ويُريني الطريق، لماذا يغمسني بتيهي؟ لماذا لا تتحسن الأمور أبدا، هل أنا مكتوب في اللوح المحفوظ شقي بن شقي؟ أبي... هل احتفظ أبي بشقائه أم راح وراء حلمه ووجد مكانه. تفلت الأفكار من عقالها، عظامي متصلة تآبى الحركة، لن أدعو ربا أشعر أنه يوحد عني بابه، ولن أحرك ساكنا، وليحصل ما يحصل.

الخالة منيرة، خالة أمي، بلغت من العمر ثمانين عاما، في العيد أزورها مع الأهل، عمياء ومقعدة، تقول أمي إنها لم تر الضوء منذ ولادتها ولم تمس قدمها الأرض يوما، بيضاء بنحو غريب كأن جلدِها يشف عن عروقها الخضراء، تمسك في يدها مسبحة طويلة تبلغ مئة خرزة، تلهج بحمد الله، تقول أمي في كل زيارة: هذه المرأة راضية مرضية إن شاء الله، لم تتزوج وفرغ حجرها من الأطفال لكن حنان الدنيا في لمسة كفيها، رغم عماها أبصرت نعمة الحياة. أسأل وأسأل.. عن أي نعمة يتحدثون؟ لا أريد أن أقنع بكلامهم حول كون هذه الدنيا محطة عابرة، لا أريد ذلك، أكره التفكير بهذا النحو، يصعب عليّ، يبهظني ويُشقينني.

أهرش رأسي، النعاس يسحبني إلى تهويماتي البعيدة، السماء مغلقة وصامتة، الأرض طاردة، تأتيني الصور متباعدة تتمطى أمامي، رائحة رطبة تتسلقني، صوت قديم من أعماق مكن في ذاكرتي، يلف بي، يفتح مدنا تسكن حوافي روعي، يطوح بي، صورة صامتة، ثم صوت أعمى، تتداخل الأشياء، عطشان أنا، جفاف لئيم في حلقي، أمي وسط نساء يبكين، «أنا الوالدة والقلب لهفان» فارس وحيد على جواده المتمايل، «خذ حتى ترضى»، امرأة ترفع شيئاً في عين الشمس، «اقبل هذا القربان»، خدر يكمنني، أفقدني، أنبس بخفوت: يا رب، أغيب، أغيب، عدم.. أنا بدون.. أنا عدم.

يُداخلي صوت غريب:

«يا كريم يارب!».

....

يهزني أحدهم، أصحو:

«مُجاب؟ مجاب من الكويت؟».

«نعم.. نعم أنا هو».

«أشغلتنا يا خوي».

يصافحني:

«فائق من فلسطين.. قم هيا لنحلق بالجماعة، بحثت عنك لما تأخرت.. توقعت أنك في

الجوار، ضللت الطريق يا خوي؟».

أهز رأسي:

«أظن».

يؤكد:

«والله كنا سنمشي.. لكن المندوب أخبرني أنك وصلت، وأنت دافع، والزعيم متوصي فيك، دفعت الكثير بصراحة فانتظرتك، أخاف من اللقمة الحرام يا خوي، قلنا ربما غيّرت رأيك وذهبت لأحياء بركة الجسار بانكوك».

أسأله:

«أين؟».

يحثني للإسراع:

«أحياء العرب في تايلند، كثير منكم يغيّر رأيه.. أنا غيّرت رأيي وبقيت هنا، الشغل حلو، والربح طيب، في النهار أعمل في مطعم «زاكي» للمأكولات الفلسطينية والشامية، وفي الليل.. كما ترى».

نمشي، مفاصلي تئن، نصل لسيارة صالون، يجلس فائق قرب السائق بينما أندس قرب رجلين وامرأة يقتعد حجرها طفل في حدود السننتين، يطالعني الجميع بغضب شديد، يقول أحدهما «كاد الولد أن يهلك من البكاء.. هلا أسرعتم؟» تمضي بنا السيارة، أحتاج قصد دورة المياه، أحتاج الطعام، النوم، لكن لا بأس، جاءت إغاثتي، سأتجلد، تردد أمي أنني مدلل، تطيح بي أقل التجارب، تُفقدني نفسي، سأثبت لها وللجميع ولي أنني قادر على التماسك هذه المرة. يمتد بنا الوقت، أسأل الرجل قربي:

«إلى أين نتجه؟».

يتفحصني بنصف عين:

«انتظرنالك ثمان ساعات، ما أعرف الخطة، نمشي وراء المهربين وقولهم.. لغاية أستراليا».

«من العراق؟».

«كيف عرفت؟».

أبتسم مرغما:

«اللهجة».

«أنا غلاب من البصرة، في تايلند منذ شهر، يجلس بقربي فلسطيني وزوجته وابنهما».

أتأملهم ببطء، كم منا بتر جذوره وضاع في خارطة العالم للبحث عن الوطن الحُلم أو الأمان المفقود أو امتلاء الجيب، تعددت الأسباب والتهيه واحد. أشعر بالطريق تحت عجلات السيارة، يعاودني نعاسي وجوعي، لم يخبرني أحد بضرورة التزود بالطعام أو الماء، ولا أدري إلى متى ستمشي بنا السيارة، يستفيق الطفل بين برهة وأخرى ويرطن بطلب حاجاته، أو يبكي، وتعالجه أمه: «وصلنا يا ماما.. وصلنا»، تتبادل مع أبيه تقليبه بين الأذرع، يكسر خاطري، ليس لدي ما أفعله، تُسَرَّب السماء بصيصا من النور، لون بنفسجي يبدأ في الطغيان، يقول غلاب:

«فائق يا عمي.. أوقف السيارة نريد نصلي الصبح».

يمد غلاب يده إلى الكرسي الأمامي ويهزه:

«يا معوّد..».

يستفيق، يؤكد لنا، سنتوقف ولكن مسؤولية التأخير تقع علينا جميعا، تتوقف السيارة وينزل الجميع، يحرك السائق جذعه، بينما ينسحب الزوجان وراء شجرة ما، يُخرج غلاب بوصلته ويتيمم ويصلي بسهولة، شيء ما يحركني لأقف قربه، أردد في قلبي:

«آسف يا رب.. يعفو السيد عن العبد».

أشعر بانكسار في صدري، رغبة بشيء ما لا أعرفه، يقول لنا فائق:

«نسرع أحسن، أوصلكم وأعود، ألحق على العمل في الظهر».

نعود للسيارة، أتذكر أن حميد وعدني بتوفير وجبات من الطعام ومكان لائق في الباخرة

التي سنركبها، أسأل نفسي هل نتجه الآن للباخرة؟

(٣)

غابات تايلند/حدود كمبوديا

٢٠ يونيو ٢٠٠٠

علبتان من الحليب ولوحان من الشوكولاتة وأكياس صغيرة من المكسرات المشكلة وموزتان، أنقد البائع الثمن، وأرتب الأطعمة في حقيبة الظهر، أفكر أن أكل باعتدال، وأدخر للأيام الباقية، نستأنف المسير حيث يلوح لنا المهرب الجديد، أطلب معونة غلاب في تشغيل الهاتف الذي أحمله، يقول:

«نشتري من المحطة القادمة خطأ دوليا».

أسأله:

«متى نركب الباخرة؟».

«بعد وقت عيني».

أمشي برفقة ستين شخصا، ربما أكثر، شباب، رجال، نساء، فتيات، أطفال، أخمن أصول البعض وأفضل في تحديد هوية الوجوه، تتباين ملامحنا، تتبعثر ويجمعها القلق. كلما دب ضوء النهار في السماء لزمنا أماكننا وتخفيننا خلف الأحراش، وتحت أفياء الأشجار الكبيرة، يوصينا المهربون بالصمت والنوم، «ناموا.. ناموا»، أحاول النوم فأنجح أحيانا وأفضل أخرى، أسأل غلاب عن الجهة، عن نهاية هذه الرحلة التي تمثل بداية الرحلة الأخرى، رحلة طلب اللجوء والمواطنة في أستراليا، يقول غلاب أن قبول اللجوء غير مضمون، يعرف أفرادا من أهله قطعوا ما يشبه هذه الرحلة دون فائدة وعادت بهم سلطات أستراليا إلى بلدهم الأم، أسأل نفسي هل أخطو بالاتجاه الصحيح؟ هل سيقبل ملفي تحت بند اللجوء الإنساني أم سأعود إلى الكويت مخذولا؟ ماذا لو لم أقدم على كل هذا؟ ماذا لو قنعت بالفتات كما طلب مني، أدرس في أي معهد وأتزوج فتاة «بدون مسكينة» تقبل بي، وأنجب بدوننا صغيرا يعيد اللهث في مضمار حياتي ويغلق الستائر على شرفات المستقبل؟ صداع في رأسي يقصيني عن غيبة الرقاد، ينام غلاب قربي، يعلو غطيط الجمع حولي، وإذ أغفو أرى في منامي طفلة صغيرة لا أعرفها تشير لي أن نهرب معا، ألحقها فأجد غابة كبيرة، كلها من البلاستيك الملون، أشجارها وسماؤها وأنهارها، ثم أجد الصغيرة تبكي وهي تشير إلى النهر، «لماذا تبكين يا حلوة؟» أسألها فتتهز رأسها ولا تجيب لكنها تبتسم فجأة وتعلو حتى تصل إلى سقف السماء فتمد يديها في عمق سحابة وتشقها، ويظهر لي طريق خال، تدعوني إليه ثم تنظر في عيني فتترسب في وحشة، وإذ أعجز عن الحركة والكلام والتنفس يستحيل وجهها البريء إلى مسخ، أفزع وألمس هوة في صدري، وأقوم مبللا بالعرق.

لم يزل النهار في منتصفه، الوقت مطاط يبتز صبرنا، تمتصنا ثقوب الانتظار السوداء، انتظار، انتظار، انتظار، نمضغ القلق، ثم يأتي الليل فنطويه بالركض، نعب الغابات ولا ندري أنهرب من السلطات أم من كائنات الليل؟ أشعر أنني طريدة والعالم كله قناصي، ليلة إثر نهار، يؤرجمني زهول الراهن وخوف المتوقع.

يسألني غلاب:

«قلت إن والدك في لندن؟».

يشتد صداعي، أجيبه:

«بلى».

«ما طلبك على إقامته؟».

أتمنى قرص بندول، أهز رأسي نافيا.

«هل حصل على الإقامة أساسا؟ أو الجنسية البريطانية؟».

أقول بشبه حدة:

«والله ما أدري».

بالفعل لم أكن أدري، لا نتواصل كما يجب، لم يخبرنا يوما عن المستجدات، كل ما أعرفه أنه تزوج ورزق بأيوب وآيات، أفكر أنه من البديهي حصوله على الإقامة، لكنني لم أجمع قطع الصورة الكاملة لأفهم معيشته ووضعه، أدرك أنني لم أفكر في لندن هربا منه، أو ردة فعل على صدوده.

تفز امرأة من مسافة بيننا، يطل من عينيها الرعب، تصرخ بلغة لا أفهمها، وحين تهرول يهرول معها أطفالها الثلاثة بارتداد سريع من المكان، يتحرك الجميع، بعضهم يحجل من جراء وهن مشي الليل، «ماذا هناك؟» أسأل، يجيبني غلاب، «حياة» يمسنني ضحك يشذ عن الموقف البائس، لكنني أضحك بغباء على فراري وفرارهم، يرطن المهربون على رؤوسنا، يقول أحدهم بالإنجليزية «الزموا الصمت»، ومنتقل إلى بقعة أخرى من الغابة.

أفتح حقيبتني وأهم بأكل موزة داخلتها البقع السوداء، السكر الحلو يذوب في دمي، والطعم الطري ينعشني، تتبقى ساعات قليلة على الليل، أرصد الناس حولي، زملاء الهرب إن صح

التعبير، أحدهم يردد ويزيد في وجه امرأة، تبدو زوجته، آخر يدعك ثيابه، هذا يطالع لقمتي وأشعر بمقلتيه في فمي.

الشابة التي تجلس أمامي، ألحظها للمرة الأولى، لا تبدو من السكان المحليين، ولا تبدو عربية، أحتار في أصولها، أعتقد أنها من باكستان، وإذ تهتز في نوبة بكاء، أنبش في بكائها عن حكايتها، وأخمن أنها تسافر وحيدة وتغص بمخاوفها، تتشابك في هذه الغابة أحزاننا ليفرقنا بعد ذلك المصير، يقترب غلاب وأنتبه أنني لم أسأله عن حكايته، ككويتي أو شبه كويتي، أستطيع تلمس جرحه وتخمين مذبحه، فلماذا يا ترى ينزح عراقي عن وطنه إلا فرارا من بطش الطاغية؟ أراه في النهارات يخرج كتابا دون غلاف ليقرأ فيه، وأحيانا دفترا يدون به، وأسأل نفسي لماذا لم أحضر معي كتابا يطعن مللي وأنا المحب للمطالعة.

يلقي الأصيل أضواءه الدافئة، يجمعنا المهربون في حلقات قريبة، يؤكد لنا أحدهم أن علينا أن نُسرع في المشي هذا المساء لنقدر أن ندخل حدود البلاد الأخرى قبل حلول الصباح، يسأل غلاب «إلى أين وصلنا؟ أي بلاد هي؟».

لا يجيبه المهرب، أتذكر إفادة «حميد» بأننا سنرحل إلى أستراليا عن طريق الباخرة، أرتمي حذائي الرياضي وأنا أستذكر رائحة رمل وبحر.

## (٤)

كمبوديا

٢١ / يونيو ٢٠٠٠

الصفحة الثالثة ولم أستطع صبرا، أقوم من الأرض أقف إزاءه، زميل الهرب العربي يعاود صفع زوجته التي اصطكت أسنانها وصارت ترتعش أمامه.

«استعد من إبليس».

يصرخ بي:

«مالك دخل».

يُداخلنا غلاب:

«على كيفك خوية».

تبتعد زوجته باكية، بينما يصرخ ويشتم، يصلني منه زئيره فقط دون معاني الكلمات، كأنما الأحرف تصل إلى صيوان أذني ثم تسقط منتحرة على الأرض، أعود لمكاني بينما يستمر الرجل بالصراخ، أسمع «قرف.. لعنة عليهم.. لعنة عليكم»، نصطف كلنا هنا على أعصابنا المجفلة. المرأة في زاويتها تبكي وطفلها يلوب في حضنها، تواسيها سيدة عجوز: «باللين يا بنتي.. باللين».

أخذ نفسا عميقا، أطلقه بهدوء، أعاود ذلك، الوقت يلتهم ساعات النهار، على حدود كمبوديا ننتظر حافلة لتأخذنا إلى المطار، تتناوش أسئلة كثيرة في رأسي، إذا كنا نقصد المطار فلماذا تم تهريبنا خلسة من تايلند، ثمة أمور غير مفهومة، أناقشها مع غلاب الذي يلوي شفتيه مُحبطا، يؤكد على تعبئة رصيد الهاتف فور وصولنا للمطار، «نطمئن الأهل» يولد قلق من صوته، يقول دون مقدمات:

«أبيع الأقمشة في البصرة، أجمع فلسا على فلس ليدرر إختي، أصغرهم يُنهي سنته الأخيرة في الجامعة، قلت الحمد لله، خلص التعب، تزوجت بنت الحلال وسكنا معا في بيت الأسرة، أمي امرأة كبيرة، وزوجتي بارة، رزقني الله ولدا سميته على اسم الوالد المرحوم، الحمد والشكر، وفي ليلة ما طلع صباحها، كنا نشرب الشاي أنا والزوجة والوالدة، وإذا الباب يطرق، نفخة صور وحقك، وجثة أخي الجامعي على عتبة الباب وحولها الضباط، دفعت ثمن رصاصات الإعدام، وهمس لي أحدهم وقد كان أبوه جار عمي في زمن

سالف: العين عليك. وصار لزاما عليّ الهرب، أترك العراق؟ يعز علي، يذبحني، أترك عليا والحسين؟ بعد أسبوع ماتت أمي من الغم، وألحقت زوجتي بأهلها حتى لا يمسه ضرر، وخرجت من العراق والآن أنا معك».

تنتفخ حنجرتي، أسأله:

«ما رافقتك زوجتك؟».

يؤكد:

«صدق تحكي؟ لا تؤذيني..».

ينظر للبعيد ثم يقول:

«أطلبها للإقامة إن شاء الله.. فإذا سارت الأمور بخير، لن أكلفها عناء مثل هذه الرحلة الجحيم».

لماذا يتشاءم؟ تعبنا نعم، لكن هانت الأمور، حين نركب الطائرة، وننزل في الجزيرة ومنها إلى شاطئ النجاة والضفة الآمنة، ينتهي العناء وتفتح أستراليا ذراعيها لنا.

تفتح امرأة ذراعيها لطفلها وهو يعدو في المساحة المسموحة، يغيب غلاب في كتابه، لديه عزم على القراءة بينما تشتتني أفكار المتناثرة، أحيل فكري إلى الكويت، إلى البيت، أمي والبقية، كيف يستقبلون غيابي الذي لا يعرفون عنه أي تفصيل، أندم لأنني لم أترك لهم رسالة أو خبرا مع أحد، أي أحد؟ في الأيام الأخيرة استوحدتني الهموم، نبذت عني كل الأصدقاء، مشاعر النقمة من العالم تفاقمت لدي، والوحشة من الناس صارت حاجزا أعتى من الفولاذ، شق أصدقاء المدرسة طرقهم الخاصة، بالتعليم والارتباط والازدهار، وأبناء الأخوال غابوا في ازدحام الحياة، ومريم صارت لجابر.

أبحث في حقيبتني عن فرشاة أسنان، يؤذيني طعم صديء يسكن فمي منذ يومين، أخلع حذائي وأتمنى حين أرى أصابع قدمي أن يكون معي مقراض أظافر ودهان لتشققات كعبي القدم. تقترب امرأة من غلاب، تبدو في الخمسين أو أكبر، يتحدثان بخفوت، تُحيلني إلى استذكار سنّ أمي، هل بلغت أمي الخمسين؟ لا أظن، ليس بعد، ربما، أمي نادية، الرقيقة التي عملت في رياض الأطفال وهي يغشى عليها من الحقنة، حين أصبث في سن التاسعة باحتقان الحلق والتهاب اللوزتين، كتب لي الطبيب خمس حقن للعلاج، كانت تأخذني في الميعاد إلى المستوصف القريب من بيت جدي، وتمشي معي إلى غرفة الطبيب، ثم تقف خلف باب غرفة الضماد تنتظر فراغي، وحال انتهائي تستقبلني بلهفة ووجه مصفر وتضمني إلى صدرها بنحو يُخرجني وأنا أبلغ ذلك العمر، حاولت -دائما- ألا أبدي فزعي، حتى تغلّبت على غول الحقنة ومخاوفها، أتذكر أن أبي كان يردد قولاً مأثوراً: إن لم تكن حليماً فتحلّم، وقيس عليه الصفات.. إن لم تكن شجاعاً فتشجّع، إن لم تكن سخياً فعالج نفسك بالعطاء فتصير الممارسة جزءاً من شخصيتك، لكن ألا يغلب الطبع التطبع؟ أتخيله أن يجيب:

بالطبع لا، وإلا لما فُتح باب جهاد النفس، وما وجدت مراكز العلاج ومحاربة الخصال السيئة. هل كره أبي لزوم أمي مكانها دون محاربة خصال ضعفها؟ هل هرب من انهزاميتها وقبولها بالوضع أيا كان دون رغبة بالتغيير؟ تعودت من أمي الانهيار، لم تكن تقدر أن تصحبنا للطبيب أو للتطعيم الدوري دون انهيار أو إغماء، أجريت عملية استئصال اللوزتين واللحمية بينما كانت تطعن وقت انتظارها بهروب ما، كانت خالتي ترافقني بينما يُقاس وزني وأرتدي ثوب الجراحة وتغرس حقنة المهدي في وريدي وأنام على السرير المتحرك ناظراً إلى السقف الذي يُسابقني إلى غرفة العمليات، لكن وجه أمي أول من أطل عليّ محتقناً بعد الإفاقة. أذكر يوم قامت بثقب أذني سارونة مكاناً للحلق، طلبت مني إيصالها للصيدلية لأن رجليها لن تحملها، وأبو حسين مسافر. حين وصلنا طلبت الصيدلانية تثبيت سارونة التي بلغت لتوها الشهرين، أمي تهتز كورقة خريف، تعطيها سارونة ثم تعود بها إلى ذراعيها مما أثار حفيظة الصيدلانية، تردد «لا تؤلمها أرجوك» بعينين تكادان تذوبان في محجريهما، في النهاية، خرجت أمي من باب الصيدلية وهي تقول «ما أقدر.. ما أحتمل» بينما ثقت الصيدلانية أذني سارونة وهي بين يديّ، تغصّ بكائها الناعم.

كيف تواجه أمي غيابي اليوم؟

تبتعد المرأة الخمسينية عن غلاب، يَزجني فضولي إليه:

«تعرفها؟».

يقول وقد نزل الضيق على وجهه:

«تقول إنها تعرفني.. تسألني عن زوجها وأبنائها الشباب».

«تعرفهم؟».

يؤكد:

«الأسماء أعرفها.. لكني لا أتذكر الوجوه.. تقول في عصرية فرغ بيتها من الرجال، كانت مع ابنتيها يرتبن شؤون المنزل، فإذا بالباب يفتح ويأخذها الشرطة مع ابنتيها، يضعونهن في سيارة نسميها «قلابية» مخصصة لحمل النفايات، وكما النفايات القذرة يرمون بهن على الحدود مع عشرات النساء دون أمتعة، وهي من ذلك اليوم تتبع خبر زوجها وأبنائها دون علامة».

يجمعنا المهرب، أتوق لأخبار مفرحة، ربما يخبرنا أن رحلة العناء توشك على النهاية، يشير لنا بالجلوس، يوزع علينا أطباق الرز المسلوق، أتذكر أن حميد طلب مني مبالغ للطعام وأكد لي أن الزعيم يضمن للمسافر/الهارب أن يحصل على وجبات تكفيه، أسأل نفسي هل يكون حميد هو زعيم عصابة التهريب؟ لا أظن، يؤكد لي غلاب أن الزعيم أو رأس الأفعى كما أسماه.. عراقي مقيم في دولة أجنبية، لا يهتمني هذا الأمر الآن ولا أفكر فيه بقدر ما أفكر بالوجبة الممنوحة، لم أذق إداما منذ أيام طويلة.

نجتمع على وجبة الأرز المسلوق، نأكل بنهم وفي عيني كل منا تتقد رغبة، لا نكتفي، يخبرنا المهرّب أننا سنكمل المسير الليلة حين يخبئنا الليل في ظلمته، والحافلات؟ والمطار؟ أود

أن أسأله متى نصل وإلى أين؟ أبلغ سؤالي مع اللقمة الأخيرة.

## (٥)

حدود فيتنام

٥/ يوليو / ٢٠٠٠

يوافق اليوم ذكرى مولدي.

أهدم على الأرض، ركبتي تئنان وقدماي منتفختان، الفجر يلقي بأحماله الفضية على حدود فيتنام، نعبها دون نقاط تفتيش، دون إبراز هويات، لا أقارع أسئلتني بكيف ولماذا، فالوهن يمزغني في صمت الاستسلام. هسهسة الشجر في أذني تدوخي، أبلل شفتي بالماء، هواء غريب يداخل رئتي، أعين من حولي، صحبة الهاربين من جذورهم، غلاب يتفحص بوصلته، المرأة العراقية الخمسينية كسرت ساقها بينما تحاول إحداهن مساعدتها، رجل باكستاني أتصور أنه فوق السبعين يتأوه لفقد شيء من حاجياته، شابة حبلى تجلس واجمة دون صوت وهي تحضن بذراعيها دبيب الكائن الصغير الذي يسكنها.

«ابقوا على يقظة ريثما تصل الحافلات».

اعتدنا أن نأخذ في هذه الفترة قسط النوم، لا أحسب الأيام التي برمجت أجسادنا فيها على ذلك النظام، أحاول أن أتماسك بينما تزيغ نظرتي، لا بأس ستأتي حافلات هذه المرة، ولن نتيه في دهاليز المشي المتناسلة، أتضرع لكوب قهوة ويبدو ذلك مترفا جدا إزاء الوضع الذي أنا فيه، أدمس يدي في الحقيبة باحثا عما يؤكل، مزيج غريب من الجوع والمغص وحرقة الأحشاء يستنفذ أعصابي، تخرج يدي كما دخلت، أثقل وأشعر أنني مجرد رأس ثقيل محمول على خيطين، تتداخل الصور وتنطفئ عيني، أرى الشباك المطل على حديقة المنزل، سارة تتأرجح بدلال، حسين يلعب بالدراجة، أبحث عن أحمد، خولة خلف

مرايا كبيرة، غاضبة ولا تُبدي لي إلا ظلالاً من شخصها، أُمِّي تقطّع كعكة، تعطيني قطعة وهي تهنئني بيوم مولدي، أجاريها بالابتسام ثم أسألها: كيف أخذها منك وأنا هنا؟

أصحو على ريح حارة، الشمس تعلن حضورها وتدفق التعب في مسامات الوجوه، ينام غالب من جلوس، بينما يتوسد الأطفال حجور أمهاتهم، يوزع المهربون علينا الطعام، قطعة من البسكويت أو ربما كعك الأرز أو صنفاً آخر لا أعرف ما هو لكنني أكيد بأن معدتي انعقدت عنه ولن أقدر على ابتلاعه، أكد لي حميد أن الطعام متوفر والرحلة مريحة وأني لن أندم على أي دينار دفعته، وأني سأحظى باحترام كامل، لكن ما يمكن تصديقه -في هذه اللحظة- ودون مبالغة أنني أسافر ضمن قطيع من المنكوبين، بالطبع لم يزرنا أحد ولم نُمتن، ولم أتهياً لرحلة سياحة أقنص فيها المتعة والاستجمام، لكن ما لا أقدر على التعبير عنه أو وصفه واضح وجلي في وجهي ووجوه رفاق الهرب.

دائماً، هناك أمور لا يمكن أن تُرى، لا يمكن أن تُحصى وتحدد وتوسم أو تدرج ضمن عناوين أخرى، أمور محسوسة وكامنة تحت طية الشعور، لكنها عصية على الإمساك.

في أغسطس ١٩٩١ عدنا للدراسة بعد مرحلة الغزو، تم دمج مرحلتين دراسيتين في تلك السنة، ولما كنتُ قد أنهيت في مدرسة راشد بن سعيد في دبي مرحلة الأول إعدادي وهو ما يعادل الثالث المتوسط فإني في الكويت لم أعد دراستها إنما ألحقتني المدرسة بما يسمى جماعة التعمير، حيث الحصص محصورة باللغة العربية والرياضيات، دون تحصيل حقيقي للدرجات، فلما حل الفصل الدراسي الثاني التحقت مع أقراني لدراسة المرحلة الرابعة.

لسبب ما، اعتزلت أُمِّي إيصالنا للمدرسة، أذكر أن خالي الأكبر كان يصطحبني بسيارته الكبيرة من بيت الجد في صباح السالم مع أولاده، حيث يزاملني ولداه بدر وعصام. أهبط من غرفتنا مستعداً في تمام السادسة والربع وأحرص على عدم التأخير لأنني أعتقد أنني غريب و«يا غريب كن أديب»، لم يكن خالي يزرني أو يسيء معاملتي لكن حدسي ظلّ يخبرني أنني ثقيل مهما تخففت، ولا يحق لي ما يحق لغيري من زملاء السيارة، فلئن طلب

عصام التوقف لمحل البقالة الصغير ليشتري شيئاً لا أجرؤ أن أواكب رغبتة فأطلب ما يطلب، لأنني قد أضيف على دقائق التأخير دقائق أخرى، ولئن طلب بدر المثلجات في طريق العودة من المدرسة فإني لا أفصح عن رغبتني - «بـ برد الصاروخ» ولا عصير المنجا، أنا أتحمس؟ ربما..

لم يكن خالي يُبدي تأففه مني، لكنه لم يكن يسألني أيضاً عن رغباتي، وثمة صوت في داخلنا يخبرنا عما يجب أن نحظى به ونكونه ونتصرفه، هذا الصوت الناصع في أعماقنا لا يمكن أن يخذلنا أو يخدعنا. ألح عليّ هذا الصوت بالتساؤل عن إحجام أمي ونأيها عن أمر كنا نحبه كل صباح، عن ألوان المحبة التي كانت ترشها في دربنا من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة للبيت، عن تحضير شطيرة الزعتر أو رش العطر على ثيابنا قبل أن نفارق كفها، عن حملها لحقيبة المدرسة ومشاغباتنا الصغيرة، عن قرعتنا اليومية لنحسم ما سنسمعه في مسجل السيارة. لم أكن أقدر أن أفهم علاقة استعدادها للزواج من أبي حسين بإحجامها ذلك، سيتم العرس بالتأكيد، وستنتقل إلى بيت الجابرية وستصحبنا معها، وسيخصص لنا أبو حسين غرفة المناسبة بكل محبة، وسأنفض حين يوصلني هو بسيارته إلى مدرسة فهد الدويري الثانوية كل صباح غربتي، لأن صوتي الداخلي يخبرني بذلك.

يغلفني صوتي الداخلي الآن، يوشوش لي بضرورة الصمت وتتبع خطوات القطيع، يؤكد لي أنني انخرطت في المغامرة ولم يعد درب الرجوع متاحاً، وأن برزخاً لا مدى له صار يفصلني عن الوطن، الوطن الحبيب الذي لم يعد لي فيه مكان رغم أنني خلّفت قلبي في ترابه ومضيئ أجوف كجذع يابس، صوتي الداخلي حثّم على أن أنصاع لطاحونة الوجد وأخرج منها شيئاً آخر، صوتي الداخلي يزعجني ويكمنني ويحدثني بما لا أفهمه.

أرى المهرّب يقترب منا، يحادث كل شخص فيتبلبل المكان، أحدهم يصيح، الصياح يتداخل وبلغات مختلفة، يقترب مهرّب آخر مني:

«١٠٠٠ دولار!».

«أنا دافع».

«الكل دفع.. لكن شرطي المطار يطلب مبلغا إضافيا».

أزم شفتي متوجسا، لن أتمسك بحقوقتي، أنا مضطر أن أدفع المبلغ لتسيير الأمور، يقترب غلاب، يؤكد لي، «ادفع.. هذا المتوقع» يعرف غلاب كثيرا عبروا هذه المعابر، في جيب ذاكرته حكايا كثيرة عن أبناء العراق المششتين في العالم، يصر على أسنانه «ادفع واخلص»، أسحب من محفظتي المبلغ بقهر، لم تعد الذخيرة فياضة بما يكفي، أسلم المهرب المبلغ، حين أشغل الهاتف سأطلب من أمي إمدادي بالمال صاغرا، لم أودعها ولم أطلعها على قراري ثم أطلب منها المال كأبي طفل، لا بأس، سيأتي اليوم الذي أعوضها به، حين أكمل دراستي في جامعة أستراليا وأعود بشهادتي العالية.

أقف على قهري، يخبرنا المهربون بالاستعداد لركوب الحافلات، أسمع لغطا، أرى الشابة الباكستانية الباكية تحدث أحد المهربين، بلغة لا أتبينها تتحدث بحدة ودموعها تسابقها، تنظر إلي كمن يرجوني أو يدعوني لشيء، أقترب، «ما الخبر؟».

بكل تهذيب يرد المهرب:

«ليس لديها المبلغ».

«والحل؟».

«الحافلات توشك على الوصول، ستبقى هنا ريثما تجمع المبلغ».

أسأله بنفاد صبر:

«وكيف تجمعه؟ هنا؟ في فيتنام كيف تجمعه؟».

يرد بتهديب مضاعف:

«سنوفر خطوط للاتصال، ربما تتصل بذويها، ربما تستطيع بيع مصوغاتها، تتصرف».

يخاطبها:

«سيدتي، ستبقين هنا، سنأخذك لسكن خاص إلى أن توفي المبلغ».

يطل الرعب من عينيها، كأن أحدهم يحملها إلى حافة العالم، كأنها تتدلى من خيط إلى الهاوية.

«أنا سأدفع عنها».

تندلق الكلمات من فمي، أدس يدي في المحفظة وأعطيه المبلغ، يأخذه شاكرا وأنا أدعو بالويل على حميد والمهربين جميعا، تصل الحافلة الأولى، ننشط جميعا كمن فتح شباك غرفة الموت على الحياة، نصعد الحافلة التي أعتمت نوافذها متخفين، تصعد الفتاة الباكستانية خلفي، وغلاب يلتصق بي، نقتعد أرض الحافلة حيث نُتيح الكراسي الأقل من عددنا للشيوخ والنساء، تختلط روائح تعبنا البائت، أجد عسرا في الجلوس بهذه الكيفية فأقوم واقفا متمسكا بإحدى المعلقات على سقف الحافلة التي تبدأ بالحركة، نرتجّ ضاحكين كمن يوشك على ارتكاب متعة اللعب بأفغوانية سريعة، من نافذة السائق أرى السيدة العراقية الخمسينية مع ابنتيها تقترش حدود فيتنام في صمت محيّر، تبتعد الحافلة:

«غلاب.. المرأة.. ال».

يرد:

«ما دفعت المبلغ».

إندونيسيا/جزيرة ماكاسر

١٠/أغسطس/٢٠٠٠

أهلا.. هنا الجحيم.

مُختنقا ومحشورا ما بين لزاجة بدن زميلي والحائط أحاول النهوض مما يسمى الفراش، الجو رطب، وبنظرة مغبشة أنظر إلى ساعة معصمي التي تشير للتاسعة وعشر دقائق صباحا، أقوم أخيرا بينما يتململ زميلي، الطفل الذي ملأ البيت بضجيجه ما زال صارخا، أتعجب من مقدرة الأطفال على مواصلة البكاء، أقف في طابور انتظار دورة المياه، أهرب من أنفاسي الثقيلة ورائحة شعري الذي تلزمه الحلاقة، حينما أصل إلى أستراليا سأشتري عبوة من كل أنواع الصابون وغسول الشعر والعطور الفرنسية، هل هنالك عطور فرنسية في أستراليا يا ترى؟

يتحرك الطابور ببطء، أحاول قدر الإمكان أن تكون هذه زيارتي الوحيدة، وستكون حتما زيارتي الوحيدة الممكنة في بيت ذي ثلاث غرف وصالة واحدة ويجمع بين حوائطه ثمانين شخصا على أقل تقدير، ويا للمرح! فالغرفة في أقصى اليمين مخصصة للمرضى الذين أصيبوا بالحساسية من جرّاء التغذية على الوجبة الوحيدة الممنوحة لنا.. الدجاج. أصيب غلاب منذ يومين بالمرض، بدأت الأعراض بحكة شديدة، ثم حرقة فائضة بالعين، وتساقطت القشرة من بشرة وجهه وبدنه ليتم عزله مع المرضى في الغرفة اليمنى، وبالتأكيد.. لن يتم عرضهم على أي طبيب مختص، فالخروج من هذا البيت ممنوع تماما، والنظر من نافذته جُرم كبير، السكان المحليون في جزيرة ماكاسر لن يفوتوا فرصة الإبلاغ عنا، نحن الوجوه التي تشذ عن ملامحهم، ولن يفترضوا حتما أننا سياح لأن هذه الجزيرة ليست للسياحة إنما لتهديب التعساء الحالمين.. إلى أستراليا.

أحك رأسي، أخشى الإصابة بالمرض، يطلب منا المهربون تعقيم المكان بسائل يشبه في رائحته الكلور، يلقون بالعبوات في أيدينا حال استيقاظنا. التهذيب المخفف الذي كنا

نحظى به في الرحلة البرية آخذ في التلاشي، الآن نحظى بالزجر والسباب ومنع الوجبة الوحيدة، وربما أكثر. ليلة أمس زجروا المرأة الفلسطينية حينما طلبت خافضا للحرارة بعد أن تفاقمت الحمى لدى طفلها، وزجروني وكدت أن أُضرب حينما فتحتُ النافذة ليلة وصولنا، لم أعرف المحظورات بعد، كنت أتوق لنسمة تفتح انسداد الرئة، بعد أن كتمني احتشاد البيت بأشباهي الهاريين.

ليلة وصولنا، قبضت على منسوب الصبر لديّ بعد رحلة لاهثة من مطار هوتشي في فيتنام إلى أن حطت الطائرة في جاكرتا ومنها إلى جزيرة ماكاسر، في الطائرة الأولى أدخلنا شرطيان قبضا من المهربين مبالغنا المعطاة، تداعيت على كرسيي في الخط المنتصف، أعاين امتلاء الطائرة بلون الحياة، أعيد استذكار المشاهد التي أعرفها، أسرة وأطفال وابتسامات آمنة، حقائب وأمتعة، رائحة وجبات مطهوءة، مناديل معقمة، غفوة أحسد صاحبها الذي يبدو باله خلوا من نمل القلق الذي يمشي في رأسي، تلفاز عام في واجهة الطائرة يعرض أبطالا يعيشون على السحاب ولم يتمرغوا بطين الواقع، استغرقت الرحلة ثلاث ساعات وربما أكثر، وإذ هبطت لزمنا أماكنا بعد وصية المهربين لنا بانتظار آخر مسافر يخرج من الطائرة، فلما وقف المهربان المرافقان، استنفرنا كما قطع ينتظر إشارة الراعي، أو ربما عصاه، هبطنا من الطائرة إلى ممر خلفي، نتبع مهربينا وشرطيا يتحرك بسرعة مربكة، حين صعدنا الطائرة الثانية التي تسافر بنا محليا من جاكرتا إلى ماكاسر، اكتشفنا حجمها الصغير، كانت فارغة تماما تنتظر مسافريها، وبدت لي أشبه بجوف حيوان جائع، موحشة، وخنقة على اتساعها، جلست في الكرسي الذي أشير إليه، قرب النافذة كما في رحلتي الأولى، شيء ما دفع الطمأنينة في ضلوعي، ولما امتلأت الطائرة وصارت عجالاتها تفارق الأرض، انفصلت عن المكان والزمان، وانغمست في شرنقة حُلمية تفصلني عن كل الأشياء، وغفوت، لأستيقظ على صوت ارتطامنا بأرض المطار.

توجّب علينا البقاء في الطائرة كما الرحلة الأولى، ومن ثم تهريبنا إلى قاعة فارغة مهجورة في المطار كي ننتظر حلول الظلام الذي يستمر في سترنا، لنركب الحافلات ونمضي إلى البيت، وحين تلوح كلمة البيت تأخذني طوعا إلى صورة جميلة للسكنى والقرار، للدفع

والراحة، والطعام الساخن والفراش الوثير، لصور تقنات على أحلام معصورة من روجي  
الجائعة.. ويا للعجب!

خرجنا من القاعة إذ وصلت الحافلات، قطعنا المسافة بهدوء لئلا نلفت الأنظار، طالعت  
الشارع الذي يفصلنا، بلافتاته ذات الألوان الغريبة واللغة العصية، فاندست الغربية تحت  
جلدي، ثم ارتقين الحافلات، واستوثقت من كوابيسي، إذ كانت الحافلة بلا مقاعد، وثمة  
أشخاص هبطوا على أرضيتها قبلنا، أمهات بأطفالهن الباكين والمنتسخين، شيوخ، وشبان،  
شبان كثر من شتى الأعراق والألوان والملاح، عضضت على شفتي وقهري ونزّ العرق من  
ظهري ليلبل قميصي، ثم بحثت عن مساحة طرفية أقف فيها لآمن من الوقوع حين تتحرك  
الحافلة التي قادتنا إلى هذا البيت في الحي الهادي.

تمضي نصف ساعة، أستمر واقفا في طابور الانتظار، ألمح الفتاة الباكستانية تخرج من  
الغرفة التي صارت ضمينا غرفة النساء والأطفال، تقف في آخر طابور الانتظار، منذ قمت  
بدفع المبلغ المضاف وهي تبالغ باحترامي، لكني أتحاشاها، الآن تخرق الطابور وتقف قربي  
وتسألني بإنجليزية ضعيفة عن هاتفي، أجيبها أنني لم أستطع تفعيل خط الاتصال من  
خلاله، وأنه في متاعي خردة لا نفع لها حتى الآن، تهز رأسها بتفهم وأسف، وترتدّ بخطى  
متثاقلة للخلف، أحقن على المهريين الذين منعوني من شراء خط الاتصال من المطار،  
وتباطؤوا في الوفاء بوعدهم بتوفيره، طيلة ثلاثين يوما أو أكثر أقضيها هنا، وإذ تمكن  
غلاب من شحن هاتفه طلبت منه أن أتصل بالكويت، حاولت ذلك مرارا دون جدوى ودون  
أن يجيبني أحد، أخيرا علمني غلاب طريقة إرسال الرسالة النصية، لكني وللأسف لم أكن  
أعرف رقم هاتف أبي حسين أو هاتف أمي ولم أكن متأكدا أنها تملك هاتفا خلويا بالأساس.  
لابد أن الوضع حرج جدا في الكويت، لابد أن الجميع مشغول بي، أنا آسف يا أحبتي.. لكن  
هل من حيلة أخرى؟

يرفّ جفني، الطابور يتحرك ببطء لئيم، لكني أوشك على بلوغ باب دورة المياه، حسبت أن  
المكوث في المكان سيساعدني أخيرا على الاعتياد، اعتياد الأشياء والأمور اليومية

الروتينية، لكن الأيام تبقى عصية، لم أعتد مرافق البيت ولا رائحته، ولا أركانه، ولا أن أبحث كل ليلة عن زاوية في الغرفة التي صارت ضمناً للرجال لأنام فيها، ليلة أمس بقيت جالسا مع المتعوسين الذين لم يحصلوا على مساحة للنوم في الصالة، ونمت مستندا على الحائط وحلمت بثلاثة أكواز ذرة، وحين حل الفجر نهضت كعادتي، ثم حصلت بعدها على مكان شاغر يبدو أن صاحبه اكتفى منه، وفي كل صباح، نعاود سؤال المهريين عن يوم الإبحار إلى أستراليا، لثبطينا الإجابة في طاحونة الوجد، أيام تستطيل وتستطيل، أهذا هو التيه في منفى الأبد؟

أصل إلى الباب، رائحة حمضية تُغميني، أكتف أنفاسي وأدخل، أحاول أن أكشط عني حرج الليل، أغسل وجهي، يتدلى الماء كخيوط هزيل من صنوبر المغسلة، أخرج على صياح يملأ البيت بعد أن خرج غلاب من غرفة الوباء، تختلط اللهجات واللكنات وترتفع الأصوات، وغلاب يقف مستندا على باب الغرفة، يشير لهم بالهدوء عبر حركة يديه، يفضنا مهرب يعلق كمامة على وجهه، يأمر غلاب بالدخول للحجرة، تريعي صفرة وجهه وهزاله، أنتبه لشد الحزام على خاصرتي لئلا يسقط بنطالي، يرصدني غلاب ويلمح استفهامي:

«الناس داخل يموتون، نضرب الباب من وقت.. ولا من مجيب.. معقول ما من سامع ولا من مجيب؟».

«من؟ من مات؟».

أبالحق فيه، ينشغل عني بمخاطبة المهرب، لا أسمع حوارهما، يعود غلاب إلى الغرفة غاضبا ومغلوبا، تصطك أسناني وتضيق في عيني الدنيا.

يمضي النهار شحيحا، دوامة الأبد تبتلعني، أنسحب إلى حوارى الداخلي، مذ حل غلاب في تلك الغرفة وأنا لا أجد من أحاوره، يلفني الليل والصمت المُختلق من الضجيج، وإذ يأتي المهرب الصغير ليُنوِّس الضوء، نسبح في أشعة رمادية كالحة، ونبدأ في استعارة حيوات قديمة من رفوف الذاكرة، لنطعن الوقت الذي يتوالد كأرانب نطاطة.

الليلة أشعر بحركة غريبة، ظلال من النافذة الوحيدة تتمايل ببطء، أتخيل شكل الحيّ الإندونيسي خلف الجدر، الشارع بإناراته الشاحبة، تقطع فكرتي جلبة، يدخل المهرب بصحبة رجل آخر أخال أنني لم أراه سلفا، يتبعهما ثالث، ثم مهرب آخر، يفتح طريقا من حشد الأجساد إلى غرفة الوباء، ثم يأتي بعربة مسطحة ذات عجلات، تبدو كتلك التي تحمل عليها صناديق الماء والسوائل والمياه الغازية، مقبضها من المعدن وسطحها أزرق متقشر بنحو واضح، يفتح أحدهم الباب بحذر، يتصنّم الجميع للمراقبة، ثم يدلف الرجلان إلى داخل الغرفة ويعودان برجل يستلقي بين يديه كقطعة قماش، أو ربما التعبير الأصح هو الجثة الهامدة، يلقيان به على العربة، ثم يكرران الأمر مع طفل دون العاشرة، وجثة أخرى لم أتبين صاحبها، يكدسان الجثث كيفما اتفق ويخرجان بالعربة بينما يكتم بؤساء المنزل أنفاسهم.

أنادي غلاب من خلف باب الغرفة:

«غلاب.. غلاب».

بصوت مختنق يجيبني:

«ابعد عني يا سيد».

...

متوسدا حقيبة ظهري يقتحم الفجر عينيّ دون أن تسرقني غفوة، معقود الخاطر أحاول إصلاح جلستي، أحن إلى الدنيا خارج هذا القمقم، يصيح بي ماردي الحبيس، ويغمّني الموت الماشي في ممرات المكان، قد يطلع من غرفة الوباء ويمد يده ليبطش بالبقية، هكذا إذن يموت الغرباء، على عربة زرقاء مقشرة يحملون إلى شق مجهول في عمى الأرض، أنا مجاب الغريب ابن الغرباء، اشتتهت ذئاب الغربية أجساد أجدادي المشتتين، منهم ورثت الطرد عن الأوطان، صوت أبي ينزل في سمعي الآن..

ليس الغريب غريب الدار والوطن

إن الغريب غريب الغسل والكفن..

يخضني بكائي، أمسح عيني وأنفي بكم قميصي، تصعد حرقه من جوفي إلى حنجرتي،  
معدتي الفارغة تحترق.

يسطو الضوء على الحيّ، تتسلل خيوط الضوء العنيدة إلى داخل البيت المغلف بحياء،  
اضطراب معدتي يمنعني من تناول أي لقمة من الوجبة المحتومة، حين ينتصف النهار  
أعاود مناداة غلاب من خلف باب الغرفة، يجيبني بصوت مرتعش:

«خير يا سيد؟».

أسأله:

«كيف حالك؟».

يرد:

«على الله يا سيد.. على الله».

«وحولك؟».

يصمت ثم يقول:

«الله يعين.. لا تشغل بالك».

أنفض عني كل التحسّبات وأسعى إلى المهرب الذي يناور قرب باب البيت.

«عليك أن تحضر الدواء لهم، تصرف.. افعل شيئاً.. سأحدث رأس الأفعى.. صدقني سأفعل، ستندمون على هذا».

بعين مشروطة يرمقني صامتا ثم يشير لي بالدخول إلى البيت.

«لن أدخل.. ماذا ستفعل؟ ستقتلني؟ ستفضح لأني أرسل منظمة حقوق الإنسان من قبل أن أخرج من الكويت.. واسمع ما أقوله جيدا.. لستم ناجين بفعاليتكم».

يضع إصبعه على فمي ويقول:

«أخرس!».

أهم أن أزيح يده، لكن ضربة على رأسي تُعاجلني.. ثم لكمة على معدتي، أستفرغ عصارته على عتبة الباب، ومن كتفي يجرني أحدهم إلى داخل البيت.

يصرخ بي/بنا جميعا:

«سألقيكم في الشارع وأطعمكم للكلاب.. أفهتكم؟ الكل يخرس.. الكل يخرس.. مفهوم!».

أهمس بصوت خارج من تعبي:

«الله يلعنكم».

ويرمقني بعض سكان البيت بغضب.

أتحامل على وجعي، أحمل حقيبتني على ظهري، أروح جهة المطبخ، أخلع قميصي وألقيه في المغسلة، أدعكه تحت الماء، ثم أعصره وأنشره تحت المصباح الواهن، ضاغطا بيدي على معدتي بين فينة وأخرى أستشعر انتفاخا مزعجا، أشعر ببرد رغم حرارة الجو، لسبب ما أتذكر عاملة منزل الجابرية الإندونيسية «أثيني» وهي تعد السمك المشوي والأرز

بالزعفران وسلطة خاصة من البصل والجزر مع عصارة الليمون بالنعناع المجفف، ثم تقطع شرائح المنجا لتخففها مع التوت وشراب ماء الورد.

أبحث في حقيبتني عن شيء أرتديه، قميصي الآخر فقدته حين تركته بعد غسله في مرة سابقة، وبقي لي هذا القميص الذي تلوث بالقيء، أرتعش، آخذ من حقيبتني وشاحا أسود ألفه على عنقي في الأيام العادية، أحيط به جذعي، تداهمني ضحكتي على غير موعد ولا ترحاب، أبدو كمغفل ذي عظام ناتئة لكني لا أعبأ بذلك، أجلس بانتظار جفاف القميص، لو يسمحون لنا بالخروج لعرضته للشمس التي تستعد لاستلاب النهار، أحمل القميص بأطراف أصابعي وأخرج من المطبخ لأجد الفتاة الباكستانية تقف إزاء الباب، تقول:

«لقد جلبوا أقراصا من الدواء للمرضى، وحقنًا، ومخفضات حرارة للأطفال».

أومئ لها شاكرًا وأقصد باب غلاب:

«مشافى بحيل الله».

«دخيل الله».

أحمل قميصي المبلل وأنزوي في ركن مُتاح. أقرر أنني لن أبرح مكاني الليلة، أسند حقيبتي الظهر على الحائط وفوقها أنشر قميصي المبلل، الألم يصرخ في رأسي ومعدتي، أكتب في عقلي سطورا بلا ورق، أنا ورقة بيضاء فارغة في مهب ريح المجهول. أسمع صراخ الشابة الحبلى، أبعد أقرب الاحتمالات، أرجو أنها لا تتمخض الآن، ليس في هذه الظروف، لا بد أنها هجرت الوطن لتهيئ للنابض في أحشائها حياة أجمل، يرتفع صراخها، وحين تحفها النساء يتفاقم الوجع في معدتي.

ولئن هدأت الحبلى، فإن البيت لا يهدأ، يشيط الضجيج إذ يقترب منا المهربون وأحدهم يرفع صوته:

«اسمعوا.. اسمعوا جيدا، هيئوا حاجياتكم، سنفارق البيت الليلة، ستتبعون الأوامر بصمت لئلا يستدل علينا أحد».

كأن أحدهم يجيء بليلة العيد ويتحفنا بالهدايا والمسرات، يستعيد الجميع الابتسامة المفقودة، وتدب الحماسة في المكان. نظري على ساعة معصمي أحصي الساعات وأستحثها، وحين ينتصف الليل يهرب الصبر من مسامات الجميع.

أخيرا في الثالثة والربع صباحا، يفتح المهرب الباب، ينفذ المسافرون نعاسهم ويهشون تعبه، يبدؤون بإخراجنا بهدوء وعلى مجموعات، أمسك قميصي الذي لم يزل رطبا وألبسه كيفما اتفق، الحبلى تمشي بوهن وبطء فيستحثها المهرب بنفاد صبر، أنتظر آخر النزلاء لأحاذي الباب.

«ماذا عن المرضى؟».

أسأل المهرب.

«لن يرافقونا هذه المرة.. سننتظر شفاءهم ثم يبحرون في المركب القادم».

يمسك بكمي الرطب ويدفعني للخروج، أنفذ من قبضته وأروح خلف باب غلاب مناديا:

«غلاب.. مشوا عنك يا غلاب.. اطلع».

يصرخ المهرب بي، لا يصلني صراخه، أطلب منه التمهّل.

«أرجوك.. أرجوكم تمهلوا».

يفتح غلاب الباب بهدوء:

«مجاب عيني.. ارحل بألف سلامة، وتمنى لي الفرج».

يصعد طعم الملح إلى فمي.

«سيد عيني.. هات تلفونك».

بلا تفكير أعطيه جهاز النوكيا، وأراه يبادلني بجهازه.. يقول حين تبتسم عيناه الذابلتان:

«أبادلك وأزيدك، اخذه.. وحق جدك.. وارحل بالسلامة.. كلم أهلك.. دعواتك عيني».

يغلق بابه، يهدد المهزّب بتركي، أخيرا يجرني بعنف فأنصاع.. ووجه غلاب يسكن مقلتي.

## (٧)

إندونيسيا/جزيرة مكاسر

١٢/ أغسطس / ٢٠٠٠

أسير خلف المهزّب بسرعة وصمت، تداهمني البرودة إذ لم يزل قميصي رطبا، أشعر بجلدي ينكمش ولا أتبين السبب الحقيقي لهذا، أهو البرد أم الفرع من نباح الكلاب الذي يتعاضم كلما قطعت جزءا من المسافة.

يتوقف المهزّب في منطقة غاطسة بظلامها الكثيف، ألمح من بعيد شبح ضوء، فيوصينا بأن نمشي بهدوء تجاهه حيث نلاقي الحافلتين المخصصتين لنقلنا للمركب الذي يحملنا إلى سواحل أستراليا، يوصينا بضرورة الهدوء والاستفادة من الظلام، تحضرنى عبارة يرددها الخطباء على منبر المجالس الحسينية في ليلة السادس من المحرم، إذ يصورون مقالة الحسين لأصحابه ليلة عاشوراء حين يغمره الظلام وإياهم:

«هذا الليل فاتخذوه جملا».

أمشي وتمشي العبارة على لساني، بنغم عاشورائي حزين، مدّخر في رفوف ذاكرتي، قديم كما وعيي الأول، هذا ليل محنتي يا حسين، أيها الإمام الذي أبكت العالم كلماتك، وحيرت الدنيا مواقف صحبك إذ فضلوا الموت على تركك في ستر العتمة وحيدا، هذا ليل محنتي أتخذه جملا يُسارع بي إلى مغامرة الماء، عطشان أنت للماء يا حسين، وأنا الماء ينتظرني ليُريني حكاياه، وأعاجيبه، ووجهيه المتضادين: الرواء أو الفناء.

أصل إلى الحافلة، وبتفحص بسيط أكتشف أنها أكبر حافلة ركبتها في حياتي، وحين أحاول الجلوس على أحد الكراسي الطرفية تفاجئني قسوة الحديد، فالتنجد في أسوء حالاته، لكني رغم ذلك أمني نفسي بالخلاص، وأدعوني لاحتمال القادم بصبر وتفاؤل، فهذه هي الرحلة توشك أن تنتهي يا مجاب، وهذا الباص يوشك أن ينطلق ويبتلع الليل إلى شروق شمس النجاة. ألحظ زملاء الهرب كأشباح رمادية تختار أماكنها في الحافلة، لا أقدر على تحديد الملامح ولا استيثاق الهويات، أخيرا أعرف أن الكرسي الذي يحاذيني قد شغل، تصافحني رائحة كريم ملين للعضلات، رائحة الفيكس، لا يعني ذلك لي شيئا، أيام طويلة أستنشق فيها روائح مختلطة، عطنة وحامضة وزنخة، ستبدو بالتأكيد رائحة الفيكس أطيبها، ولئن غبت في استكشاف جزئيات الرائحة وتأثيرها فإن صوتا ناعما يفاجئني، وبلهجة عربية تبدو نابغة من إحدى دول المغرب أكتشف أن سيدة مسنة تجلس قربي:

«ولدي».

ألتفت لها مستفهما لتقول:

«ممكن بنتي تجلس جنبي؟».

أرد عليها:

«أكيد.. تتفضل».

ثم أستدير بوجهي صوب النافذة، لأكتشف أنها تقصد أن أفسح كرسيي لها، فأقوم من الكرسي مثبتا الحقيبة على ظهري، وأعبر السيدة المسنة لأقف في المساحة الوسطى من الحافلة، أبحث بعيني المغبشتين عن مكان شاغر فلا أنجح، أعبر إلى خلف الحافلة، ثم إلى الأمام، فأعثر على مكان لصق كرسي السائق، وأجلس شاكرا.

....

تبدأ الحافلة بالتحرك حين ينضم لجماعتنا أربعون شخصا من بيت آخر، فيستقلون الحافلة الأخرى، أشعر برأسي يثقل ويصيبني هدير المحركات بالدوار، أتذكر أنني ما أكلت شيئا منذ الأمس فأمني نفسي بوجبة ساخنة في الباخرة، لابد أن الأمور ستكون مختلفة. أو هذا ما أمل. حين أخذ مني حميد المبلغ الأولي أكد لي بأن ثمة امتيازات أخرى في حالة دفع المزيد، وجبات أخرى وبطانيات وهواتف ومكملات أخرى، حينها لم أستوعب تفاصيل رحلة التهريب، لم أخمن الوقت الذي سنقضيه في التنقل بين الغابات ولم أفهم طبيعة البقاء في كل مدينة، خلت أن الجواز المزيف الذي استخرجه لي يفي بالغرض ويمكنني من السفر إلى إندونيسيا ومن ثم إلى أستراليا عبر الباخرة، رغم ذلك دفعت المبلغ المضاف ركونا للخوف من المجهول، ورغبة في توثيق الاحتياطات، والآن ربما أندم على ذلك، أو ربما لا.. فالحافلة تسبح في الظلام وأنا جائع ومتوعك وبردان وأفكاري مشوشة، وقدماي متورمتان في المساحة الصغيرة المتاحة لهما، وظهري متصلب من حديد الكرسي القاسي، ولا أدري متى تنتهي هذه الرحلة.

أسأل السائق:

«متى نصل؟».

يجيبني كُسرنا:

«سنقطع المسافة من طرف الجزيرة إلى طرفها الآخر بحدود اثنتي عشرة ساعة».

أغمض عيني رغبة في النوم والهروب.

أفتحهما على ضجيج الركاب خلفي إذ يقوم المهربون بتوزيع أكياس لمأكولات جافة لم أعتدها ولا أعرف أسماءها، تنعقد معدتي مرة أخرى، شعور متداخل من الجوع والغثيان، أمتنع عن أخذ حصتي فيأخذها سائق الحافلة، بعد لحظات، يقوم المهربون بتوزيع الموز فأخذ حصتي، أكل نصف الموزة وأدخر النصف الباقي لوقت آخر.

الحافلة مظلمة بما يكفي لكنني أرمق نفاذ أشعة الشمس من نافذة السائق، تزورنا الشمس وسط صياح الأطفال المتعبين والسئمين، وسعال العجائز وأنين الحبلى، هذه المرة لا تحفها النساء على ما يبدو، فالحافلة المكتظة لا تتيح التنقل بين أرجائها ولا تمكّنه، بعد ساعات كدهر تتوقف الحافلة، سواد الليل يلتهم السماء، يأمرنا المهربون بالصبر، يبدؤون بإنزالنا على دفعات، أنزل قبل الجميع وأقتعد الأرض التي تفوح برائحة الزرع والتراب المبلل، تتفتح أقفال صدري للانتعاش، وحين يكتمل نزول ركاب الحافلتين، يأمرنا المهربون بالركض، يحثوننا للإسراع بواسطة عصي طويلة.

أحجم أول الأمر رافضا هذه الإهانة، عليهم احترامنا ومراعاة ظروفنا، منا الشيخ ومنا الحبلى والمرأة العجوز التي تستمر بلي كاحلها، لكن حرارة العصا على ظهري أجفلتني، فأخذ بالركض ناقما وقاطعا المسافات مع قطيعي المسكين، أركض وأتوقف للهث، أركض وأنعثر، أركض...

عصام ابن خالي.. شاب رياضي، حين كنا في الكويت حثني على ممارسة الرياضات التي يتقنها ومشاركته شغفه أكثر من مرة، ردد دائما أن الرياضة هي أفضل طريقة للتنفيس عن الضغط القابع تحت جلدي، بالطبع كنت أحب الرياضة، وبالذات ألعاب القوى والجمباز، وفي سن الخامسة عشر تم اختياري في المدرسة للمشاركة بالمسابقة السنوية، حدثت حينها أنني سأستبعد في المرحلة الأخيرة كما حصل في سنوات سابقة، لكن مدرس التربية البدنية قال لي «نلاقي لك حل».

قطعت معه شوطا طويلا في التدريب لإتقان المهارات والمحافظة على لياقتي، كنت ألهث بين المحافظة على مستواي الدراسي وبين التدريبات اليومية والأسبوعية. قدمت مع المشتركين مبلغا مخصصا لشراء الزي الموحد، وتم تحديد يوم المسابقة الوطنية، نمت ليلتها على فرحة أشبعتني وفتحت لي منافذ الأمل، في اليوم الموالي كنت أول المشتركين وصولا إلى المدرسة حيث مقر تجمعنا، ركبت الحافلة معهم، ودخلت صالة الألعاب الرياضية معهم، وجلست مع فريقتي في كراسي الانتظار أتابع الأسماء وأتوخي النطق باسمي، لمحت أستاذي يُجري حوارات غاضبة مع المنظمين، ويعاودها كلما اقترب موعد أداء فريقنا المدرسي، ولما أنهى آخر متسابق عرضه عرفت أنني أفجع باستبعادي مرة أخرى، في طريق العودة.. أطبق علينا الصمت، وتحاشى الأستاذ النظر في وجهي، لكن حينما نزلت من الحافلة أخيرا.. قال لي: امسحها بوجهي يا مجاب.

لن أمسح بوجهك شيئا أستاذي، سأمسح من وجهي علامات الخذلان، ومن جيبيني قدر النبذ، لذا سأركض الآن وإن كنت نسيت ألعاب القوى، وإن كان البقاء في بيت جزيرة ماكاسر قد أرخى عضلاتي، ولو ترهّل جلدي، ولو رُض كاحلي، ولو شعرت بسكاكين تعبت بخاصرتي، ولو سقطت مرة بعد مرة في هيمنة العتمة، سأركض، سأسبق عصام في جولة متخيلة، سأراه يصقّق لي ويشجعني وسأصل.

(٨)

إندونيسيا / ساحل جزيرة مكاسر

١٣ أغسطس / ٢٠٠٠ فجرا

أصل إلى الميناء فيما يبذر ضوء الشمس حضوره في مشتل السماء، عطر الساحل والتراب الرطب يُنبه حواسي، بلا قرار أندفع لأتفقد البقية، شعور طاغ بالاهتمام يهيمن عليّ لمعرفة أحوالهم، من وصل ومن تأخر وتخلّف، ومن سقط في فخ العتمة، روح الجماعة تعاضد

تُوقِي للنجاة، إيه يا سيد مجاب، يبدو أن هاهنا روح انتمائك، هاهنا في هذا الميناء صرت تتماهى مع أشباهك ويغمرك الائتلاف.

ألمح صحبة الهرب الذين صاروا كمن خرج من سباق لاهث، أُخالطهم ونقصد صاحب مركب الصيد الذي يشير لنا بحنق ظاهر، يقول شيئاً بلغة عصية ويشير بيده أن هلموا وعجلوا، أسأل من يجاورني «أين المهربون؟» يؤكد الشيخ قربي «لن يصحبنا أحد هذه المرة» أعاود السؤال «وأين الباخرة.. هذا مركب صيد؟» يلوي شفثيه ولا يجيب، يزيد من سرعته وكذلك أفعل.

حال وصولنا أخيراً إلى المرفأ، يشير لنا صاحب المركب بالتوقف، الشمس تحتدّ فوق رؤوسنا فيسيل خيط العرق من رقبتني إلى ظهري، أنفاسي تثقل، أجلس خائر القوى والبحر أمامي يبدو كقطعة قماش زرقاء مشدودة، يقترب منا باعة طعام بعربات متنقلة فأتذكر عربة الثلجات في الكويت، نفز إليهم كناجين من مجاعة، أرى من حولي يمعنون في شراء مؤونة البحر، يحملون أكياسهم عدة أصناف، حين يقل عدد المتجمهرين على أحد الباعة أقصده وأتفحص ما لديه، آخذ البسكويت وثلاث علب من سمك السردين، ثم أكياسا من رقائق البطاطا، أتساءل عن عدد الأيام التي سنقضها بصحبة البحر. أقفل راجعا صوب الشاطئ، أنتظر مع أصحابي إشارة قادة الرحلة، تمر اللحظات وسط ضجيج الأطفال وتأوه العجائز، أظعن انتظاري بتأمل وجه البحر المُلغز.

أحدق في المركب الصامد على مقربة مني، يحتضن أمانينا بينما يلف حوله البحر ذراعين مُحكمتين، الرجل العصبي فوق سطحه يرطن مع معاونيه بينما تتبدل ملامحهم، حركة تُحيلني لمقولة الهياج العظيم ولا أدري كيف تطرق رأسي هذه المقولة، هرج ومرج كما تردد جدتي في الأعياد ومناسبات التجمعات العائلية، أخيراً يُشير لنا الرجل بالتقدم، أطلق عليه صفة القائد، أشعر أن الصفة هذه تليق به جدا، نتقدم ونبدأ بالصعود إلى سطح المركب الذي يهتز هياجا لكل راكب، أسمع القائد يعدّ الرؤوس: واحد اثنان ثلاثة أربعة...أصعد مع الصاعدين، وقسرا يقودني التفكير لغلاب، ربي يسهّل عليك يا غلاب، أتذكر الهاتف في

حقيبتني، حاولت الاتصال منه مرارا لكن الإشارة لم تكن قوية بما يكفي، حين نكتمل أربعة وتسعين شخصا يحملنا ألمنيوم المركب. أخرج الهاتف من حقيبة ظهري، الهواء المحرّر يسخو بالإشارة، أضغط أرقام مفتاح الكويت الدولي: ٠٠٩٦٥.

أكمل الأرقام وفقا لهاتف منزل الجابرية، وقبل اكتمال الرنة الأولى يأتيني صوت أمي، تنتفخ حنجرتي بما يشبه البكاء، بل هو بكاء حقيقي:

«يمة.. أنا بخير يمة».

بصوت مخنوق تجيب:

«مجاب.. يا روجي يمة..».

تقول كلاما كثيرا لكن صوتها يتقطع إلى أن يغيب.

أحاول معاودة الاتصال بينما يرمقني صحبة الهرب، وكلهم ينظر إلى الهاتف بين يدي، والهاتف صامت تماما.

بلغة إنجليزية سيئة يطلب منا القائد أن نخفف من أحمالنا، يشير إلى الطعام تحديدا، إلى كُدس الأكياس حول البعض، يقول:

«الطعام على متن المركب كاف للجميع، لا تثقلوا السفينة».

يضيع صوته مني، أكاد لا أعبأ بما يقول، لم أحمل معي حمولة تذكر والقدر البسيط الذي معي مختبئ في حقيبة ظهري. قبل أن تُسحب المرساة يقوم رجالان على الشاطئ بجر حيوان لا أميزه، قد يكون خروفا أو كلبا، وبحركة سريعة يقوم أحدهما بذبحه فتتفر حمرة الدماء في شحوب الشاطئ، تمشي رعدة على جلدي، وتصطك أحشائي، يقوم الرجلان بتقطيع أشلاء الحيوان وفي قلب صندوق كبير أشبه بتابوت مضحك يظهر عبر مسلسل

كرتوني يشحنانه إلى سطح السفينة ويخترقان المسافرين برائحة الدم إلى جوفها عبر سلم جانبي.

ولئن سرقنتي الاحتمالات فإني أنتبه على صراخ فجائي من القائد ورجل على الشاطئ، يصيح الرجل بصوت مذعور بكلمة لا أفهمها، يقول الرجل المغربي قربي:

«البوليس.. سترك.. البوليس».

بسرعة ترفع المرساة وتُشد الصارية، وثمة صوت يعلو لمحركات السفينة التي تقذفنا فجأة في عرض البحر، نهتز كأوراق خريف يائسة، وترتج كل مساحاتنا، يصرخ بنا القائد:

«لداخل بسرعة».

أهتاج مع الصحبة، ولا أفهم أي «داخل» يقصد، لكنني أسرع إلى السلم الجانبي، أنزل دركاته لأكتشف الطابق السفلي وأندس في إحدى الغرف الأربعة لأفجع بالمساحة الخائقة، أيعقل؟ متران في متر، يحتشد معي البعض، أضيق بهم ذرعا، يلتصق بكتفي شخص لا أرى إلا قفاه، أنتبه أنه يرتدي دشداشة بيضاء أو ربما هذا ما يُهَيأ لي، حين يلتفت وتلتقي أعيننا أصبح به:

«يعقوب!».

....

حين يسحبنا البحر بعد ساعات وتغيب عنا صورة الشاطئ، يُسمح لنا بالصعود إلى سطح السفينة، الهواء الرطب يغسل قلبي، ويهيئني لاختلاق الراحة. أتحرك بصحبة يعقوب الذي يطمئني وجوده وأستقر قربه نرقب السماء ونفتح القلب لرائحة الموج، بصورة ما يرتب فوضاي وقلقي، ويحمل لي عطرا من الديرة، يسكن يعقوب بجوار بيت جدي، تشاركنا الدراسة الابتدائية والمتوسطة، ولعب الحي، ونشاط الزراعة في المرحلة المتوسطة، كان

يختبر حفطي لأسماء مزروعات المدرسة بينما أشتري له البذور وأساعده في التحضير لشتلته، وعندما انتقلت لمنزل الجابرية نأت دروبنا عن بعضها وتشعثت تواصلنا إلا حين نلتقي مصادفة في مواسم الزيارات العائلية قرب بيت جدي. يعقوب بدون مثلي وأمه كويتية مثل أمي، لكنه يعيش مع أبويه في أسرة لم يفكها الطلاق، تخرج من الثانوية بنسبة تفوقني، وإن شئت أن أقدم الصورة صحيحة فسأقول إنه تخرج من الثانوية قابضا على درجاته كلها، ربما خسر نصف درجة في الإنشاء، تلك النصف درجة التي لا توهب إلا للأدباء، المهم أنه أحرز نسبة تكاد تكون كاملة.

أذكر حين قرأت اسمه في مصاف الخمسين الأوائل على الكويت عبر جريدة القبس، يومها ضحكت إذ رأيت في خانة الجنسية خطأ مستقيما بدل كلمة كويتي أو مصري أو...، خط صامت وقاس، خط متحامق كفف مطبق، خط خذلي كما خذله، لكنه أضحكني رغم كل شيء، فكرت حينها بصعوبة كتابة كلمة بدون، لكني في النهاية شعرت بالنصر، فهذا بدون يحرز لنا نصرا صغيرا، بالطبع حينها، في تلك اللحظة، تمشى ندم عابر على سطح قلبي كوني لم أدرس كما ينبغي تلك السنة، وكما هو مفهوم جدا، فكرت أنني لو بذلت جهدا أي جهد لكان اسمي قد دوّن هنا في مكان ما وقرب رتبة ما وبإزائه سيمتد ذلك الخط المستقيم أيضا، لكني بعد برهة طويت الصحيفة غير عابئ، فما الجدوى على أية حال.

الآن يعقوب جوارى، يشاطرني رحلة الهرب، ويختار مساري الذي اخترته، ويعيش معي مغامرة البحر وهذا عزاء كاف، رغم أنني ألمس فيه اختلافا يقودني للغضب من نفسي أو ربما منه، أفكر أنه أقدم على التفوق حين تخاذلت، ولم تشتتته الأفكار المتشائمة المتشكلة من واقعنا أو لأكن صريحا وأقول إنها لم تحبطه حينها، لقد واجهها بينما استسلمت لها ومكثتها مني، وهذا يدفعني للإعجاب به وحسده أيضا، أنا حاسد؟ لا أظن ذلك، ربما لا أريد الاعتراف، فأنا بطبيعتي لا أحب خسارات الآخرين ولا أفرح لأوجاعهم، لكن السنوات الأخيرة كشفت لي لعنة المقارنات التي أمارسها في غرفة صمتي، ربما كشفتني لنفسي وأظن أن أصعب الأمور وأحزنها وأحلاها هو كشف النفس وتعريتها رغم كل المبررات الرحيمة التي نصنعها لكي نقبل بها ونطمئن ونبقى نمارس ما نريده. أأقارني ببيعقوب وأرى

أنه جمّد إذ تراخيت، وتفاعل رغم ظروفنا المتطابقة بينما تشاءمت، أو لا أدري.. لعله يظهر خلاف ما يبطن. أتفحص معصمه الذي لف عليه علقه خضراء، عادة ما تركها منذ صغره، يفعل كل ما يفعله باعتقاد ثابت ولا تدوّخه الشكوك بينما تخضني شكوكي فأغضب ثم أعود لاطمئناني، أنا متمرد! ربما.. تخبرني مواقفي بذلك أحيانا.

يطالعني يعقوب ويقول أنه يشعر بالجوع، فأدير عيني إلى طاقم السفينة منتظرا موعد الوجبة الأولى، أخبره أنني لا أشعر بحركة السفينة فيضحك ويؤكد أننا نسري ببطء شديد وهذا من مصلحتنا إذ إن مركب التهريب ذو إمكانيات بسيطة، فتدور في رأسي أسئلة بكفاء عن مدة الرحلة وأمكنة النوم وينحو بي التفكير المتشائم إلى التساؤل عن قوارب النجاة أو أطواق الطفو، ألمح صفو السماء فأسكن.

لما ينتصف النهار يقوم فرد من الطاقم بتوزيع «الشعرية المسلوقة» بنكهة الخضار.  
«نودلز؟».

بخيبة أمل يقولها يعقوب، فأهز رأسي موافقا وأرد:

«الله ينتقم منهم.. دقّونا مبالغ كبيرة.. والنتيجة؟».

يعبئ من هواء البحر صدره، نلوذ بالصمت ونحن نبتلع الشعرية كما يُتاح، تبدأ الوجوه حينها بالانشراح، فيض من الطمأنينة ينزل عليها جميعا، يغلفنا سكوت عميق لا يخرقه إلا صوت البحارة يتصايحون بما لا نعرف، أو صوت أطفال باكية أو ضاحكة، ننغمس باستسلام مريح لما يقرره لنا الموج ودفة الملاح.

حين يهبط الليل، ترتفع جلبة متوقعة إذ يتشاجر الجميع على الغرف الأربعة، ومن بيننا يصر الأزواج على استعمارها مع أطفالهم، بينما يؤكد كبار السن أحقيتهم بفراش يحمي وهن عظامهم من قسوة سطح المركب، ولما يحتدم النقاش ويتلاحم الصراخ أتمدّد على السطح متوسدا ذراعي وتمدثرا ببوح السماء ورعاية النجم. تدبّ أطراف البرد على جلدي

فأروح في غفوة هائلة، يناغيني صوت الموج وهمهمة الريح، أوشك أن أغطس في نومتي لكن اهتزاز المركب يوقظني، ألمح حركة البحارة فتزعج مصابيحهم عيني، أشك أن ثمة طلق ناري وأتبه في جهة التصويب وأفكر أني في حلم.

«الوقت؟».

«الفجر.. فم.. المركب يرتج».

أفرك عيني وأرى يعقوب مُزعجا، يبدأ النيام بالنهوض مُروعين، بحركة سريعة يخرج البحارة صندوقا من جوف المركب، يعلو صياحهم ويتراخون في المساحات الممكنة، حين يُفتح الصندوق قربي تهب رائحة رهيبة فأوشك أن أتقيأ، يُلوعني مغمص طارئ فيما يشدني أحد البحارة من ذراعي لأبتعد عن طريقه، أدوس بغير قصد على قدم طفل فيصرخ وأعتذر بلغة تحول بيني وبين والديه، ولما يقذف البحارة في حوض البحر أشلاء الكائن الذبيح على الشاطئ، يتوقف ارتجاج المركب، لكن سرعته تتضاعف في جزء من الثانية فنندفع معه وأشعر أن قلبي يسقط في معدتي.

تهدأ المحركات حين تتبدل ألوان الأفق، ويعود المركب إلى سرعته المتهادية التي تُغيظني غير أن ضحكة صافية تخرج من أعماقي:

«قروش ها؟».

يبادلني يعقوب الضحكة:

«إي والله قروش».

كأنني أنتزع من حياتي لأتصير بطلا في فيلم مغامرة تقليدي، قروش تهجم على سفينة في عرض البحر، وأشلاء دامية تلقى لها لتلهي عن ركاب السفينة فيسابقون النجاة.

## (٩)

المحيط الهندي

١٦ أغسطس / ٢٠٠٠

لطالما أحببتُ البحر.

خصص والدي في طفولتي يوما شهريا لزيارة البحر، كنا نحمل وجبة غدائنا في بداية الخريف إلى شاطئ أنجفة، يحمل أبي البساط السميك من صندوق السيارة ويفرشه على الرمل الناعم بينما ترتب أمي المائدة، نبدأ كما كل مرة بتناول الوجبة المُعدّة في المنزل، ثم نمارس بعدها ألعاب الركض قرب الشاطئ أو المرح بركوب المراجيح الملونة، وأكل الثلجات إن تيسر، ثم يجمعنا أبي على البساط مرة أخرى ليحكي لنا حكاية ما، نظلّ نذكرها حتى يحين موعد الزيارة المقبلة.

أبي حكاء ماهر ومثقف.

أحبّت أمي الإنصات لأبي، يشرق في وجهها الحب، تبتسم منذ اللحظة الأولى التي تستقر فيها في جوف السيارة حتى نعود إلى البيت قبيل الغروب، ولما يكتمل المساء إذ يخرج أبي لمشاويره المعتادة تعود ملامحها الطبيعية تستوطن وجهها مرة أخرى.

أمي حيادية الملامح.

مرة استأجر خالي مالك زورقا سريعا، أراد والدي أن يصطحبنا مع أسرة خالي عبر رحلة في الواجهة البحرية، ولما حان الوقت استمتعت كثيرا ونحن نشق الموج عابرين إلى النجمة المضيئة البعيدة، لكن رهبة غير مفهومة مست قلبي، شيء مجهول بدأ يعبت بي، طويته في أعرق نقطة في صدري ونسيته، لكني اليوم وبعد مرور السنوات الطويلة أستخرجه مرة أخرى.

يقال أننا نلنا حيواتنا هذه في عالم آخر وتكونت في دواخلنا أنانا وهو اجسنا ومصائرنا. كل تلك الصور ادخرت في مكان ما من عقولنا، فلما تنفسنا هواء الحياة صارت تلك الذخيرة تطل علينا من خصاص الذاكرة في لحظات خاطفة تشبه التجلي، ثم تغيب عنا بلا تفسير، يسمى البعض هذه الظاهرة بـ ديجافو والبعض يفسر ارتياحنا لأحدهم بهذا النحو أو كرهنا مثلا، يقولون إن تعالقا صار بين الروحين في عالم مختلف، عالم الذر والأظلة، حين كنا ذرا في بعدٍ آخر، الخوف والطمأنينة.. كلها تطل علينا بهذه الكيفية، فهل يا ترى تلك الرهبة تنزلت عليّ آنذاك لتنبئني بأمر ما.. نهايتي مثلا؟

ينقضي نهار اليوم الرابع على ظهر المركب، أشعر بالحمى تصرخ في عظامي ورأسي وعيني، الجوع يفجعني. أخبرنا الملاح غاضبا في اليوم الثاني على المركب أن المؤونة نفذت فلم يتوقع إطعام أربعة وتسعين شخصا، صرخ بنا:

«عليكم الاعتماد على ذخائرکم».

عندئذ تصايح الرگاب وأوشك أحدهم أن يضربه، لكن.. ونظرا لكونه الرجل الكبير المحاط بالبحارة، ولكونه الوحيد الذي يملك سلاحا بطبيعة الحال، ولكوننا تحت رحمة البحر وكائناته، أكلنا غضبنا وأمسكنا عن الكلام، أخرج الجميع ما في أكياسهم، فتحت علب السردين وقررت أن أقسم مؤونتي على عدد الأيام التي خمنتها، لم أكن أعرف متى نصل، لكن قرارات البحر تحملها الريح بعيدا، كانت هنالك أمور أخرى.. ظاهرة.. ومحزنة.. وإجبارية لا يمكن الفرار منها، تعيد تشكيل القرارات والخطط، مثلا.. المرأة العجوز التي لم تحمل معها إلا علبة واحدة من البسكويت المملح وصارت تطلب مني مُحمرّة العين أن أعطيها أي شيء، والأسرة التي يبكي صغارها من الجوع. في ليل اليوم الثالث فرغت حقيبتي مما يمكن أن يؤكل، وأطل الفجر الرابع وأنا أصارع جوعي وكذا حال الجميع كما أظن.

الحمى.. لئيمة.

أشعر بعطش وحرقة، الماء وافر على ما يبدو، أشرب باقتصاد رغم ذلك لأنني أشعر بمرارة في الحلق، أحس بיעقوب وهو يعطي التمر لأحدهم، حمل يعقوب التمر وهذا من حسن حظنا، لكن إلى متى ستصمد التمرات أمام وحش الجوع، هل نفنى هنا ويبتلعنا الماء ونرسب في قاع المنسيين؟ يا إلهي.. أنا لم أخبر أحدا بمكاني.. لو مت هنا.. لو نفقت فسأبقى سؤالاً على السنة أهلي، أشعر أنني بخار يرتفع ويتلاشى، أشعر أنني لم أكن يوماً ما في مكان غير هذا، كأنني في مكاني هذا منذ الأزل، الذكريات تنسحب كما سحابة تروح وراء تخوم السماء، من أنا ولماذا أنا هنا وما هذا المحيط الذي يشتهي ابتلاعي ومن هؤلاء؟  
الحمى ...

عادة ما أحارب مرض الزكام الموسمي الذي يزورني في أول البرد مرة كل عام بعصير البرتقال وشاي الليمون الأسود أو الماء المغلي مع العسل والليمون أو مغلي الزنجبيل، عدا هذا.. لم أصب بأمراض أخرى بعد استئصال اللوزتين.. في الغالب طبعاً، ولئن اعتمدت سابقاً -قبل أن أصير في ضيافة المحيط- تلك العلاجات لتوفرها فإني في هذه اللحظة أبحث فقط عن قرص «بنادول» حتى أداوي به صداعي الممتد من عيني إلى أذني ومن ثم إلى حلقي. أحاول سؤال الرفقة غير أنني لا أجني جواباً على ما يبدو، ثم أعود لأسقط وأحاول التمدد كيفما اتفق على السطح فأواجه اعتداء الشمس أو تجاهل الليل والعراك مع الجوع، تمر فترة لا أقدر على تحديدها لكنني أتيقن أنني لم أنم خلالها.. إضافة لكوني لست صاحبياً بالمعنى المطلوب إذ كل ما أشعر به أنني في برزخ بين النوم واليقظة، لست غائبا عما يدور على سطح المركب ولست حاضره أيضاً، كأنني في مسافة طافية بين عالمين والناس من حولي أطياف أو أشباح تُداخلني أصواتها بخفوت، في اليوم الموالي أفقد حاسة الشم تماماً وكنت لأختبر حاسة الذوق -لو كان ذلك متاحاً- لكنني أطوي اليوم الخامس دون التزود إلا بالماء، نعم.. شعرت بتمرة في فمي قبل يوم ربما، مما روى دمي بالسكر، وأخال أن تلك التمرة من ذخيرة يعقوب وأعرف أن ذخيرته نفذت، وكذا ذخائر الجميع، وجيلهم، وأنا لم يتبق لنا سوى رفع صلواتنا كي نصل إلى سواحل أستراليا بأمان ودون خسائر.

أشرب الماء، وأنظف به وجهي وعينيّ الدبقتين، أحس بالمخاط المتيبس في أنفي، أبدأ بالسعال شاعرا أن عظام صدري ستنخلع، أخشى أن ينزل الالتهاب في صدري وتبدأ دورة السعال التي لا تنقضي إلا بعد خمسة أيام كما عادتي، لكنني أرجح أن سعالي طارئ وهذا ما أرجوه، لعل أحدهم نثر غبارا أو تحسست من عطر، الآن أضحك، فأني غبار يمكن أن يُنثر في عرض المحيط؟ أسمع صراخا متصلا من راكبة ما، أتحامق، لا أقدر على التفكير بالأسباب فلا بد أن لديها ما يدفعها لذلك، بحر وجوع وقلق، هنالك أسباب وجيهة أكثر من هذا؟ بعد فترة يزداد صراخها بنحو مزعج ومفزع أيضا، صراخ ينبع من ألم عميق، تتأوه وتصرخ ثم تصمت لبرهة وتعاود ذلك كما موجة تدفع موجة أخرى، يخبرني يعقوب أن حبلتي توشك على الولادة، أتساءل إن كانت الحبلتي ذاتها التي رافقتنا من غابات تايلند إلى هنا؟ يعلو صراخها بنحو مفجع هذه المرة، تستل من روعي أشياء أكبر من التعاطف والشفقة، أفكر حينها أننا نعرف أشياء كثيرة في حياتنا لكننا لا نعيها، كلنا نعرف أن الولادة عملية متعبة لكننا نصنفها ضمن العمليات الحيوية المعتادة.

حين أوشتك أمي على ولادة سارة كانت دائمة الشكوى، في بداية حملها أصبحت عابسة بصمت كمن لا يطيق أي أمر في الحياة، تغيبت عن الوجبات واعتكفت في دارها، بعد أشهر صارت تنذمر من آلام المفاصل وأوجاع الظهر وقلة النوم ولم أتمكن من التعاطف معها، كنت أراها كبيرة، تستعير حياة الأمهات الصغيرات، رغم أنها أكدت أن الكثيرات ينجبن في هذه السن إذ لم تبلغ الأربعين بعد، لكن شيئا في صدري كان يمعن في النفور منها وأظن أنها فهمته غير أنها لم تحدثني عنه قط، أعرف أنني لطالما جرحتها، وأندم على ذلك، وأبحث عن أسباب غضبي المستمر منها في الوقت الذي حاولت فيه دائما التودد إليّ وكأنها تعتذر عن فعلتها.. عن زواجها. لا أنكر أنها عبّرت أحيانا عن غيظها ونفست عما في صدرها عبر كلمات واضحة، مثل أن تقول «تذكّر.. أبوك هو طلقني وباعني» فأتخيله حين يبيعها ويبيعنا في سوق ما ويقبض ثمننا ويسافر إلى لندن ويتزوج ويعيد رسم حياته وأبوته ويصح أوضاعه، وينظر إلينا كما لو كنا خطأ قديما. أو أن تقول لي «قلبك قاس على أمك» فأصمت ولا أجيب ولا أتكلف إظهار العطف، وينفذ كلامها إلى روعي وأصدق أنني لا أرحمها ولا

أساندها، عدا تلك الكلمات، لم يكن لشيء أن يتغير، فأنا أعيش في منزلها ومن خير زوجها وهذا ما لا يمكن الفرار منه ولا يمكن إنكاره ولا يمكن إنكار أنني حين كنت في بيت العائلة تكفل إخوتها كلهم بتأديبي وتربيتي وتقويم سلوكي الأمر الذي أشعرنى أنني تحت سلطات متعددة بينما في انتقالنا لمنزل الجابرية صارت تربيتي مسؤوليتها وحدها فقط، ما أشعرنى -في لحظات المكاشفة مع الذات- أنني أحب بيت الجابرية أكثر، وأحب حياتي فيه، وأحب إخوتي غير الأشقاء، وبكل صدق أحبها أيضا.

هل أحببت زوجها؟

تصرف معي دائما كأب طيب، أب بعيد، أب يحاذر أن يجرح المسافة أو أن يقتحم الحواجز، أب ك بنك، منحني المادة فقط وما أردت منه شيئا آخر. كان ذلك -بعد رحيل أبي- كافيا جدا.. بل فائضا.

ولما كنت أقوم بما يغضبه، فضّل الصمت على المواجهة، أو توكيل الأمر إليها لتقوم باللازم، مثلا حين كنت أصرخ بلا سبب على حسين أو أحمد، أو حين يضيق صدري بهما.

هبطت مرة إلى صالة البيت، الأمر الذي لم أكن أشاركه كثيرا مع أفراد الأسرة، وحين يحدث ذلك أفضل أن أجلس صامتا، أو أن أنتخب الأوقات التي يكون فيها المكان خاليا وهادئا، حين جلست على الصوفا لألعب في جهاز ال play station ذلك اليوم رأيت حسين يمضي وقته بأفضل هواياته وهي محاكاة شخصيات الرسوم الكرتونية، ولسبب ما شعرت بأعصابي لا تحتمل إزعاجه وهمماته، كان يرتدي خوذة على رأسه ويثبت رداء أحمر على رقبته لينسدل إلى ظهره ويقبض بيده على سيف بلاستيكي في صورة تحمل النشاز إلى عيني، ردد كلماته:

«أنا البطل الخارق، أنا منقذ العالم».

لوح بالسيف في يديه وكاد أن يمسنى.

قلت له: حسين اسكت!

وكما العادة لم يجب لأنه انشغل بكليته في اللعبة، أخيرا صرخت به:

«حسينو.. والله أذبحك».

انتبه أخيرا لحدة صوتي ونبرته العالية فصمت قليلا ثم ما لبث أن أعاد إزعاجه مما دفعني لترك لعبتي والانقضاض عليه قابضا على كتفه بقوة:

«قلت اسكت.. تفهم؟».

تفاجأ وصار يبكي بينما رأيت أبا حسين واقفا على دركة السلم السفلية صافنا ومثبتا عينه على وجهي في نظرة أستشف منها غضبه أو كدورته أو ضيقه في أبسط الاحتمالات، لم يقل شيئا، ولم أفعل كذلك، لكنه حين جلس على الصوفا قربي قال:

«يا يوبا.. وسّع صدرك».

ثم أخذ يلاطف حسين واعداء إياه بشراء المثلجات ومطيبا خاطره، ثم موجهها له النصيحة:

«حبيبي بابا.. لا تزعج مجاب.. العب في الصالة الثانية».

شعرت أنه يحاول إرضاء الأطراف كلها، ويبدو أن تلك سمته المتأصلة فيه، وطبيعته التي لم يخنها يوما.

حين أنجبت أمي سارة، كنت قد بلغت الثامنة عشر، ولأنه وضح مرارا أنه يعتبر المسؤول عن والدتي وعيالها، ولأنني أعرف أنه يتنفس رضاها، قدم لي سيارة «ساب» بعد أن استخرجت رخصة القيادة، قال لي:

«تسوق أنت فينا من المستشفى إلى البيت».

ولأني كنت سعيدا بالسيارة الجديدة، أذكر أنني وافقت دون نقاش، وقدمت السيارة فيما جلس في الكرسي المجاور لي، يحاول أن يهديني للطريق والاختصارات التي أعرفها سلفا، ثم طلب مني أن أوقف السيارة في المواقف المخصصة لمستشفى دار الشفاء حيث وُلدت سارة. توقف بي قرب محل الورد والهدايا حيث اشترى لأمي باقة ورد وأعطاني ثلاثين دينارا لاختيار هدية مناسبة فاخترت لها عطرا على عجالة مدركا حيلته -الطيبة- التي أجبرني من خلالها على زيارة أمي، فلولا السيارة لتخرجت من هذه الزيارة ولانتظرت عودتها مع وليدتها للبيت كما جرى في ولادة حسين وأحمد. في المصعد بدا على عادته ضاحكا، سعيدا بنحو أجبرني على افتعال السعادة، ردد:

«أمك تفرح بك».

ابتسمت بتكلف شاعرا بثقل كلامه على صدري، ليس لأنني لا أحب فرحة أمي، ولكن لأنني لم أعد قادرا على تحمل عناء إفراحها وإشعارها أن كل الأمور تسير كما يجب وأنني بخير، ثمّة أشياء ضمّرت في روحي، ويضايقني أنني صرت من حيث لم أخطط مصدر إزعاج وضيق لها. لكن يبقى أنني أحببت المشوار في النهاية، إذ رأيت وجه «سارونة» وحملتها أيضا، واستطاعت تلك المخلوقة الصغيرة الغافية بعينين جميلتين وبشرة ناعمة إدخال فرحة غريبة إلى قلبي.

للولادة إذن سحرها الخاص الذي يؤكد إمكانية الفرح.

الآن.. يزداد صراخ المرأة، تتدخل النساء أخيرا ويسرن بها إلى الطابق الثاني من السفينة، يغيب صراخها ويسود هدوء الانتظار.

(١٠)

مياه أستراليا الإقليمية

أنا أموت..

أتحرر من الحمى أخيرا لكنني أضيع في معدة الجوع، أضيق بأبخرة أنفاسي ويطعم حامض في فمي، لا أقدر على الفكك من الوهن ولا أقوى على النبض القوي في صدري، فكلما تحركت أو بذلت مجهودا فاجأتني الطبول في قلبي وضاق نفسي. الأمر المفجع هو أننا قد ضلنا الطريق في مسرى البحر ولم تعد تجدي البوصلة في تحديد الاتجاهات. يطل الحنق من أعين الجميع لكن هيمنة الجوع تكمّمهم، طبقة كثيفة من اللا جدوى تُفعدنا في أماكتنا متصاغرين أمام ضياعنا وبتش الملاحين، لا أحسب الأيام التي ضيّفنا فيها الجوع أو البحر وأكتفي بانتظار الموت.

سأموت هنا في غموض البحر، سنموت جميعا، كل الذين تكدسوا في المركب طلبا للنجاة، الرجال الفارين من قسوة الوطن والمطرودين والمجرمين واللصوص والأمهات اللاتي حلمن لأطفالهن بغد أجمل، والوليد الذي دفعته الماخض من رحمها ليتنفس الهواء الثقيل في قبو السفينة ويستمر بالبكاء طالبا الغذاء من ضرع قد جفّ، لا أتخيل الصور، ربما أتخيلها، نعم أتخيل بعضها، وأعاين بعضها، وأستلهم بعضها مما يدور حولي فلن يتبدد بكاء الرضيع -مثلا- في الهواء دون معرفة السبب، أرى كيف تتناقله الأذرع دون أن تقدر على إسكاته، وكلمة واحدة تسقط خلفه: جائع، بأكثر من لهجة ولغة، أجهلها فيما أفهم أثرها.

أرى الفتاة الباكستانية تسعى إلى قمرة القيادة، فيُسْتَفز فضولي وأسحب طاقتي لأقترب منها، وقبل أن أعبر الأجساد المكدسة أراها تبتعد وهي تحمل شيئا ما في يديها بحرص. نتواجه حين تلتفت باتجاه القبو، وبوجه مستسلم تمرر لي يأسها ثم تتجه إلى مدخل القبو لتحرر ما في قبضتها وتدفعه إلى فوهة قنينة الماء، لا أستطيع أن أمنع نفسي من اجترار أسوأ الاحتمالات، هل تُراها تحاول الانتحار؟ أنصل لهذه المرحلة ويدفعنا صمت البحر وتضييعه إلى مثل هذه العاقبة؟ أراها تُرَجّ القنينة بما يشبه القوة ثم تنحدر إلى مدخل القبو

وتغيب، ستموت إذن هناك في ستر الظلمة، يبدو أنها اختارت أن تلبس فجيعتها ثوب الخرس.

أعود إلى رقدتي، يهياً لي أن صراخا سيرتفع بعد لحظات مطاطية، تشتد وترتخي، تتقلص وتمتد، أبدأ بفقد شعوري بالوقت والمكان، ستموت الفتاة الباكستانية انتحارا ونموت جميعا من الجوع. تبدو حواسي بعيدة عني، منفصلة بلؤم، لا أسمع لا أرى لا أشم لا أتذوق، أحاول استذكار المذاقات والروائح والأصوات التي اعتقدت أنها محفوظة في خلاياي العصبية. لكن أشعة الشمس السليطة على رأسي تُصر على غزو عيني بلونها البرتقالي، لون فاقع يداخل جفني رغم إطباقهما، لون يذكرني بالنعاس واستراق الغفوات في نهارات الكويت، في السيارة طريقا إلى المدرسة، في صبيحة الأعياد، في الصيف حين أخرج حافيا إلى الحوش ويجبرني فجور الضوء على إغلاق عيني، في حوض السباحة الذي نصبه عند التاسعة صباحا، في حرقة الأنف حين يصعد الماء عبر فتحتيه، الآن أضحك، حكايات الماء تلاحقني، هل ستموت غرقا؟

«مُجاب.. قم!».

يسقيني يعقوب ماء، أشعر بمجراه في المريء واستقراره في معدتي.

«تزول.. تزول الشدة يا رب».

أهز رأسي موافقا وآملا، الجوع والوهن يجعلاني مطواعا، ليّن الجانب، أخلع عني عنادي وتمردني.

أسمع صراخا جهة قمرة القيادة، أرفع رأسي لأجد الفتاة الباكستانية غاضبة تصرخ إزاء رجلين من طاقم الملاحة، أسأل يعقوب:

«تقوم معي؟».

يقبض على جبينه بإصبعين ويهب واقفا:

«ذبحني الصداع والله».

نصل قرب القمر لتحدّثني الفتاة الباكستانية:

«أطلب سُكرا لأخلطه بالماء، لديهم كمية كبيرة في المخزن رأيتها بعيني، المرأة المُرضع تحتاج أيّ غذاء لتُرضع الوليد، ألا يفهمون؟ ألا يرحمون؟».

يهش رجل الطاقم الهواء مشيرا لنا بالابتعاد فيعلو صوت الفتاة:

«لن أبتعد.. لقد دفعنا النقود للغذاء».

من جانب آخر في القمر يبرز ثلاثة من رجال الطاقم بصورة مفاجئة، وبلحظة خاطفة يضرب أحدهم الفتاة بعصا غريبة الشكل على جبينها فتسيل على عينيها وأنفها خيوط الدم، أفقد صبري وأمسك الرجل من قميصه بينما يسحبني أحدهم من شعري وآخر يقيد ذراعي خلف ظهري، ويرفسي في صدري لأسقط على أرجل الركّاب المكدمين فوق سطح المركب. تنطلق الشتائم واللعنات من لساني فيما أسمع صراخ يعقوب، بعدئذ أرى شجارا حارا يدبّ بين رجال الطاقم، رطنة لا أميزها، لكنني أميز اقتراب أحدهم مني وألمح عرقا أخضر ينبض في يسار رقبتة بشكل مخيف، أفزع، أتعرق وأرتعش، أسمع امرأة قربي تهمس لي «أنت مجنون؟» وبينما أدير رقبتني لمعرفة مصدر الصوت أجد الرجل ذا العرق النابض يجرّني إلى غرفة ما، الملعون يسحلني سحلا، ثم يطبق عليّ الباب.

ماذا جرى على الفتاة الباكستانية ويعقوب؟ والطفل؟ لا أدري.

تأكل الظلمة عيني، ولا يُسرّب الباب بصيص ضوء فأشعر باختناق، وحنق، سأريهم ما يمكنني فعله، حين أنجو سيتم تأديبهم على يدي، سأنجو حتما، يسكنني إحساس غامر بالنجاة رغم أن الظلمة واستطالة الوقت يُجفلاني، وتلاطم الموج الذي يؤرّج المركب

يثبطني، غير أن الندم ورغم كل ما جرى لا يمسنى، الوحوش! كان عليّ استباقهم وكسر أياديهم، أتعجب من خنوع الركاب، وقبلًا خنوع نزلاء بيت جزيرة ماكاسر، نفوقهم عدداً، ولو كنا قد أجمعنا على أخذ حقوقنا لتصاغروا أمامنا، لا يمكن إنكار حيازتهم للأسلحة، الرشاشات والمسدسات ومطاو وعصيّ، لكن ماذا كان سيحصل لو تلاحمنا وتصلبنا في وجوههم. أنذال، يحتفظون بكميات كبيرة من الغذاء فيما نفق من الجوع، ما أرخص حيوات الهاربين من أوطانهم على أظهر سفن النجاة.

أرفس بقدمي الباب، مرة - مرتين، لا أحسب عدد الرفسات لكني بعدها أخور على الأرضية متعباً وجائعاً وحانقاً، ومقيداً بانتظار الآتي. أسمع بكاء الطفل أو يهياً لي ذلك ربما، بكاء متقطع كما صحتي، كما غفوتي، بكاء حزين يسيل في أسفل مجاري الروح، ترتسم في أفقي صورة طفل رضيع، فمه صغير، جاف وأبيض. عيناه مسافرتان في الغياب.. في شوارع السماء، يتوحش في عروقي الظماً، ألداعى لبكاء الطفل، أعطش مع كل شهقة أكثر، أرى في كفي دماء، ترتفع كنافورة للسماء لتبتسم فيها وردة حمراء.

يعجزني احتساب الوقت، تعجزني المفاصلة بين النوم واليقظة، بين الوهم والحقيقة، أتخبط في صحة الأشياء، في صحة أفعالي وردود أفعالي، أخبط رأسي بيدي حين أكتشف أن حقيبة ظهري لم تزل هناك، الـ هناك المستحيل، على سطح السفينة، فيها نقودي وهاتف غلاب وبعض الأوراق الثبوتية. أهم بضرب الباب لكني أتراجع حين يمسكني التعب وألم العظام.

أنا أموت فعلاً إذن، وهذه هي النهاية، وما من نجاة ولا حياة.

أصير أشاهد كل الأمور بعين مختلفة في هذه الظلمة المُطبقة، أتذوق أفعالي كلها، أحاسبني بقسوة، وأجلد ذاتي. جلد الذات.. أكره هذا المصطلح، سمعته حتى سئمته، كلما فعلت أمراً قالوا لي: لا تجلد ذاتك، ولكن من هم الذين يقولون لي ذلك؟ ولماذا يحق لهم أن يقولوا ويتوجب عليّ أن أصمت؟ وكيف استطاعوا تفسير أحوالي وإدراجها تحت تلك اللازمة. حين تجاهلت المجموع في الثانوية العامة قالوا «يعاقب نفسه» وحين عملت في المدينة

الترفيهية وبيع النقولات وطباعة المستندات في مركز خدمة الطالب قالوا يئس من نفسه، ترى الآن ماذا سيقولون إن وصل إليهم خبر موتي في سفينة تهريب البائسين؟ هذا إن وصلت إليهم الأخبار، ستقول أُمي «أنت من غلط إلى غلط» وسيصمت أخوالي لكن أعينهم ستنتطق بما هو أفسى من الكلام، وأفسى من الضرب، اللوم المبرح، الوجد، وسيتحاشى أبو حسين النظر في عينيّ لأنه ليس لديه ما يقوله، الأمر الذي يؤكد فشلي وتخبطي، وسيعتبرني إخوتي الكويتيون عبدة.. ونموذجا مثاليا للفشل. لكني سأكون ميتا ولن يسعهم حينذاك إلا البكاء عليّ.

يهتز المركب بضراوة، أميل على جانبي الأيسر لتخبط أذني في الجدار، أختض مرة أخرى وأفقد اتزاني، وأتساءل عن السبب، أهي القروش مرة أخرى يا ترى؟ يُشرع الباب بقوة وتهجم على عينيّ أفواج الضوء، تضيق أجفاني قسرا ولا أميز الداخل، لكني أسمع صوت يعقوب يقول بإنجليزية متقنة:

«وهذا.. هذا أيضا محتجز هنا.. اسمه مُجاب».

تقترب مني مجندة حمراء الشعر، الآن أستطيع تمييزها، تعلق على كتفها سلاحا وتحمل في يديها ورقة:

«مجاب.. مجاب.. هل أنت بخير؟ هل تشعر أنك قادر على المسير؟ أنا كلوي من القوات البحرية الأسترالية وستصحبنا إلى أسطولنا البحري، هل أنت قادر على فهم ما أقول؟».

أهز رأسي مرتاحا، أخيرا فرجت الغمة وسنصل إلى أستراليا، أبتسم في وجه يعقوب الذي يحدق بي ذابل العينين. حاملا في يده حقيبتني، أتسلمها منه شاكرا موشكا على احتضانه. أمشي برفقته تسبقنا المجندة قائلة دون الالتفات إلينا:

«مجاب، هل تحتاج عناية خاصة؟ سنعيّن لك مترجما يستطيع فهم لغتك لفهم أسباب تواجدك في مياها الإقليمية».

أبتسم رغما عني وأجيب مؤكدا على إتقاني للغة:

«لا أحتاج مترجما.. حاليا أحتاج طعاما فقط».

وأدفع بضحكتي عاليا.

تجيبني:

«سنهنيء لكم طعاما مناسباً، سنحاول ذلك بالطبع، إلى أن نصل إلى جزيرة كريسماس، حيث المحتجز، فحاليا أنتم رهن الاعتقال».

تنسحب ضحكتي، وأسألها وأنا أعبر من سفينة الصيد إلى إحدى سفن الأسطول.

«اعتقال؟ لماذا؟ ماذا فعلنا؟ ما هي تهمتي؟».

تشير لي إلى جهة في السفينة الكبيرة، مرتبة ونظيفة.

«يا عزيزي.. أنتم في مياها الإقليمية.. وبصورة غير شرعية».

أوشك على الكلام لكنها تشير لي بأدب بالغ:

«الأفضل أن ترتاح الآن، وستتم مناقشة هذه الأمور لاحقا، احرص على التزود بالماء والغذاء إلى أن نصل».

أجد نفسي صارخا:

«ما هي تهمتي؟».

يسحبني يعقوب من ذراعي لأجلس قربه. أهدق فيه:

«يقولون اعتقال يا يعقوب».

يتأفف:

«اصبر ما شاء الله عليك، اصبر.. نفهم إن شاء الله الموضوع.. اصبر».

أرمي ثقلي على الكرسي، صوت الموج يناقض نفسه، تناقض في تناقض، جزيرة كريسمس الأسترالية ستستقبلنا. المسمى يبعث بالفرح وكأن الجد العجوز يفتح لنا صندوق هداياه ثم يقذفها في وجوهنا، حسنا لن أتذمر. لكن لماذا من بين رفقة البحر أجدي أتقن التذمر؟ الآن أراهم حولي، بوجوه مسالمة مستكينة ومطواعة. أرى الفتاة الباكستانية وقد عُصّب رأسها بالشاش الطبي، والطفل الرضيع هائئا -ربما- في حضن أمه، والسيدة المغربية العجوز غافية على حافة الكرسي ويعقوب يصلي شاكرا، ثم يأكل ما قدمته له المجندة.

أبدأ بكرع كوب ماء، ثم أخذ حصتي من الطعام المقدم، رغيف محشو بشيء ما.

تقول المجندة:

«صالح للنباتيين.. نحن نتفهم».

أقضم لقمة ليلذعني الطعم الحلو، أقرط السكر بأسناني ثم أعاود شرب الماء، فيما تبدأ السفينة بالتوجه إلى ساحل جزيرة الأحلام.. كريسماس.

# نوافذ

كُنْتُ هناك يومَ غادرت السفينة

يتنفس الميناء شهوة الإبحار

بحارة - نحتت الريح أياديهم - يسحبون المراسي

خُيل لي

أن وجوه الواقفين على الرصيف

قاع هذا البحر

خُيل لي أن هذا البحر

مرآة الطير المهاجر

خُيل لي

أن هذه الموجة

تحاول قول شيء ما

ربما تستجدي معانقة أخيرة

ربما استعارت من البريد رسائله

الشاعر محمد العتابي

أستراليا

جزيرة كريسماس

محتجز North west point

٢٠٠٠ - ٢٠٠١

أستيقظ على صوت الرعد.

زارنا المطر في الظهيرة مُشْتدا ثم تباطأ بخفة. الساعة الآن تقترب من الثالثة ليلا ويبدو أن عاصفة رعدية تكتمل في الأفق. أتكاسل عن النهوض من سريري العلوي بينما ألحظ الاهتزاز الذي يصنعه زميلي المصري «عطا»، الهلَع في الأسفل.

«رعد يا جماعة».

نعم إنه الرعد يا صديقي، وستغمرنا الأوحال فلا تختبئ خلف دهشتك، ولو اعترضت أو صرخت فلن يصنع لك رجال الأمن في هذا المُحتجز شيئا، سيقولون لك بكل تهذيب: «عليك التعايش مع الوضع إلى أن يُحسم أمرك». أذكر حين أمطرت السماء في الليلة الأولى التي انتقلت فيها من المحجر الصحي إلى قسم المخيمات، هلعت حينها، كان الوقت نهارا، وقد كنت سعيدا بخلاصي من كدر المحجر وانتقالي إلى سعة المخيمات وفرحا بالأمر المتاح التي أستطيع ممارستها. تركت سترتي الصفراء على السرير العلوي الفارغ الذي صار خاصتي وشاركت يعقوب بجولة لعب مضرب الطاولة وغلبته جذلا، ثم عدت لأرتب حاجياتي على رفي المخصص في الخزانة المشتركة فهاجمني المطر وتدافع الماء إلى جوف الخيمة التي تضم أربعين سريرا، فغص المكان بالأوحال حتى تلوّثت ثيابنا ذات اللون الأحادي. يومها سعيثُ إلى رجل الأمن «نوا» النيوزلندي الأصل وطلبت منه الحل، رفع كتفيه ولوى شفتيه بتودد وقال:

«لا حل يا pri.012، إنها أستراليا يا رجل، عليك أن تفهم أنك هنا في حضرة موسمين لا ثالث لهما، هذا موسم المطر، الموسم الرطب، لا بد أن تعتاد المطر حتى يحين الموسم الجاف.. ربما بعد ستة أشهر».

ثم ضحك بصوت عال.

أحب نوا، ويبدو أنه يحب صحبتي أيضا، لكن علاقتي مع العم ديفيد السبعيني أوثق بقليل. بدأ الأمر منذ اليوم الأول لوصولي إلى جزيرة كريسماس. فبعد أن رست سفينة الأسطول في الميناء، حملتنا الحافلات إلى مركز الهجرة الذي سمح لبعضنا بالدخول إلى قلب الجزيرة بينما وجه المهربين إلى سجن الدولة، قادتنا حافلاتنا إلى المحتجز الذي كان أكبر من أن أحصيه بعيني الدائختين، كنت مُغيبا تحت ثقل نعاس فاحش، أسرق غفوات مقطعة أثناء الطريق غير أنني تمكنت من رؤية المبنى بأسلاكه الشائكة التي صعّدت الغثيان إلى حنجرتي. فُتحت البوابة ودارت حوارات يبدو أنني كنت أغفو خلالها، تم تفتيشنا ومصادرة كل ما نحمل، أخذوا الهاتف وحقيبة الظهر. ثم دخلنا إلى قاعة كبرى وُزّعت فيها مراتب على الأرض، ألقيتُ حينها جسدي المنهك على إحداها وغبت في نوم يستغلق كل منافذه. صحت بعد ساعات طويلة جدا من النوم المتواصل وفوّتُ الوجبة الأولى. لما فتحت جفني، وتلمّست الوسادة المريحة والمرتبة التي أتمدد عليها في غرفة تشبه مستوصفا طبيا كان العم ديفيد قائما على رأسي بابتسامة عجوز طيب وجهه مغمسول بالبياض، وحاجباه المتهدلان يشبهان هلالين من الثلج. قال:

«نمت كثيرا يا صديقي، أرجو أن تكون مستعدا الآن للفحص الطبي».

«كم الساعة؟».

«إنها الرابعة نهارا، وستحصل على وجبتك في كافيتريا المحجر الصحي بعد الفحص السريع».

غمز لي ثم قال:

«كن مستعدا».

لا أدري لِمَ ضحكت حينها إذ شعرتُ أنه يعاملني كطفل، وتذكرت أبا حسين بنحو مربك يقلّب قلبي بين إقبال وإدبار. نهضتُ أبحث عن دورة المياه فأرشدني إليها بعض رفقاء المحجر، طفت بنظرتي أبحث عن يعقوب فما وجدته، حين وصلت لدورة المياه رأيتَه خارجا من غرفة ما في المبنى الغريب التنسيق، حياني بحرارة حامدا الله على سلامتي، فابتسمت طوعا وأنا أهنته على سلامته أيضا. تفحصت ثيابه الخضراء فاقعة اللون وهو يسوّي أكمامه ويغلق من ثم السترة التي تحمل ذات اللون.

«بردان».

هززت رأسي بالنفي:

«لا.. أسأل عن اللون؟».

ضحك:

«والله مسخرونا».

أكد لي أنهم سيعطوني بعد الفحص الأولي ثيابا أحادية اللون، قد تكون صفراء أو خضراء أو زرقاء أو نيلية، ثم أبرز أمامي بطاقة كان قد علقها على صدره، وأشار لي إلى أحرف وأرقام مصفوفة.

«هذي أسماؤنا من اليوم».

لمحت في أول الممر وجه ديفيد وهو يستعجلني، فأومأت برأسي.

«خَلَصَ شغلك وتعال، هذي غرفة الصلاة... السجادات مفروشة على القبلة».

ما أجمل يعقوب، يشبه غلاب كثيرا، أم أني اخترع الشبه، أم أنهما شخص واحد وأنا أتيه في تحديد هويتهما، يُخَيَّل إلي أن يعقوب هو مرافقي منذ البداية.

مسدتُ جبيني وعاركت خواطري ومشيت باتجاه العم ديفيد الذي قادني إلى قسم آخر من المبنى حيث ما يشبه عيادة طبية، أو هي عيادة طبية بالفعل إذ قاس لي الممرض وزني ثم سحبت الممرضة قدرا من دمي وسربتة إلى زجاجتين بطول الإصبع، وقاست بعدها ضغطي. ثم أرشدتني إلى غرفة أخرى حيث نمت على سرير طبي طويل ليقبل عليّ الدكتور الأسمر ويحييني بترحاب كبير:

«عبد الحق من الصومال».

أحسست بالألفة فيما أخذ يفحص شعري وأنفي وجوف فمي. ثم طلب مني أن أرفع قميصي ليضع مادة لزجة باردة على بطني ويمرر فوقها جهاز السونار.

«الأمور طيبة».

قال لي وهو يكتب شيئا على أوراقتي، ثم سألني:

- من العراق؟

هزرت رأسي نافيا:

- من الكويت.

رفع حاجبيه مندهشا:

- حالتان من الكويت اليوم، من يترك الكويت يا صاحبي.. الكويت حلم.. الكويت جنة.

ولما أضعت إجابتي وأطبق عليّ الصمت قال مواسيا:

- كلنا لنا قصصنا يا صاحبي.. حرمني الإرهاب من وطني.. والله يعلم الذي حرملك.. اسمع.. حالتك الصحية طيبة.. تروح قسم الأشعة الآن وأنا أوصي لك بالخروج من المحجر الصحي بأسرع ما يكون.. ليتهم يقبلوك.

أشار لي إلى جهة غرفة الأشعة وأنا تطوّح برأسي الأسئلة، ماذا سيحصل لو لم يقبلوا بي؟ هل سأعود إلى الكويت مخذولا؟ سقطت من الجنة التي طردتني لأعود إليها موسوما بذنب أزلي فتسلمني إلى الجحيم؟

أجريت فحص الأشعة ثم أمسك بي العم ديفيد وسار بي إلى غرفة التحقيق، حيث جلست أمام المجنّدة كلوي وضابطين آخرين، تفصل بيننا منضدة عريضة فُرشت بمفرش أبيض مخرم بأشكال مختلفة للزهور وبتلاتها وأوراقها التي تتطاير بعيدا بصورة فجة لا تناسب المكان.

قالت كلوي:

- إذن يا مجاب لماذا أنت هنا؟

لماذا أنا هنا؟ في تلك اللحظة صارت الإجابة صعبة وتبخر كل ما أعدته في ذهني ورتبته، تنحنحْتُ:

- أنا من الكويت، الكويت تسميني بدون، لا أملك أوراقا ثبوتية كما المواطنين، لا تقبل بي الجامعات، ولا الوظائف الرسمية، ليست لدي حياة.

- ولماذا أنت بدون؟

- أبي بدون، ولدتُ بدونًا، لسبب ما لم يُمنح الجنسية.

- أين وُلد؟

- في الكويت.

- هل اقترف ذنبا ما؟

- لا. هنالك شريحة كبرى لم تمنح الجنسية.

كانت كلوي تحدّق بي بحياد بينما يطاردني الضابط بعيني صقر في حين بقي الآخر يسجل أحرفا على ورقة أمامه.

- حسنا.. هل يمكن أن تحدثني عن العناية الصحية والتعليم، هل هنالك امتهان أو اضطهاد، هل أجبرت على أفعال ما؟ هل أنت هارب من حكم ما؟

شعرت أنها توجه الأسئلة بنحو من التحامق أو التشثيت، فهل يعقل ألا تعرف قصص البدون فيما أكد لي الكثير أن أستراليا استقبلت العديد منهم على مدار السنوات الماضية؟  
أجبتها:

- أمي كويتية لذا حظيت بتعليم مجاني حتى المرحلة الثانوية، ثم رفضتني الجامعات.

لمعت عيناها كمن حقق نصرا:

- إذن وضعك أفضل من سواك، وأنت هنا ستأخذ مكان من هم أكثر منك استحقاقا.

شعرت بحرارة في وجهي، وصرت أهدق بالطاولة كي أحفظ نظرات غضبي الحارقة.

- هل تحتاج مترجما يا مجاب؟

هزئت رأسي نافيا:

- لا.. أنا أجيد اللغة.

وددت أن أشتتها بلغتي ولغتها، الجوع ينخر معدتي والصداع يُداخل عيني وأذني وهي تستمر باستفزازي بأسئلة غبية واستنتاجات أغبي.

- إذن. تقول إنك حظيت بتعليم جيد وهذا يظهر عليك بالطبع، هل تستطيع أن تذكر لي أسباب عدم التحاقك بجامعة؟

أخذت نفساً:

- لا تسمح لي الجامعة بالانتساب إليها، أنا بدون، لا أملك وثائق ثبوتية، أحرزت نسبة عالية في القسم العلمي لكن ذلك لم يعد عليّ بفائدة.

تذكرت شيئاً:

- في السنة التي تسبق التخرج طلب مني أستاذ الفيزياء المشاركة في التحضير لمسابقة الأولمبياد العالمية، في فرع الفيزياء طبعاً، صباحاً كنت أذهب إلى المدرسة وبعد الظهر تأخذني أمي أو زوجها إلى مبنى الجامعة للتحضير مع زملاء وزميلات من مدارس شتى. أنهيت مشروعني الذي أعجب القائمين على التحضيرات، وتم الاستعداد للسفر حيث تقام المسابقة، فطلب مني المشرف الأول جواز سفري، وبالطبع.. أحبته بأني لا أملك جوازاً ولا أستطيع السفر، فأكد لي ببساطة أنه سيتم استبعادي، لأنني لن أمثل الوطن بكل الأحوال، أشار إلى الهاتف وطلب مني الاتصال بوالدي للعودة للبيت، وأمرني بأن أسلم مشروعني بتفاصيله لإحدى الشركات، وقبلت بكل غباء. حين أتت أمي لاصطحابي أخبرتها بأني أريد الهجرة، فابتسمت وقالت لي: أنت فقط.. طفل خاب ظنه وستكبر وتنسى.

افترشت الدمعة عيني، حاذرت من سقوطها.

قالت كلوي:

- هل تستطيع أن تتذكر مشروعك الآن؟

- نعم.. تحويل الطاقة الشمسية لطاقة حركية.

هزت رأسها بتفهم:

- هل تظن أنك قادر على تنفيذه هنا؟

بدأت بحك صدري الدبق ثم أجبت:

«ربما.. أظن ذلك.. نعم.. أقدر».

أحسست أنها تطيل النظر لوجهي بينما هبطت بعيني إلى طرف الطاولة فلمحتُ حدائي  
الوسخ.

- حسنا.. هل تود أن تدعو أحدا من إخوتك إلى أستراليا.. مستقبلا؟

طافت في رأسي وجوه أهلي، تذكرت أن عليّ الاتصال بهم، لكنني أجبت بالنفي:

- إخوتي كويتيون.. أُمي متزوجة من كويتي.

- ألا تستطيع الحصول على الجنسية الكويتية عن طريق الأم؟

- لا.

- ألا تمنح الأم طفلها الجنسية؟

- لا.

شعرتُ بدوار، فطلبت كأسا من الماء، ورجوت بصدق أن تنتهي دوامة الأسئلة المكرورة.

- هل تعرضت للإساءة من زوج أمك؟

- كلا.

تكدّفت بيننا طبقات الصمت، تطيل كلوي النظر إليّ بينما يستمر الضابط بصمته والآخر بتدويناته. أخيرا قالت:

- حسنا.. ستسير مع ديفيد إلى غرفة المخزن، ليعطيك ثيابا لائقة، وبطاقة هويتك، ثم ستنال وجبتك وتتعرف على مواعيد الوجبات، ستمثل للمحاكمة حين يتم تحديد الوقت، فرغم كل شيء.. دخولك إلى أستراليا بهذه الطريقة غير قانوني مطلقا، لكننا سننظر في حالتك الإنسانية. على فكرة.. لن يدعوك أحد باسمك هنا.. الأسماء ممنوعة، سيعطيك ديفيد بطاقة هويتك حيث مُعرّفك الشخصي، تمنياتي لك بحظ طيب.

قمت من الكرسي لأتجه إلى الباب، لكنها قالت وهي تبتسم بتهذيب:

- سيعرّفك ديفيد على مرافق المحتجز.. بالطبع لن تستقر فيه قبل تجاوز الحجر الصحي، والتواصل مع نزلاء المحتجز ممنوع حتى يتم انتقالك، في المحجر غرفة للصلاة وقاعة الكافتيريا، وهناك دورات المياه.. عليك أن تفكر بالاستحمام.

....

قضيتُ في قاعة الحجر الصحي قرابة أسبوعين، أسبح في بحيرة اللا جدوى. لم أدر إلى أين ستؤول الأمور. انتظار المجهول هو الأسوأ، اعتدت على التصلّب ساعات طوالا أمام النوافذ التي تطل على ساحة المُحتجز، أقنص من خلال زجاج النافذة صور الحياة المحددة بأسوار منيعة فاصلة عن العالم الحقيقي، أمتني -كما دوما- استعارة الحياة، وحلبها من ضرع القحط. هنالك دائما حواجز عتية، فاصلة، وغشومة. هنالك دائما عتبات ومراحل وضافات تلد ضفافاً أخرى للوصول إلى ما لا أعرف. فهمت من العم ديفيد أن المحتجز صمم وبُني لاستقبال المحكومين الأستراليين حيث كان المفترض أن يتم سجنهم

بعيدا عن الجزيرة الأساسية. لكن سارت الأمور بنحو مختلف إذ ملأها اللاجئون الهاربون من أوطانهم عبر البحر.

حين أنظر من نافذة المحجر إلى ساحة المُحتجز تتلبسني حالة السجين رغم أنني أعرف أنني لست سجيناً، أو ربما أنا سجين أكثر حرية من السجين النمطي، لكن هل تخضع الحرية للمعايير؟ هل يمكن أن تُقنن الحرية؟ أو أن تكون نسبية؟

بعد أسبوع من الحجر الصحي جاء أحدهم ونادى فينا:

«00pri.. أنهيت اليوم حجرك الصحي وستنتقل للمخيمات».

كان يعني يعقوب الذي بدا حينها متفاجئاً وفرحاً. وفي كيس أخذ سترته الفاقعة ومشطه الذي منحوه إياه، أخذ فرشاة الأسنان، والمنشفتين الكبيرة والصغيرة، الملابس الداخلية، ثم سلم عليّ بحرارة وقال:

«ألتقيك هناك يا الغالي».

سلمت عليه وفكرت في الـ هناك، وشطح ببالي سؤال عما بعد الهناك، الآن المحجر ومن بعده المخيمات ثم الاستقرار في أحد المباني: الأصفر أو الأخضر أو الأزرق، أو الأحمر لو صدر مني ما يخرق قوانينهم، لكن متى يا ترى سيتحقق حلم المواطنة؟

يناوشني السؤال الآن، والرعد يزأر فوق رأسي، وأنا قابع في خيمتي تحت غطائي حابساً اضطرابي بين ضلعي، أسمع تأوه زميلي المصري ولا أبالي بعد أن كسبتُ دربة في الحد من الدهشة إزاء العواصف الرعدية. أكمل اليوم ثلاثة أشهر في المخيمات، أظعن وقتي بالانتظار والترقب.

أخيراً. تلطف المطر، صار انهماره يشبه حيننا حزينا بينما تتشرب السماء بالسكون، أرجأنا جميعاً أمر العناية بالخيمة وتنظيف المخلفات للصباح، تشرق الشمس في حدود السابعة

صباحا ليتنفس المكان، تفتح الكافتيريا أبوابها في الثامنة صيفا وشتاء، وتليها المرافق الأخرى، المكتبة والنادي الصحي الذي يستقبلك لأربعين دقيقة فقط، صفوف دراسة اللغة الأم.

أفكر تحت غطائي بالمرور على العم ديفيد، اعتاد استقبالي في أيام مناوبته، أزوره في مكتبه فيسألني عن الشرق، تطفح من عينيه نظرة الإعجاب، أترجم له نصوصا عربية غائصة في القدم فأحاول التنقيب في مُعجم ذاكرتي، أؤكد له أنه فنان، فيؤكد لي أنه متذوق جيد للفن، ثم يحرضني على تذوق الأكلات الأسترالية التي يُعدها بنفسه في غرفة مكتبه الخاص ومطبخه التحضيرى الملحق بها، أطعمني مرة أكلة تسمى «الباي» وكان من اللطف أن أجرب مذاقا جديدا يكسر اعتياد الأشياء. هل أذهب إليه بعد أن هرب النعاس؟ أزيح الغطاء بخفة. وبخفة أكبر أهبط عبر سلم السرير إلى أرض الخيمة فتبتل قدمي وتتلطخ بالطين، أشعر بالغباء لكني أصرُّ على إكمال ما بدأت، أمشي باتجاه دورة المياه لطرده تراكمات الليل، وأنوي رش بعض الماء على وجهي الغاطس بآثار النوم. حين أفتح باب الحمام أفاجا بالضوء المشتعل، ألتف حول المغاسل، أرى أمجد الصغير ممدا على الأرضية والدم يشخب من باطن فخذه العاري.

«أمجد!».

تروح عيناه في الغياب بينما تبلل قطرات العرق جبينه وتقف على شاربه الأخضر الناعم. أضربه بخفة على خده، يفتح عينيه العسليتين ويعاود إغماضهما. أحتار. أحاول أن أسعفه لكن وعيه يفلت مني وتخبو أنفاسه، أخيرا أحسم أمري وأركض صارخا إلى مكتب المناوبة فيوقفني حارس الأمن.

«أمجد في الحمام.. ينتحر مرة أخرى.»

يعتمر حارس الأمن قبعته بتبرّم ويطلب المساعدة عبر الجهاز اللاسلكي، يقبل الطاقم الطبي ويقوم أفراد العناية بحمل أمجد على حمالة المرضى وإلى غرفة الفحص، أتبعهم

صائحا:

«آخ يا أمجد.. مرة ثانية؟ يحاكموك يا ولد».

سيحاكموه بالتأكيد، أمجد السوري الذي يتم لتوه الخامسة عشر، سافر عبر البحر بصحبة والدته وأخته التي تجاوزت السنتين بقليل. ترك والده في سجن مجهول في الوطن وركب قوارب اللجوء، لكن البحر ابتلع والدته التي أوصته بأخته الصغيرة. لما وصل إلى الشاطئ بمن تبقى من الركاب وحُمل إلى المحتجز فصلوه عن أخته، أكدوا له أن بقاءه مع أخته في قسم العائلات من الأمور المستحيلة والممنوعة. حاول معهم، بالغ في الرجاء والاستعطاف. لكنهم ثبتوا على قرارهم. في البداية سمحوا له برؤيتها واصطحابها إلى المخيمات، كنتُ أراها تتشبث به، يحملها ويطعمها وينيمها بين ذراعيه، وحين تحين ساعة رجوعها إلى محتجز الأطفال كانت تصرخ صرخة مرعبة، تحمّر وتتشنج ثم تزرّق شفثاها وتنادي:

«أماد.. أماد».

تمد يدها في الهواء بينما تحملها إحدى المجندات المختصات ويركض أمجد إلى الخيمة ويضرب رأسه بعمود السرير النحاسي فنجتمع عليه لنفكّه من قبضة حزنه.

حاول أمجد الانتحار ثلاث مرات.

في المرة الأولى تسترنا على فعلته، حيث تم التنويه من البداية إلى العقوبات التي يتعرض لها من يحاول الانتحار في المحتجز، لكن هنا، في هذا المكان، تدهشني المراحل التي يصل إليها الناس في قدرتهم على إيذاء أنفسهم.

في المرة الأولى ضرب رأسه حتى ضاع منه وعيه فأسعفناه، لكن المرة التالية كشفته إذ لجأ إلى طعن باطن مرفقه بسكين الطعام في حالة هستيرية أثناء وجبة العشاء، حين أسعفه الطاقم الطبي التمس أفراداه له العذر لحدائثة سنه، لكني لا أظن أنه سيفلت هذه

المرّة من المحاكمة وقد أعاد اقتراف المحذور. كسر أغلفة موس الحلاقة ومشى بالشفرات على أوردة ساقه.

يعود المطر مُحتدا هذه المرّة، أُحجم عن الذهاب إلى مكتب ديفيد وأسير إلى سريري كمن يمشي في جنازة.

يسألني «نوا» عن عدد الدورات التي درتها في مضمار الرياضة.

أجيبه لاهتا: إحدى عشرة مرّة بلا راحة.

فيرفع لي علامة النصر.

أعود إلى المغاسل، أسكن أسفل رشاش الماء لأكشط عن جلدي التعب والعرق الخفيف الذي يلازم الجري في برد منتصف ديسمبر، تتفتح مساماتي للحياة. أخرج من المغاسل نشيطا والنهار في منتصفه، أعود إلى الخيمة لأجد العم ديفيد بانتظاري مبتشرا. يقول إنهم سمحوا لي باستعمال الهاتف. فأتحضر لمكالمة الأهل في الوطن. كلّمت أمي قبل أسبوع، أخبرتها بمكاني وخطتي ونواياي وطلبت منها أن تتواصل مع عصام كي يُنشئ لي بريدا إلكترونيا عبر الـ «الهوت ميل» ذلك أنهم لا يسمحون لنا بالبقاء في غرفة شبكة الإنترنت أكثر من عشرين دقيقة، والشبكة ضعيفة بصورة تميت الأعصاب.

يؤكد العم ديفيد أن البريد الإلكتروني هام لجميع النزلاء، وأن كثيرا من المراسلات في أستراليا تعتمد على الرسائل الإلكترونية. الآن أرتب منشفتي وأطويها في رف الخزانة المخصص لي وأتبع ديفيد لنصل لغرفة الهاتف. يقودني إلى إحدى السماعات فأومئ برأسي شاكرا. يشير لساعة معصمه.

«تذكّر.. ١٠ دقائق».

أطلب رقم هاتف منزل الجابرية وأخرج من جيبى مفكرة صغيرة وقلم حبر أزرق، يأتيني عبر الهاتف صوت أُمي كأنها مزروعة هناك لانتظاري أو هذا ما يُخيّل لي، تقول:

«نحضر عندك في إجازة الربيع بعد اختبارات الأولاد».

يثقل صوتها.

«لا يمة.. ما يحتاج».

أكرّ على أسناني إصرارا، أخبرها أن هذه الفعلة ستعطل أموري هنا، فمن جهة لن يسمحوا لي بالخروج من المحتجز، ومن جهة أخرى سيُضعف حضور أقرباء من الدولة الأم موقفي. أسرد لها كيف أن المحامي الذي عينوه لي في المحاكمة التي جرت في الشهر الفائت أوصاني بعدم الإشارة إلى المستوى المادي للأهل، يومها لم أكن مقتنعا، ما أحببت تزييف أية حقيقة عني إذ أود أن أبدأ بحياة ناصعة، لكنه أصر على ذلك، كان المحامي أستراليا من أصل لبناني، أكد أن أستراليا تلتزم بسياسة بخيلة جدا إزاء اللاجئين، ففي حال قبول ملف اللجوء تصرف الدولة مساعدات مادية تتعين وفق حاجة اللاجئ كل أسبوع، وأي معلومة قد تكون مؤثرة ومُعرقلة، فقد أُمِن من الحصول على سكن بحجة قدرة أسرتي المادية.

تسألني أُمي بصوت محروق:

«ما تشناق لنا يا مجاب؟ تطردنا من دنياك يا يمة؟».

أجيبها:

«لا.. لكن لجوئي يتأثر».

تصمت على الطرف الآخر ثم يرتفع بكاؤها فأضعف، أخيرا تؤكد لي:

«المهم مصلحتك وراحتك يا بعد عمري».

ينفذ الوقت منا، أسلم عليها وأبعث معها السلام للجميع دون تحديد الأسماء، أضحك من كلمة الأسماء التي ترن في عقلي، وأغلق الهاتف منسحبا إلى ساحة المحتجز مفكرا في الاسم الذي يعتمر بطاقة الهوية على صدري، أحرف وأرقام، مرتبة ومنتسلسلة، لكنها أبطش من ضرب عشوائي.

أعرف أنني أصر على عدم حضورهم لسبب، نعم.. سياسة أستراليا واللجوء سبب، لكن السبب الحقيقي المخبوء خلف إصراري آخر ومختلف، سبب أدريه ولا أدريه، مقبش وغامض غير أنه لحوح وعنيد. أفكر أنني أود العودة إليهم ظافرا وكبيراً وناجحا ومحققا ما يرفع الأعناق، أحتاج الآن هذه العزلة رغم الأشواق والعواطف.

هل يكون هذا هو السبب؟ وهل لهذا لم أطلب اللجوء في بريطانيا؟

ينفخ البرد على جلدي فأحكم لفّ الشال على رقبتني وأغطي رأسي الذي لم تزل آثار رطوبة الاستحمام عالقة به. ألمح المحتجز وهو يبدأ بالتنفس، الشمس تهول بعجالة ليحين موعد الغروب المنتظر، ساعتني تشير للثانية والنصف، تتبقى على الغروب ساعات قليلة ويبدأ النزلاء المسلمون بالاستعداد للإفطار بعد صيام يمتد من الساعة والنصف فجرا إلى السادسة مساء. البهجة المستعارة تحيلني لأجواء شهر رمضان في الكويت. أفتقدتها بشدة وأنا أعين الاستعدادات لمراسيم السحور والفظور وأطباق التمر التي يوقرها القائمون على المحتجز. تكثيف العبادات والتوجه الفطري لله. أتذكر طهو أمي وما تحرص على إعداده. تترك لي أمي الخيار في مشاركة المائدة طيلة أيام السنة لكنها تحرص على انضمامي للوجبات في شهر رمضان وتلاحقني بذلك الحرص، تهين لي دائما ما أحب، ولا تنسى أن توفر زجاجة صغيرة عُصر بها الحامض وأخرى للسماق قرب الطبق الرئيسي للوجبة أيا كانت. هنا.. في هذا المحتجز يغيب طعم الشهر.

أفتقد يعقوب أيضا.

لسبب ما.. حظه السعيد أو تعاسة حظي ربما، سُرح يعقوب من المحتجز في منتصف شهر نوفمبر، احتضني وصافحني بحرارة ونثر تمنياته لي بالخير ووعدني بالتواصل فور حصوله على هاتف محمول أو ثابت في السكن الجديد. موفق هذا ال يعقوب، متفائل وقوي، حصل على وظيفة فور تسريحه حيث عُيّن مترجما للاجئين في المحكمة العامة، وحصل على الإقامة الدائمة أيضا. وأنا رغم سعادتي له أتعجب من تلكؤ أمري وسلاسة أموره ونحن نتشاطر ذات الظروف، هل أحسد الناس؟ لا، هل أقارن؟ هل أكره الناجين والناجحين؟ لا.. غير أن سؤالاً يستمر بطرق رأسي، لماذا تم تجنيس من دعاه أبي بالعم مبارك ومُنع جدي من الجنسية وهما يعودان لذات الأصل والفصل؟

يأتيني «نوا» مهرولا:

«أوه.. أيها الرياضي.. لست كأصدقائك».

أضحك فخورا.

«لا أحب قضاء نهار شهر رمضان بالنوم، لا أغير روتيني عادة. أحب ممارسة الرياضة والقراءة.. متى ستسمحون لي بدخول المكتبة؟».

يؤكد:

«حين تنتقل إلى أحد المباني».

أعاود السؤال:

«ومتى يحين ذلك؟».

يضحك:

«حين يحين يا صديقي».

أهزّ رأسي بأسف وأقصد الخيمة. مذ رحل يعقوب وأنا أقضي أوقاتي وحيدا، في البداية حاولت التواصل مع نزلاء الخيمة. العرب. غير أن النقاشات المحتدة التي تُتداول فيها صارت تُغزّبنا عن بعضنا، اتهامات معلبة وإقصاءات وتصنيف غير مساوم على الهوية والانتماء. حاولت الانتقال حينها لخيمة الأفغان إذ إنني لن أفهم في كل الأحوال لغتهم ونقاشاتهم الجادة والحادة والمسالمة. ثم فضّلت البقاء في مكاني أملا في انقضاء الفترة بأسرع وقت. يبقى.. أن الليل سحره الخاص، حين تُقفّل البوابات ويتنزل الهدوء على المكان فتسيل أحاديثنا وتمد حبال الوصال، ونتشارك تجارب الهرب والوجع والذكريات فتضمنا الألفة قسرا عن أرواحنا المتنافرة.

الآن أصل للخيمة، أجد زميلي المصري يحدث أحد المجندين ويطلب منه سلعا خاصة للإفطار.

«نَفسي في أكلات مصر والنبي».

أشجعه وأخبره أنني أشتهي اليوم أكلة لبنانية، التبولة، أو الفتوش، أو أية سلطة تحملني للمذاق الحامض، ألتفت للمجنّد لأسأل عن إمكانية الحصول على مكونات السلطة لأعدها هنا في الخيمة أو في مطبخ الكافتيريا، فيرد عليّ المجنّد باستحالة ذلك خصوصا وأن تقطيع الخضار يلزمه استعمال السكين، والسكاكين والشفرات الحادة محرمة في المحتجز. حين أهز رأسي بتفهم أجد «طاهر» المغربي يحدّق بي ثم يهمس في أذني:

«خير لك.. لو عندي سكين.. كنت قطعت راسك يا رافضي».

أحدق به غاضبا لكني أبتعد عنه.

يقول بصوت عال:

«تسكت الدلوعة الحقيرة».

يضحك البعض، بينما يتلملم النائمون. يستفزني طاهر بهذا الأسلوب، تارة يناديني بالصفوي، وأخرى بالرافضي، وأحياناً يخاطبني بصيغة الأنثى فيقول «الكويتية الدلوعة». بالأمس حين كنا في الكافتيريا التي تم تعديل أوقاتها بما يناسب وجبتي الإفطار والسحور لم تكن هنالك طاولة شاغرة إلا التي يستعملها، أخذت وجبتي وجلست قربه، فقال لي:

«استحمي يا دلوعة ريحتك طالعة».

شربت كوب العصير ببرود ثم قلت:

«هذه أخلاقك في شهر رمضان؟».

رد:

«مع الحثالة أمثالك نعم».

احمّرت عيناه ثم قال:

«تعرف عن رمضان يا مشرك؟ يا رافضي.. مصيرك الجحيم لعنة الله عليك».

الآن أتأسف عليه وعلى عمره الذي يقضيه في الحقد وتكفير الآخرين، أفكر أن التعصّب لا يختص بفئة دون أخرى. وأتذكر جارنا «أبا خالد» الذي لاصق بيت جدي وكان يقدم من ماله الخاص -كل عام- مساهمة لإحياء مناسبة عاشوراء، إذ يحمل مع أولاده الشباب صناديق الماء والشاي. وفي يوم السابع يأتي بذبائح الضأن وصناديق البصل والطماطم وينادي جدي بصوته وهو يلوح بيده:

«مأجورين».

وفي ليلة عاشوراء حين تجتمع نساء العائلة لتنظيف البصل وتحضيره وغسل الأرز وحبوب العدس والباقلاء، تدخل زوجته مرتدية ثياباً سوداء، تغسل يديها وتعين جدتي وأمي

وخالتني وبقيّة النساء بطواعية ومحبة، ثم تسلّم عليّ بمودة وهي تقول:

«شي لله ياسادة».

تقرص خدي وتطلبني:

«دعواتك سيد».

فأسمع أمي تقول:

«روح صوب الرجال».

أروح حينها صوب الرجال وأنا أذكر نفسي بأن أدعو لأم خالد ولعودة أبي.

تأتي الأعياد.

نعبر إلى السنة الجديدة مواكبة لعيد الفطر، وأعبر من المخيمات إلى المبنى الأخضر سعيدا وأملا بسنة خضراء مباركة.

يضم المحتجز أقساما ثلاثة، المحجر الطبي والمخيمات والمبنى العام الذي يضم المباني الملونة، الأصفر والأخضر للنزلاء، الأزرق لصفوف التعليم، الأحمر للمعاقبين، ومبنى المكتبة، والنادي الصحي.

أرتب أغراضي في خزانتي الجديدة، تحتضن الغرفة ستة عشر سريرا، لكل منها طابقان، تعجبني خصوصية الغرفة ويعجبني أني منذ اليوم أنضم إلى صفوف تعليم اللغة، فرغم أني أتقنها إلا أن ذلك يعني تنشيطا للعقل الذي توقف عن التحصيل مدة طويلة.

في صباح اليوم الأول وبعد أن أفيق مرتاح الخاطر أسرع إلى المبنى الأزرق. أبحث عن رقمي في اللوائح وأقصد الفصل المخصوص. أجلس في مقعدي الذي يحمل رقمي وأتصفح

كتاب الإرشادات. يبدأ النزلاء بالحضور وألتفت إلى أن الفصول مشتركة بيننا وبين  
النزيلات في المبنى الآخر فأفهم أن المبنى الأزرق هو المبنى المشترك الوحيد في  
المحتجز، لكنني أعرف لاحقا أنه مفتوح على بابين يُفضي أحدهما لمحتجز الرجال والآخر  
للعوائل والنساء.

أزرع عيني في كتاب الإرشادات وأتذكر اللقاء الذي أجراه معي الصحفي الأسترالي  
الأسبوع الماضي إذ سألتني عن انطباعي إزاء المحتجز، ودون تزييف صرّحتُ بأسفي  
وغضبي لإصرار سياسة اللجوء على اعتماد نظام الاحتجاز للأطفال. سألتني حينها عن الحل  
الأنسب وفق رؤيتي فأكدت أن ورود طفل ضمن اللاجئين يحتم على أستراليا استقباله  
ومنحه الإقامة الدائمة له ولوالديه دون تردد أو تأخر أو تمرغ في وحل مخيمات المحتجز.  
خرج صوتي عاليا حين قلت له:

«الواجب أن تحملوا هذا الطفل إلى بيت آمن ومن ثم إلى مؤسسات التعليم».

حينها تجاهل الصحفي غضبي وأكد لي أن التحقيق سينشر في جريدة أسبوعية ما حفظت  
اسمها. أحببت طيلة عمري كتابة المقالات. كنت أكتب نصوصي الخاصة لتقديمها في  
الإذاعة المدرسية دون الاعتماد على المجلات والموسوعات كما يفعل الزملاء، أفكر الآن  
وأنا أحاول الانتظار في فصل اللغة بالكتابة لإحدى الصحف مستقبلا حين أرتدي ثوب  
المواطنة. سأكتب حول رحلتي.. ربما، سأكون حينها ناجحا ومؤثرا وصاحب تجربة يحب  
الناس الاطلاع عليها.

أخيرا، يدخل الفصل رجل يصعب تحديد سنه، شديد البياض، تبدو عيناه خاليتان من  
الأهداب، يرتدي معطفا قمحيا وبنطالا خاكيا بحذاء طويل العنق ويعلق على كتفه حقيبة  
جلدية. يحيينا بابتسامة مرتبكة ويقف إزاء لوحة الشرح، قبل أن ينطق تدخل عبر الباب  
الفتاة الباكستانية، تصل لاهثة ومهرولة ثم تنحني:

«أعتذر سيدي».

يجيبها:

«تستطيعين مناداتي بـ لوك.. وتستطيعين الدخول بالطبع».

تلتقي أعيننا وهي تخطو للجلوس على كرسيها الخاص، تومئ برأسها باحترام فألمح الشج في جبينها ثم أهبط بعيني إلى سطح الطاولة، أنشغل بكتاب الإرشادات وأسمع لوك:

«تذكروا.. هذه ليست فصول نظامية، لا شهادة تترتب على هذه الحصص، لا مستوى وظيفي، لا درجة تحصيلية، وأنا.. لست سوى مواطن لا أحمل درجة الأستاذ ولا أملك تفسيراً لقواعد اللغة .. سأحاول فقط تعليمكم.. كيف تتحدثون.. أسماء الأشياء.. بعض المصطلحات وبعض طرائق صياغة الأسئلة».

يلتفت للوحة الدرس ثم يتذكر أمرا:

«وعلى فكرة.. سنتقبلون كل أسبوع متطوعاً مختلفاً لتعليمكم».

العيون مفتوحة عليه، يتحدث بجمل قصيرة ويحملنا على ترديدها، يُظهر الجالسون اهتماماً، غير أنني أشعر أن الفهم يغيب أسفل مطارق القلق التي تضرب الرؤوس - في البداية اعتنيت بما يقول، دَوّنت الملاحظات التي ذكرتها بالصف الأول المتوسط، ورددت خلف لوك كما الجميع: a b c d، والآن أسخر من نفسي، وأنسل من الدروس اللاحقة هاربا كما فأر من مصيدة، أو محبباً كما التعيس في الأعياد. في المقابل أقصد المكتبة التي أتاحتها لي انتقالي إلى المبنى الأخضر. أدخلها لأجدها ميتة. هل هنالك مكتبة ميتة؟ يبقى للمكتبة سحرها الخاص ولرائحة الكتب لذة تدور في قلب الشغوف، لكن هنا في مكتبة المحتجز لم أجد إلا كتباً تبشيرية بالمسيحية، وكتباً كثيرة بلغة الأوردو، بينما غابت الكتب العربية تماماً.

أسأل العم ديفيد عن المكتبات العربية في أستراليا فيؤكد لي أن بعضها في «ملبورن» - أعد نفسي بقصدها إن نُزعت من هذا المحتجز. أغوص في إحباطي إذ ينسحب فرحي الطارئ

ودهشتي القصيرة بالانتقال من المخيمات إلى غرفة المبنى وأسقط في حفرة كآبتي. ليل إثر نهار، ركض في مضمار الجري وتمرينات في النادي الصحي، انتظار وجبات طعام يغيب عنه المذاق وشجارات تتسع بين نزلاء الغرفة أو غرق في بحر الصمت.

أقرر أن أنسج حولي خيوط العزلة، أتخلي عن المجاملات البسيطة والتحيات الحبية وألتزم بصمتي وحيادي تجاه ما يتم اجتراره ومعاودة اجتراره في كل يوم. يتهم الفلسطينني الشامي بقتل الثورة ويتهم السوداني المصري والمصري السوداني ويتهمني طاهر بالشرك والنفاق فيناديني أمام الجميع: «يا دجال التقية». أسحبني قبل إغلاق بوابات المباني إلى مكتب ديفيد حيث يطلبُ مني ترجمة نصوص القرآن أحيانا أو يسألني عن شخصية واردة في الإنجيل ويطلب مسماها في الثقافة العربية. يسألني عن إخنوخ فأجيبه بأن اسمه العربي إدريس، فيستمر بسرد القصة المكونة من أضياب ثقافته، أستمتع غير أنني أسرّب له قلقي من استتالة مدة البقاء في المحتجز. يُبدي تفهمه ويقول:

- بإمكانك أن تقلق.. كلنا يمكننا القلق.

أشكره على كرمه، مرحى! إذن يمكنني القلق يا عم ديفيد شكرا لأنكم سمحتم لي بهذا، وأضحك ساخرا منه ومن نفسي ومن صورة تعاطيهم مع المشاعر والحوادث.

لم يسألني ديفيد عن قصتي، ولم أسأله عن خاصته، نتعامل معا كما ضيوف طارئين في محطة انتظار عابرة، في نهاية الجلسة يعطيني كرتا يبدو أنه يتذكره للتو، محشورا في محفظته. يحرره ويهمس:

- هذا من يعقوب.

الكرت يحوي بريده الإلكتروني وخطا هاتفيا. تزورني ملامح يعقوب، تتداخل مع ملامح غلاب.. أتحير وأشتاق.

يبدوان كلاهما بعيدين وغريبين بملامح هلامية. أشعر بصداق فأخرج من مكتب العم ديفيد ذارعا ساحات المبنى لأصل إلى غرفتي في المبنى الأخضر. ألمح الفتاة الباكستانية قرب مدخل المبنى الأزرق فتطالعني بنظرة متعجبة يفترض أن ترتد إليها هي في هذه الساعة من المساء إذ تخلو القاعات من الدروس. حين أقترب منها تشير إلى جهة ما وأجدني مطواعا لإشارتها بلا سبب وبلا وعي. يأخذني المسار إلى حائط تتربص به كاميرا سوداء تدير عنقها لتلمّ المبنى، فألتفت إلى البوابة في المبنى الأزرق ولا أجد أحدا.

...

يبصق طاهر على منشفتي.

في القصص المثالية التي تهيم على ظهر غيمة ما في سماء عالية لا نصلها ولا تهبط إلينا، وكما أفكر، وكما أود أن أصير، كنت لأغفر له وأمنحه السماح من سعة صدري لنصير بعدها صديقين ونزيل الكثير من سوء الظن ومخلفات الفهم، لنحارب الطائفية والتعصب على الهوية. لكن هذا لا يحدث في أرض الواقع وفي المساحة التي حددتها أسوار المحتجز الشائكة. لن يغيّر صمتي وتجاهلي شيئا، لن يحسّن صورتي لديه، لن يفهمني، لن تخمد بغفراني النار المتقدة في صدره، هو الذي تحاشيته في المخيمات، وهو الذي ينضم إلينا في المبنى الأخضر اليوم، وهو الذي يبصق على منشفتي النائمة على ظهر سريري بعد أن هيأتها لأحملها إلى المغاسل وأستحم، لكن لماذا يبصق طاهر على منشفتي؟ لأنه يتعبّد بهذه البصقة، ويتقرب إلى الله ويحقق أضعف الإيمان فيما يمكن أن يقدمه إزائي. لذا بدل أن أعفو عنه وأجامله وأحاول أن أمتص غضبه وأظهر له أخلاقي العالية أمسك بياقة قميصه الفاقع وألكمه على أنفه بينما يرد اللكمة لأشعر بها على عيني، ثم على جانب وجهي ومعدتي، يلكنني كأنه دَرَج على ذلك منذ الأزل. يتجمع حولنا النزلاء لتخليصنا من حرب اللكمات والسباب فيدخل العم ديفيد نافخا في صفارته. يفوقني طاهر طولا وعرضا وخشونة، أنا الكويتي المرفه الناعم. يا إلهي ماذا قلت؟ الكويتي؟ أسحبها وأقول البدون الناعم المولود في أسرة المواطنين المرفهين، كيف يمكن أن أصمد أمام لكماته الطالعة من

إخلاصه وإيمانه العميق؟ وكيف يمكن لعجوز مثل العم ديفيد أن يصلح الوضع؟ أخيرا  
يمسك بي أحد المجندين ويدفعني للسير معه، لكنني أسقط بمجرد وصولي لعتبة الباب،  
فيحملني مع آخر على حمالة طبية، ينعشني الارتفاع والهبوط ومتابعة أسقف الممرات  
المنطفئة. حين أستقر في غرفة الفحص يطل عليّ وجه الدكتور عبد الحق:

- سلامات يا كويتي.

أبتسم في وجهه وأشعر بغباء المشهد وأدرك أن ابتسامته وجه ملطخ بالدم ومنتفخ العين  
قد تدفعني للضحك أو الرعب.

- تحب المشاكل يا كويتي؟

أدير وجهي عنه، يقترب مني ويفحص عيني ومن ثم يضمدها ويقيس ضغطي ليصف لي  
مغذيا عبر الوريد وفيتامينات.

- فيتامينات قليلة ما تضر.

أومئ له بالإيجاب ثم أمشي برفقة الممرضة إلى غرفة التغذية بالوريد، أنام على السرير  
البارد وتخزني الممرضة بحقنة في وريدي ثم تصلها بأنبوب شفاف يُسرّب برودة مضاعفة  
إلى أوصالي.

- أشعر بالبرد.

تسحب عليّ الغطاء الخفيف فيما أحاول انتخاب طريقة مريحة للنوم. يُقبل العم ديفيد مع  
المجندة كلوي التي تعلق على وجهها ابتسامته واسعة لا تلائم الموقف.

- أرجو أن تكون بخير، سنجري بعض التحقيقات في الغد.

حين تخرج يطالعني العم ديفيد بخيبة:

- لم يكن عليك أن تضربه، كان يمكنك الشكوى.

- انتهى الأمر الآن.

- أنت لا تفهم، سئحجز في المبنى الأحمر.

- لا فرق.

- عليك معاودة التفكير في هذا يا صديقي.

يُنوّس الضوء ويخرج من الغرفة بينما يبقى قربي مجند آخر. أشعر بالحاجة لقصد دورة المياه، كنت أود الاستحمام لولا فعلة طاهر، أشتمه في نفسي «الله يمرضه ..مجنون ..مريض وربي».

حين ينتهي تدفق المغذي يصدر الجهاز صوتا خفيضا، تدخل الممرضة الغرفة وتزيل عن ظاهر يدي الأنبوب المغذي بعناية. يسألني المجند:

- هل أنت قادر على السير؟

- نعم.

نسير حتى ننعطف إلى دورة المياه فأقصد المغاسل وأستعد لليلة في المبنى الأحمر، يصطحبني المجند إلى المبنى فأشعر بدوخة، أدخل إلى غرفة برصاء ضيقة لا تحوي إلا سريرا نحاسيا كئيب الشكل مفروشا بغطاء رمادي، أؤكد لنفسي أنني في زنزانة مهذبة وحسب. يقفل عليّ المجند الباب الذي لا يحمل نافذة أو منفذا، فأشعر أن قاطعا يفصلني عن عالم الأحياء. أنا في زنزانة في مبنى في محتجز خلف أسوار شائكة في قلب جزيرة معزولة. أحكم دثار السرير على بدني.

أنا سجين.

أنا غير مهتم.

تحقق معي كلوي في الصباح الموالي. لا تقنعه مبرراتي، لكنها تقول إنها تتفهم، وتؤكد قبل خروجها من الغرفة:

- ستبقى في المبنى الأحمر حتى يحين موعد المحاكمة.

- أهى المحاكمة المختصة بأمر المواطنة والإقامة الدائمة أم المختصة بأمر العراك؟

ولا أدري لماذا يطيب لي أن أضحك.

تضحك كلوي معي وتجيب وهي تصنع في إصبعيها علامة النصر:

- كلاهما.

- ماذا يعني هذا؟

- السلوك أمر هام جدا.

- سيدتي.. لقد بصق على منشفتي وليست هذه المرة الأولى.

- كان عليك أن تطلب المساعدة منذ المرة الأولى.. هذا خيارك والآن تحول سلوكك إلى خطأ، أنا آسفة لكن قد يتأخر ملف إقامتك.

تخرج كلوي وأنا أغص بكلماتي، في النهاية أنا وحيد في خط المواجهة، وعليّ أن أفكر في الجيل التي تمكّني من تجاوز هذا الوقت المحتكر بين جدران المبنى الأحمر. بالطبع لن أفكر بالهروب، أنا أوهن كثيرا من ذلك، من مجرد التفكير في هذا الخاطر، غير أنني حين أعود للتمدد على الفراش أرسم في مخيلتي آلاف الصور لما وراء الجدار، وأخلق طرائق عديدة للنفاز، أتخيل أن شخصا مهما يأتي للمحتجز ويضع يده على مكتب المسؤول

ويقول: عليكم أن تحرروا مجابا، أضحك ثم أزيح الفكرة وأتخيّل أن هذه الرحلة هي محض وهم وأناي سأفتح عيني لأجدني في بيت الجابرية، وحين تبدأ مرافق بيت الجابرية في التشكل في ذهني أهرب منها وأتذكر بيتنا القديم، بيت الطفولة. أفتح عيني حينها وأتخيّل نافذة كبيرة في الجدار، تطل على شوارع مزدحمة، ثم تحملني إلى أسواق ومحلات بيع ثياب وصابون معطر وأقلام وأقنعة ملونة، ألوان تتداخل في رمادية الغرفة وحدائق فيها مراجيح وأطفال وبالونات. وطيور وفراشة ملونة، ولا أدري لِمَ أتخيّل أخيرا أفعى تزحف من النافذة إلى طرف السرير فأفزّ من مكاني.

أنظر إلى الحائط وأغضب لعدم وجود ساعة تنبهي للوقت، غير أنني أخيرا وفي لحظة الإنقاذ الفاصلة من اختطاف الوهم أسمع الصافرة فأخطو صوب الباب وأحاول فتحه لأجده مفتوحا دون أقفال وأتساءل متى عطل القفل دون أن أنتبه. أتجاوز الغرفة وأتجه إلى الصالة المشتركة في المبنى الأحمر إذ يسمح لكل نزيل بالتواجد فيها من منتصف النهار إلى الغروب. أرى النزلاء ببذلاتهم الحمراء وكأنهم ينتظرون تنفيذ حكم بالإعدام، أود أن أسألهم فردا فردا عن خطيئتهم لكنني أحجم وأشعر فجأة أنني غير مبال، أقتعد الأرض لأتابع معهم مباراة دائرة عبر التلفاز ويبدو أنها مباراة بين الفرق المحلية في أستراليا، لا أتحمّس، أشعر بكف تحط على كتفي فألتفت لأجد أمجد السوري، أوشك أن أحبيه لكنه يسألني بعصبية:

- تعرف عن أختي؟

أهز رأسي نافيا وآسفا:

- لا.

يجلس قربي صامتا وألاحظ نحوه المضاعف، نتابع المباراة بعيون محنطة، ولما يحين موعد الطعام في كافيتريا المبنى الأحمر نتقابل على الطاولة ونمضغ مع كل لقمة جزءا من صمتنا الكبير. يقترب من باب الكافيتريا مجند ضخم، ينفخ عبر الصافرة ثم يوجهنا إلى

المغاسل كما الأطفال المهذبين ومن ثم يوزعنا على الغرف، أكتشف أن بعض نزلاء المبنى الأحمر يتم احتجازهم في غرف مشتركة، والبعض -مثلي- وهم حديثو الحضور يحتجزون في غرفة منفصلة. أودّع أمجد وأنا لا أتبين حقيقة شعوري، هل أحبّ الآن في هذه اللحظة وأنا أساق إلى عزلتي أن أكون ضمن الجماعة أم أفضل اقتسام وحدتي مع ذاتي؟ لا أدري، أشك في كل الرغبات، أدخل غرفتي وأسمع صوت إغلاق الباب ودوران القفل فيه.

ألتصق في مكاني، واقفا دون القدرة على إزاحة قدمي.

يغسلني الهدوء من رأسي إلى صمغ قدمي. لماذا أنت هنا يا مجاب الطيب المهذب؟ ماعاقبوك مرة في المدرسة، تركت الديار والأهل والأسرة والعز ورفاهية بيت الجابرية لتقبع هنا في الظلمة دون أن تعرف عاقبة المصير. إذن ماذا تنتظر؟ وطنا بديلا تنصهر به لتنسى؟ لكنك لن تنسى وأنت تعرف هذا جيدا.

...

بعد أسبوعين يصطحبني مجند ما إلى مبنى الإدارة شمال المحتجز، يوصيني بإحكام الشال حول رقبتني حيث أن درجة الحرارة انخفضت خلال الأيام الفائتة، الأمر الذي لا يشعر به نزلاء المبنى الأحمر لوجود نظام التدفئة المكثف. أمشي برفقته وأتعجب حين يحكم الصّفد في رسغي، أفكر أنني مجرم عتيد في فيلم أجنبي سمج، نخرج من بوابة المبنى الأحمر فتتنفس الأشياء أمامي وتلفحني ريح باردة، نتخطى الساحة التي تتوسط المباني وأرصد نظرات النزلاء الأحرار ولا أتذكر أنني صادفت نزيلا ببدلة حمراء حين كنت أقطن المبنى الأخضر، أصل مع المجند إلى سيارة صغيرة جدا مكشوفة لتحملنا إلى شمال المحتجز، نصل في حدود خمس دقائق إلى البوابة إذ يتم تفتيشي، أخلع حذائي وجوربي وسُترتي ثم أعبر جهاز التفتيش بالأشعة وأستمر بضحكي اللا مبرر. الغريب أن المجند يجاريني بضحكة ودودة كأنما نتشارك أمرا ممتعا. في النهاية بعد أن أعاود ارتداء ملابسني يقودني إلى غرفة بلا باب، حين أدخلها أجد كلوي تجلس على كرسي خلف مكتب رمادي ويقابلها يعقوب ببدلة أنيقة دون ربطة عنق وبقربه رجل آخر أقدر أنه في عمر الخمسين.

يقف يعقوب لاستقبالي:

- سيد.. كيف حالك؟

أجيبه مذهبولا:

- تمام.

يقدم لي الرجل الخمسيني:

- دكتور «عبد الرزاق وعد الله» محامي ومن لجنة حقوق الإنسان، موجود حتى يتراجع عنك.

أفحص الرجل إذ يمد يده مصافحا، أراه قمحي البشرة لائق الجسم، وجهه مستدير بعينين خلف نظارة طبية، ذقنه حليق بينما حدّ شاربه أعلى شفتيه وتفوح منه رائحة عطر ثقيل. أصافحه محايد الوجه بينما تنقبض معدتي، فوجود محامٍ من خارج منظومة مركز اللجوء يُشعرني بالخطر. بعد أن أصافحه أحول نظري إلى يعقوب:

- أرجوك بيّن الموضوع، أنا المضروب وأنا التعبان وأنا أتحاكم؟ أعصابي تفلت مني.

تبتسم كلوي وتقول:

- أرجوكما تفضلا في مقعديكما، الآن سيتاح لكما تصفح الملف الخاص بـ pri-012، وأرجوك يا pri-012، لا تتردد في طرح أسئلتك ولكن عليك أن تستأذن لذلك قبلا، هذه الجلسة مراقبة بالكاميرات، وقد تغيّر الحكم الأولي لمحكمة اللاجئين والذي لم يكن من صالحك للأسف.

يخرج صوتي مني بلا قيد:

- حكمتم عليّ دون أن أعرف؟ دون أن أحضر؟

يهمس يعقوب مؤنبا:

- أرجوك اسكت.. نتصرف بمعرفتنا.

أعيد سؤالي الموجه لكلوي:

- حكمتم عليّ دون أن أحضر الجلسة.

تجيب بحدة:

- بعض الحالات لا تستدعي حضور المتهم، في أستراليا نحاول الحد من العنف والطائفية.

- أنا؟ أنا عنيف؟ أنا طائفي؟ لقد عُنُفت يا سيدتي وضربت وحُجزت بينما تركتم الجاني طليقا.

- لا أعتقد أن مصير ٣٣٠٣٠ من شأنك، وليس هذا ما ناقشه هنا، وعلى فكرة.. ليس طليقا كما تظن. نحن الآن نناقش وضعك، وقد تطوَّع السيد عبد الرزاق وعد الله للدفاع عنك وعيّن السيد يعقوب لترجمة أقوالك في جلسة الاستئناف المقبلة.

- وماذا لو خسرت الاستئناف؟

- تعود للدولة الأم.

يكرّ يعقوب على أسنانه ويحدجني بنظرة ساخطة:

- اسكت وفكر بمصلحتك.

يمكنه أن يوصيني بالصمت وهو يرتدي هذه البذلة وينعم بهذه الوظيفة ويرى كيف تسيّر أموره بمسارها الآمن، ويمكنه أن يُسكتني فيما يفتتني غضبي. فيما تستفزني كلوي بمصطلح الدولة الأم، فيما يشعرني ذلك كله أنني لقيط.

تقدّم كلوي الملف إلى الدكتور الذي يعدّل من جلسته ويفك عقد ذراعيه من على صدره، يقرأ بهدوء مطاطي فأتذكر أنني لم أسمع صوته إلى الآن ولم أعرف أصوله. يبدأ الثلاثة بعد ذلك بمناقشة موضوعي، جريمتي الكبرى، فيما أقف على مسافة منهم وكأن الأمر لم يعد يخصني. في النهاية تسحب كلوي كرسيها للخلف وتُشيع كلماتها بيننا:

- سيتم عقد اجتماع آخر قبل موعد جلسة المحاكمة فور تحديده.

توجه لي كلامها بابتسامة:

- أنت محظوظ.. لديك من يعتني بك.

ينقضي أسبوعان على لقائي ببعقوب فيما ألتزم بلقاءات نظامية مع الدكتور عبد الرزاق الذي يبحث في حالتي القضائية ويُنَاقش معي أمور المحاكمة واللجوء والمواطنة، أكتشف من اللقاء الأول أن دكتور عبد الرزاق من الكويت، بدون بالطبع، هاجر إلى أستراليا في مطلع التسعينيات وحصل بعد خمس سنوات على الإقامة ومن بعدها على الجنسية الأسترالية. نال شهادة الدكتوراه في الحقوق وتخصص في الدفاع عن اللاجئين ويستمر بالتدريس في جامعة ملبورن. وإذ ألتقيه أبحث في لقاءاتنا المتوالية عن الطمأنينة فيؤكد لي أنه يمسك بزمام الأمور.

في نهاية الأسبوع يُسمح لي بالانضمام إلى غرفة مشتركة في المبنى الأحمر. صُممت الغرفة كما نسق الغرف في المبنى الأخضر تماما. أكتشف فور حلولي فيها أن سريري الجديد يلتصق بنافذة تطل على ساحة المُحتجز، فأبقى أراقب الحيوانات المجزوءة من خلف الزجاج المقفل.

في منتصف النهار وحين أهم بالخروج من صالة الكافيتريا أجد «نوا» مقبلا نحوي، مبتسما يسألني عن حالي فأؤكد له أنني بخير، يقودني إلى زاوية في المبنى وهو يؤكد أنه يحمل لي أخبارا طيبة، يقول:

«إذا أردت أن تتدرب في النادي الرياضي فاقصد البوابة في تمام السادسة وأبرز للمجئد المسؤول هويتك.. سأتفق معه على ذلك».

أفكر عندها أن الشمس تشرق في الثامنة وقد أرغب تلك اللحظة بمزيد من النوم، فمئذ حلث في المبنى الأحمر وأنا ضيف الأرق والخيالات كل ليلة، غير أنني أمام حماسة «نوا» أقبل العرض شاكرًا. نهي حوارنا ثم يسير بي إلى غرفة خاصة إذ يؤكد لي أن لدي موعدًا مع اختصاصي نفسي، أفاجأ وأخبره ألا علم لي ولم أخطر بذلك، فيهون الأمر بتأكيده أن اللقاء إجراء روتيني وحسب.

أقف خلف باب الغرفة بروح ثقيلة، ليست لدي رغبة بالحديث، ولم يكن هذا اللقاء ليُسري عني في كل الأحوال، فما لا يمكن إنكاره أنني منذ مدة ليست بقصيرة اكتشفت أنني لا أطيق الكلام. بكل وضوح لا أطيق نطقه رغم أنه يحتشد في حنجرتي وأسفل لساني، لكن إخراج بهذا النحو المعتاد وتحريره من قيد الفكرة إلى الإنشاء كان أكبر من أن أحتمله. حين أحاول طرق الباب أباغت بانفراجه أمامي، تظهر لي مسافة بسيطة أستطيع من خلالها النظر إلى ما خلفها، فأرى «أمجد» وهو يقوم انحناء جسده حاملا بيده جزرة يقضمها ضاحكا، أفكر أنني لم أر ضحكة أمجد منذ التقيته في المخيمات أول مرة. لا بأس فلفل ضحكته فأل خير، يصافح «أمجد» شخصا ما، ثم يتجه نحوي وتلتقي أعيننا حين يشرع الباب تماما، يقوده المجئد إلى ممرات المبنى فيما أدخل الغرفة لأجد الدكتور أو الاختصاصي أو أيا كان يجمع أوراقه من على ظهر المكتب ثم يهب واقفا وهو يتفحصني: «هذا يكفي اليوم، نكمل في الأسبوع المقبل».

وأتساءل عما بدأناه لنكمله، لكنني أخرج من الغرفة مرتاحا ومطمئنا على كلماتي الحبيسة، أتجه إلى الصالة المشتركة وأقرر أن أنام باكرا، أضحك للفكرة، فكيف أقرر ما لا أملك سطوة عليه، لكنني أعتزم ذلك حتى أستطيع أن أذهب إلى الصالة الرياضية في السادسة.

حين يحين موعد الوجبة الأخيرة، وفي الكافيتريا أكتشف أن لأمجد صوت جميل، فعلى غير العادة يُظهر اليوم سرورا يفيض على النزلاء، يصقّق ويغني أهازيجَ بالحن شامية، وبوجه طَلِق يستمر بإلقاء النكات ثم تعلقو قهقهاته بوصلة من الضحك. كنت لأسأله عن أخته الصغيرة فلربما ظهرت هذه السعادة بعد خبر مُطمئن، لكني ما وددت إثارة أحزانه من مكمناها. بعد فراغنا من الوجبة وحين نذهب للمغاسل يقترب مني أمجد حتى ألمح الجعدة أسفل عينه اليمنى في تناقض صارخٍ على وجهه الفتّي، يقول لي بحماس:

«أختي في أحسن حال.»

أهز رأسي موافقا.

تدور عيناه ويؤكد:

«والدكتور النفسي وعدني.. يصير أبي.. ويجمعنا.»

أهز رأسي مرة أخرى ونفترق كلّ منا إلى مخدعه.

...

في الخامسة والنصف أتسلل إلى المغاسل، أغسل رأسي ووجهي لأرمم سواد السهر أسفل محجري، لم أنم لحظة واحدة، عبرت من دنيا إلى دنيا، من المبنى الأحمر إلى الأخضر وإلى البحر وإلى بيت جزيرة ماكاسر وإلى الكويت، وفي نقطة العتمة حين أغمضت عيني رأيت أشباحا مضيئة تقودني إلى جزيرة حُلمية تطفو على بحر بألوان تشف عن الطيف.

أصل إلى بوابة المبنى مُحكما السترة الحمراء عليّ، أغطي رأسي بقبعة قطنية بيضاء، أجد المجنّد أمامي فيسألني كأنه ينتظرني:

«مُجاب؟»

أتعجب كيف عرف اسمي في مكان يمنع تداول الأسماء، يقول لي إنه ينتظرنني منذ مدة طويلة، فأبتسم وأسير إلى مبنى النادي الرياضي، قرب الباب أجد «نوا» يرتدي زيا عربيا لا يُناسب بياضه وشقرته، ويحييني بابتسامة واسعة قائلا:

«حضرت لك مفاجأة».

يفتح بوابة النادي الرياضي، أدخله مبتشرا إذ أرى الأضواء تكشف المكان كله، يعطيني «نوا» أوراق لا أفهم منها شيئا، فقط ألتقط أنها كتبت باللغة العربية، يزداد عجبي حين يقول «نوا» تطلب الكويت عودتك، هذه أوراق الجنسية وهذه أوراق قبول الجامعة، لك الخيار يا.....

أمسك الأوراق محدقا بكل سطر عاجزا عن القراءة، أدقق بعيني وأفتحهما على اتساعهما لأجد أني في سريري أطالع سقف الغرفة الطافية بألوان رمادية.

لقد كان حُلما إذا.

في بيت جدي، وحين نستيقظ أيام العُطل، كان يحلو لجدي أن تسرد أحلامها أمام أمي، تحضّر الحلم كوجبة يومية، تسرد تفاصيله وما أوصله إليها من رسائل، وربما جنحت إلى تأويله، لكنها إذا أحست بخطر ما قالت:

«ندفع صدقة».

استغربت مرارا من قدرة الحلم على تشكيل مزاجها، فإذا ما رأت مناما طيبا بدت راضية وهانئة، وعلى عكس ذلك تبدو ملبدة خاطر وسريعة الغضب حين تصحو بعد منام مزعج. بعد وفاة جدي، صارت تطلب رؤيته في ذلك العالم، عالم الأطياف، وإن تحقق مرادها ظهر عليها الشبع ورددت أنها تشعر بالكفاية وبالشوق أيضا، حينها يتسلل لي العجب من كوني لم أر أبي في المنام مرة، أو ربما رأيته لكن لم تكن لرؤياه ذلك القدر من التأثير. ما يمكن أن أوقن به الآن أن منامي هذه الليلة فتح في قلبي نافذة للحنين، شعور رطب لا أعرف وصفه

لمس ثغور روعي المكتومة فتنفّست وتيقظت وبعثت أموات أحاسيسها. أقول في نفسي  
«يا رب خير.. يتفسّر بخير».

أنش عني رقدتي وأهبط على الأرضية برجليّ العاريتين، أفكّر بتنفيذ الاتفاق والتوجه إلى  
النادي الرياضي، لكن رغبتني تنسحب خلف أحاسيسي المتداخلة، ما أود أن أفعله.. تحديدا  
ودون تشتت هو استرجاع الحلم، ذلك الشعور الحلو بالقبول، شعور يعبّي فراغات الروح.

أتجه إلى باب الغرفة وأحرك المقبض بهدوء، أسير جهة باب المبنى الرئيسي، حين أمر قرب  
دورة المياه أسمع صوت شخص يتقيأ، أستدير مع الممر المفضي إلى الباب فيستوقفني  
المجند المسؤول، أبرز له بطاقة الهوية فيسمح لي بالخروج إلى الساحة كما الاتفاق، أمشي  
وأتنفس من نسيم الفجر الأول، ياه.. الفجر جميل جدا، يحرضني على الصلاة، يذكرني  
بصوت أبي الرخيم، أتعجب أنني لم أرث منه جمال الصوت أو لعلي لم أجرب ذلك يوما. كان  
يؤذن في بيتنا كل فجر بحنان يتسلق قلوبنا وكنت أصلي قربه بعد أن يمرر عطر المسك  
على رقبتني. أكاد أشم هذه الرائحة.

أصل إلى مبنى النادي الرياضي، أجد «نوا» في استقبالي وقد ارتدى زيا رياضيا، تبدو  
السعادة طافحة في وجهه بنحو لم أجده مبررا.

«أهلا يا صديقي».

حسنا، المكان مُتاح لي الآن، أستطيع انتخاب أي جهاز للتمرين، دون التقيد بالأربعين دقيقة  
التي تفرضها سياسة المحتجز، أبتسم في وجه «نوا» وأمسك بالأتقال أولا. قبل احتجازي  
في المبنى الأحمر كنت أنوي تقوية عضلاتي، ربما لو حققت ذلك لما تجرأ عليّ طاهر، ربما.  
أبدأ بالتنقل بين الأجهزة الرياضية، أستعمل المشاء وأداة تقوية عضلات الصدر، ثم ألمح  
نور الفجر يتفشى في بشرة الليل. أخبر «نوا» أنني أود الرجوع إلى المبنى للصلاة، ولأن  
المحتجز سيبدأ نهاره الاعتيادي في تمام الثامنة، يخبرني باسمًا بأن أفعل ما أشاء ويؤكد

لي أن المكان متاح لي كل ليلة، وحين أخرج من الباب يقلقني سؤال عارض، لماذا يفعل «نوا» هذا.

أخرج من مبنى النادي الصحي وأنا أناقش أفكارى واحتمالاتى وإذ ألمح تجمعاً قرب باب المبنى الأحمر أتمنى لو رافقني «نوا»، فماذا سيحصل لو تم ضبطي؟ لكني أطمئن حين ألمح النزلاء قرب الباب مما يعني إمكانية التحاقى بهم دون إثارة الانتباه، وألمح كذلك العم ديفيد الذي لم أره لأكثر من أسبوعين، أصافحه بحرارة قبل أن أسأل عن سبب التجمهر قرب المبنى فيقول لي بوجه باش:

«أحمل لك خبراً جيداً.. سيتم تسريحك من المحتجز خلال أسبوع، قُبلت أوراق إقامتك وربحت القضية».

أسأله فرحاً ومتعجباً:

«كيف؟ متى عُقدت جلسة المحاكمة.. لم يخبرني المحامي بالأمس، وألا يفترض أن أحضر الجلسة؟».

يهز رأسه مؤكداً:

«أوه يا عزيزي.. أنت محظوظ.. تدخلت من أجلك منظمة حقوق الإنسان، رفضت محاكمتك برمتها».

يطرب قلبي لسماح كلماته، أنتشي، أشعر بلذة النجاح تمشي في دمي، لكني أسمع صفارة من مجند قرب المدخل، وأرى النزلاء ينفرجون عنه ليسمحوا لنقالة طبية بالعبور.

نقالة تحمل جسداً ضئيلاً مغطى بغطاء أبيض، ينعقد حاجبى وأسأل العم ديفيد:

«ما هذا يا عم ديفيد؟».

يجيبني بعد أن يتنهد:

«هذا خبر سيئ.. لقد نجح pri.0٥٦ بالانتحار، وجده أحد النزلاء ملقى في دورة المياه وسط قيئه ودمائه.. لم تكن لتحب رؤيته يا عزيزي».

إنه يعني أمجد.

نجح أمجد! ولئن أسمع مفردة نجح من فم العم ديفيد فإني أتمس لذاتي العذر في تحديد الكلمة المطلوبة، والمشاعر المفترضة، وأتمس تضاريس التناقض بين صورة الفتى ممددا أمامي على النقالة الطبية خامد النفس وبين صورة النجاح النمطية التي تتشكل في الذهن حين تحضر، لا أدري من أين دبت فيّ الهمة للقرب منه ورفع الغطاء عنه ورؤية وجهه الطفولي للمرة الأخيرة. وحين يمسك بي رجال الأمن، أروح في زهول مُصمت، وأستيقظ لأجد نفسي على سريري في المبنى الأحمر.

أتساءل:

هل كان هذا حلما أيضا؟

# أوطان في نزل الغريب

وكي لا تُفاجأ هذي الكثافة

من عودة الروح بعد المنيّة

أرّبي القصائد

حتى تعيش كما الثور في النشأة البرزخية!

أنا لا أقول أنا

إن نزلت من الذات في الطرق المخملية

فلا بدّ من قدح عاطفي

لكي يحتوي القهوة المنطقية

ولابدّ لي من خلاص جديد

لأدرك تلك السماء الخفية

الشاعر أحمد الرويعي

أستراليا/ملبورن

٢٠٠٣- ٢٠٠١

أخرج من بوابة المحتجز حاملا حقيبة ظهري الحاوية متعلقاتي، هاتف غلاب وأموالا وبنطالا، أسترجع أشيائي وأنا أعبّر السور المحد بالأسلاك الشائكة، أودع «نوا» والعم ديفيد بعاطفة صادقة بينما يبادلاني الوداع بتهذيب شديد.

يقول نوا:

«حظا طيبا».

يصفحني العم ديفيد ويؤكد:

«عليك مراجعة محكمة شؤون اللاجئين لاستلام هويتك ولا تنس أن تدشن حسابا بنكيا لاستلام المساعدات الأسبوعية».

أشكرهما ثم أمشي باتجاه المجند الذي يقودني إلى الحافلة، أستقلها لأصل إلى مطار كريسماس أيلاند وأصعد على متن رحلة الثامنة صباحا لأتجه إلى مطار بيرث، تستغرق الرحلة سبع ساعات أفضيها بالنوم بعد ليلة لم أذق فيها غفوة واحدة. من مطار بيرث تحملني طائرة أخرى إلى مطار كانبرا، أنهي إجراءاتي في حدود العاشرة مساء وأقصد البوابة إذ ألتقي يعقوب الذي ينتظرنني قرب المخرج ويقودني لسيارة الدكتور عبد الرزاق، أجلس في المقعد الخلفي ممتنا، متجها إلى سكني الخاص في منطقة براند ويك في ولاية ملبورن، نفق في الطريق أربع ساعات مجللة بعتمة الليل، يتبادل فيها الدكتور ويعقوب الحديث دون أن أشاركهما إلا بالقليل، نمر بمتجر عربي، كُتب اسمه على لافتة كبيرة بعنوان الشويري، يهبط يعقوب من السيارة بينما نبقى أنا والدكتور ليسألني عن الحال والمعنويات، ويخبرني أنني سألتحق بدراسة الحقوق هذا الفصل كما رغبت، حين يعود يعقوب يسلمني كيسا قماشيا كبيرا يحوي خبزا عربيا أبيض، جبنة سائلة، معلبات فاصوليا حمراء وبيضاء، علبة شاي، قطع صابون، فرشاة أسنان ومعجون وقنينة شامبو، يؤكد لي أنها أولويات بسيطة لليوم الأول في السكن، وأني أستطيع بعد استقرارني التبضع كما أشاء، وكردة فعل

مُخرجة بعد الشكر آخذ من محفظتي بعض أوراق المال قبل التعرف على العملة  
وتحويلاتهما، فيرد يعقوب يدي بإصرار، أوكد له:

«والله عندي ما يكفي».

يزداد إصرارا وعنادا، فأكبح محاولتي وأسافر بنظرتي مع كُحل الليل السائل على زجاج  
النافذة، يخبرنا يعقوب باقتراب موعد صلاة الصبح فيوقف الدكتور مسير السيارة وندضم  
كلانا للصلاة بعد يعقوب، ولما نُكمل طريقنا ونصل إلى المجمع السكني تظهر الشمس  
واضحة على شرفات البيوت. نترجل جميعا من السيارة بعد سكونها في المرآب المخصص  
للسكان، يؤكد لي الدكتور عبد الرزاق أن في أستراليا محال لبيع السيارات المستعملة بسعر  
مناسب، أفكر حينها بأن مفاتيح سيارة الكويت لم تزل معي وقسرا تخطر الكويت في  
أشياء المكان الجديد، لكن خواطري تتشعث حين يفتح يعقوب باب الشقة ويسلمني  
المفتاح، وحين أقول الشقة فإني أخلع على المكان أجمل لفظة ممكنة، لأكن صريحا وأقول  
إني أعطي المكان أكبر من صفته، إني بالفعل؛ أكرمه أكثر مما يجب. يشير يعقوب إلى  
الداخل فيقول:

«هذا سكن طلاب.. الحكومة تدفع لك الإيجار إلى أن تتوظف.. والحمد لله قريب جيران  
من الجماعة».

أقول خلفه:

«الحمد لله».

يردف الدكتور عبد الرزاق:

«بيت يعقوب في منطقة ثانية.. لكن بيتي قريب.. بيننا شارع».

أشكرهما وأتأسف لعنائهما وأمتن للوقت الذي منحوه للعناية بي وإيصالي إلى سكني رغم انشغالاتهما وارتباط كل منهما بوظيفة صباحية، وحين يخرجان من الباب وأسمع وقع خطواتهما على دركات السلم أبدأ بالتعرف على المسكن الجديد الخاص بي، أكتشف أنها المرة الأولى التي أكون فيها سيد الدار، لفضة كبيرة على المكان، لكنها منعشة رغم بساطة الأركان، أبدأ بحمل الكيس القماشي إلى المساحة التي أقدّرها بـ متر واحد ملتحقاً بالغرفة الوحيدة في المكان والتي يمكن أن أسميها المطبخ، حيث ثلاجة صغيرة وعينا موقد غير متصل بأنبوب غاز، وخزانة من رفين. يحوي الرف الأول ركوة للقهوة وقدر ألومنيوم صغير وملعقة كبيرة وأخرى متوسطة وكوب واحد، في الرف الثاني أرى برطماناً زجاجياً، حين أختبر محتواه أجد السكر الأسمر، بقربه كيس ملح وعلبة زيت. أنتقل إلى الثلاجة الصغيرة لأرتب فيها مشتريات البقالة.

أتأمل الغرفة التي أقدّر طولها بثلاثة أمتار ونصف وعرضها بـ مترين أو أقل، مستطيلة الشكل تستند على جدارها كنبه تصلح للنوم، ويلتصق بجدارها المقابل رف يحمل تلفازاً صغيراً، وخزانة ذات ثلاثة رفوف دون باب. قرب الخزانة تمتد مغسلة صغيرة إلى منتصف الجدار، تتجاور مع باب خشبي متقشر يفضي إلى ما أحاول تسميته بدورة المياه.

في الغرفة باب آخر يُفتح على مساحة طولها متر وعرضها نصف متر، أخمّن أنها تستخدم كمخزن إذ تحوي مكنسة كهربائية وغسالة ثياب صغيرة، وصندوق تخزين فارغ. سأبدأ بهذا إذن، أشغل المكنسة وأبدأ بتنظيف المكان، حين أنتهي أفتح الستارة التي تطل على شارع أليف، وأسعد إذ تبدأ صور الحياة بالتدفق كأن المدينة تستيقظ لتوها وتمطى، ولأكن صادقاً وأقول كأني أشاهد فيلماً أجنبياً كلاسيكياً أو أقرأ رواية تتحرك وتحيا فيها السطور. ياه إنها الحياة، شوارع وإنارات، لافتات تتوسط جنات خضراء صغيرة، سيارات وبشر بلا ثياب موحدة، حقيقيون، يركضون، أو يسيرون في نزهة مع أطفالهم وكلابهم، أو يقطعون الشارع بالدراجات.

ينقبض صدري في تناقض مع كرم الفرص، أتساءل لماذا تتعبني البدايات؟ غير أنني أروض نفسي أقول أمام النافذة:

«ما أسعدني اليوم، أنا هنا في سكني الودود.. أنا أهىء لي وطنا».

...

أتسلم هويتي وبطاقتي البنكية من هيئة شؤون اللاجئين بعد أسبوع من انتقالي للسكن، يرسلون إلى حسابي البنكي مئتين دولار أسترالي ولم أزل أدقق الحسابات بالعملة الكويتية ولا أقدر على التحرر من ذلك، إذن أحظى بأربعين دينارا كل أسبوع، مبلغ لا بأس به، يملأني بالافتقار ويبعد عني هواجس العوز والخوف وفكرة طلب المال من أمي. أقرر شراء حاسوب محمول وهاتف بينما يتيح لنا مالك البناية خدمة الإنترنت بأمر من الحكومة. في نهار السبت أقصد شركة هارفي نورمان مع يعقوب، وأشتري الغرضين بأقساط شهرية مناسبة، أفكر أنني سأشتري جهاز المايكرويف في شهر قادمة، وربما مصباحا صغيرا لإنارة الشقة، شواية كهربائية وجهاز تلفاز كبير، وربما جهاز بلاي ستيشن، من يدري.

حين نهي المعاملة، يقودني يعقوب إلى بيت الدكتور عبد الزراق ويقول إنه يدعونا لوجبة الغداء، أخرج من ذلك دون معرفة السبب غير أنني أذهب معه بطواعية. حين أدخل إلى البيت الجميل تهب رائحة الطهو الزاكية، رائحة تنعش بي الحنين، تذكرني بالبيت ومشهد مفترض لالتفاف الأسرة حول المائدة. هذا فعلا بيت أسرة ترتفع فيه روائح المرق والأرز بالزعفران، متمازجة بأطياب البخور، رائحة عتيقة جدا في مسام ذاكرتي. يستقبلنا الدكتور بثوب كويتي أبيض، دشداشة وكوفية بيضاء، يدعونا للجلوس بترحاب، تستيقظ شهيتي وأبدأ بانتظار الوجبة. ينادي الدكتور بصوت مرتفع وحازم:

«يا عيال».

ثم يُناقش معي أمور الجامعة ومتاعب التدريس هناك. حين ينادي «يا عيال» مرة أخرى ألتفت صوب الداخل إلى الصالة، وبدل أن أشخص إلى ما يُطابق كلمة عيال أرى سيدة شابة ترتدي العباءة الكويتية المثبتة على الكتف تدخل المجلس بابتسامة ودودة وهي تحمل صينية تملؤها كؤوس الشاي.

«يا أهلا ويا مرحبا.. الحمد لله على سلامتكم».

يهب الدكتور ويأخذ الصينية من يدها ويقدم الشاي لي وليعقوب الذي يرمي بنظره إلى الأرض، وفيما تجلس السيدة قرب الدكتور يدخل إلى الصالة فتى أقدر عمره ما بين الرابعة عشر إلى الخامسة عشر يتبعه طفل دون العاشرة، يشير لهما الدكتور:

«عيالي.. جميل وعبد اللطيف، وزوجتي مريم أم جميل».

أشير لهما بالتحية، يبتسم الصغير بينما يُحجم عني الكبير ويجلس منشغلا بلعبة إلكترونية في يده، يجلسان قرب أمهما المبتسمة، التي تقطع الصمت بسؤالها عن رحلتي، تسألني:

«إن شاء الله رحلتك كانت دون أذية؟».

أرد عليها متلبكا:

«الحمد لله.. تساهيل».

تذكر لنا أنها قدمت إلى أستراليا بعد الغزو بثلاث سنوات، كانت تعيش في الكويت وسط منطقة الدسمة قرب مسجد النقي، ثم تزوجت بالدكتور الذي كان حينها قد حصل على الجنسية الأسترالية والتحققت به، في تلك الأيام كانت إجراءات اللجوء أيسر وقبول الحالات أسهل. تهب واقفة وتدعونا إلى الغداء في صالة لصيقة بمكان جلوسنا، يفصلنا عنها باب شفاف أسدلت عليه ستارة فاخرة، يفتح الدكتور الباب ويزيح الستارة لندخل إلى

جوف الصالة حيث فُرشت على الأرض المائدة، ورتبت الأطباق والأدوات، أجلس في الطرف لأكتشف أن الصالة تطل على حديقة المنزل المبهجة.

تجلس أم جميل قرب الدكتور الذي يُطل الرضا من عينيه، تبدأ بسكب الطعام في الأطباق، وتحرضنا على تذوق السلطة، يلتزم يعقوب بالسكوت طيلة الوقت وقد يمرر ابتسامة خجلى، بينما أتعجب مما يدور، أو لأقل أنني أخرج من اعتيادية الأشياء ففي الواقع ربيت في أسرة لم تسمح يوماً باختلاط النساء بالضيوف، دوماً كان هناك الحد الفاصل بكلمة «يا الله» التي تهرع بعد سماعها نساؤنا للتواري في غرف أخرى بعيدة عن الرجال وضيوفهم. حتى الأسماء، لم تكن لثدلق هكذا دون القاب أو إشارات مثل أم فلان أو الأهل أو البيت بينما يبسط الدكتور اسم زوجته متاحاً لنا.

اسمها مريم إذن.

حين تنتهي الوجبة يدعونا الدكتور لتحريك أقدامنا في الحديقة بينما تبدأ زوجته بجمع الأطباق وتطلب من ولديها المساعدة. أسأل الدكتور عن المغاسل لأزيل بقايا الدسم عن يديّ وفمي فيطلب من ابنه الكبير مرافقتي، لما أسير معه تعرض لي لحظة خاطفة ملامحه، تلتقي أعيننا فأقول له:

«أبوك طيب».

يتوقف وينظر إليّ قائلاً:

«هو حقير».

في الكويت.. كان انتسابي للجامعة حلماً متوحش الصعوبة، تجرأت على احتضانه ومحاولة ترويضه دون جدوى، والأمر الذي تحقق هو أنني مُنعت من الدراسة بعد تخرجي من المرحلة الثانوية، وما كنت لأتحرر من رغبتني تلك وافتتاني بحياة التحصيل الدراسي،

الفصول والنقابة والقوائم الانتخابية. بالطبع كان الأمر يزداد صعوبة كلما تحدث عصام عن دراسته وأساتذته وكتابته بصحيفة آفاق الجامعية، الأمر الذي أشعرتني مرارا بالغبن.

أجتاز اليوم مواد سنة دراسية أولى في قسم الحقوق بتقدير فائق وأشعر أنني أسترجع مكاني في الحياة، أتحرر من لعنة مقارناتي بعصام وغيره من أقربائي الكويتيين ذوي الجواز الأزرق، وأسعد وأقدس كل كلمة إعجاب وتشجيع من أساتذتي، وأبتهج من دعم الدكتور عبد الرزاق الذي يشجعني على إكمال الدراسة إلى الماجستير والدكتوراه، وأفكر أنها السنة الأولى وحسب، والمشوار طويل. لا أنكر أن دراستي للقانون تعد انعطافا من رحلتي في القسم العلمي إلى الأدبي غير أنني أبتغي من وراء هذا التحول أن أصير مدافعا عن حقوق المغبونين أمثالي، حقوق البدون في العالم. حين أغمض عيني مساءً أتخيلني ممتلكا صرحا عالميا عظيما، أتحدث من خلاله وأوضح وأبين، وأحصد تصفيقا رهيبا ودموعا وتعاطفا.. ثم أنام راضيا.

أحداث يعقوب عبر الهاتف الخلوي وأخبره بنتيجتي فيمطر تهانيه عليّ، التزم يعقوب بدراسة الفيزياء وتطبيقاتها وأنهى فصلين دراسيين. نقرر أن نجتمع فأعرض دعوته مع الدكتور وجاري أبي ميسم على وجبة العشاء في مطعم عربي، أحسب مدخراتي وأطمئن إلى خطتي. كانت أمي قد حاولت -بعد استقرار أموري- أن تبعث لي مبلغا شهريا في حسابي لكنني رفضت بضراوة هربا من عودتي إلى مواقع الذاكرة الأولى، وبقائي في ظل عناية ووصاية أتحاشاها، وحاولت زيارتي لكنني تعذرت بقوانين اللجوء الإنساني وضيق مسكني وضغط الدراسة خصوصا بالالتفات إلى اختلاف الفصول الدراسية عن نظائرها في الكويت، فالعطلة في الخليج تُزامن بداية فصل دراسي والعكس. اتهمنتني بالجفاء لكنني أقسمت أنني مشتاق لها... لهم جميعا، وأنا صدقا أفتقدهم لكنني أود العودة لهم ظافرا، أريد أن يكون لقاؤنا الأول بعد أن أقطع مشوارا من النجاح. في المقابل حرصتُ على التواصل معها عبر برنامج المسنجر ومحادثة إخوتي ورؤية سارونة وهي تصعد سلّم العمر.

أنهي المكالمة مع يعقوب على اتفاق لقائنا في مطعم «كباب» العربي عند السادسة مساءً، أفكر أن أمر على سوق العتائق والسلع المستعملة لشراء بعض الاحتياجات، في طريق خروجي من باب المسكن أصادف أبا ميسم جاري العراقي الطيب وهو يصعد السلم حاملاً كيساً من الفاكهة، أتعجب من عدم استعماله للمصعد فيخبرني بعطله، أعينه في حمل كيس الفاكهة وأدعوه على العشاء.

أصعد دراجتي الهوائية مثبتاً محفظة نقودي وهاتفي الخلوي في حقيبة صغيرة على خاصرتي، لن أكون أحمق وأضع الأشياء المهمة في سلة الدراجة لتطير مع الريح كما حصل في شهر نوفمبر الماضي إذ أضعت بطاقتي الجامعية، ولولا تدخل الدكتور عبد الرزاق ومساعدته لي لواجهت مشكلة ومصاعب كبيرة في تجديد البطاقة، العالم هنا نظامي ودقيق جداً، كل شيء يتحرك بمقدار ومساحة مخصصة، ولعل الدكتور عبد الرزاق تأثر بهذه النظم. مع كثرة زياراتي لمنزله لحظت محاولته إشاعة الانضباط في أسرته ووجدت هذا أمراً طيباً، فحين ينادي الصغير أخاه جميلاً بـ «جيمي» يقطب الدكتور جبينه ويرتفع صوته بكلمة واحدة:

«شباب؟».

فيعتذر حينها الصغير بينما يبقى الكبير متصنماً بلا حياة، بالطبع أنا أفهم ذلك، أو لأقل أنني أفهم مشكلات هذا العمر، جميل يواكب سن مراهقته التي يثقل فيها توجيه الآباء والبقاء تحت مظلتهم، ألا يثقل عليّ إلى اليوم هذا؟

زرتهم مرة لأحضر طلبات البقالة التي طلبتها أم جميل في رغبة مني لمعاونة الدكتور الذي كان ملتزماً بمؤتمر في سيدني. هاتفني في صباح ذلك اليوم بصوت حيي يطلب مني أن أجلب بعض السلع للبيت وأخبرني أنه متوجه لسيدني وسيغيب ثلاثة أيام عن البيت. طمأنته ومررت على المتجر ظهراً، حين وصلت وضربت الجرس توقعت أن يلقاني جميل لأخذ كيس الحاجيات، لكنني فوجئت بالدكتور يفتح الباب محمراً الوجه وبحركة معتادة دخلت إلى البيت لأوصل الأغراض إلى المطبخ فيما شعرت أن الدكتور يرغب بمغادرتي

سريعا. تركت الأكياس كيفما اتفق لأسمع ضربا عنيفا على باب ما في الطابق العلوي وسبابا باللغة الإنجليزية، كان ذلك صوت جميل بالطبع، الأمر الذي أخرجني ودفعني للخروج سريعا مع تجاهل الذي يدور وادعاء أنني لم أعاين شيئا.

أرى في الدكتور كل ملامح الطيبة والحكمة، بحوثه عالية الدقة إذ يشرح الحالات الإنسانية في العالم ويخصص لقضية البدون فصولا مطردة، أحب الدكتور لذاته ولكرمه معي ولإنسانيته الفياضة. وأتعبج أن يُبتلى بابت صعب كجميل. لكن ما يظهر لي بوضوح أنه يحظى بزوجة طيبة، وأنهما على درجة عالية من الوفاق والاتفاق. وأفكر في لحظة مكاشفة ذاتية أنني أود أن أقترن بزوجة تشبهها، رائقة البال ومتعاونة. فالملاحظ أن الدكتور متعلق بها كثيرا إذ يذكرها دائما في محاضراته ودروسه وحتى في بعض اللقاءات الصحفية. لكن أين أنا والزواج الآن؟ وكيف أبحث في هذه الغربة عن زوجة تناسبني.

في سوق العتائق أبحث عن كرسي مناسب لطاولة الحاسوب، مع كثرة كتابة البحوث والدراسة عبر الجهاز أحس بإزعاج في منطقة الرقبة وبعض أجزاء الكتف، أدور بين البسط والمعروضات فأجد أشياء كثيرة أود شراءها لكنني ألتزم برغبتني الأساسية وأستمر بالبحث عن كرسي المنشود. الحياة في أستراليا علمتني الاقتصاد والمسؤولية تجاه أمور المعيشة الأمر الذي لم أفهمه بالكويت، حيث كنت أحصل على ما أود عبر أمي أو زوجها، أمور كثيرة كانت متاحة وموجودة ومبذولة.. غير أنني لم أكن مرتاحا مرة. والآن هل أنا مرتاح؟ ربما بدأت أعتاد حياتي هذه وأنغمس معها بألفة.

أعثر على كرسي يقترب من مطلبي بنصف السعر الذي حددته، أختبره وأسند ظهري عليه لكنني أطمع بأخر يتفوق عليه في الليونة، أتركه وأقصد بائعا آخر فلا أجد إلا كرسيًا نُجد بقماش سيئ يشعرني بكآبة المنظر، في النهاية وبعد ساعة من البحث أقرر أن أعود في يوم آخر لألاحق فرصا أفضل للشراء، تتسلل لأنفي رائحة الذرة المشوية، أقصد البائع وأشتري كوز ذرة وأنتبه أنني لم أكل شيئا منذ الصباح. حين أهم بركوب دراجتي الهوائية التي قيّدتها بسلسلة في عمود إنارة كما اعتاد أصحاب الدراجات ذلك أنتبه لسيارة الدكتور

التي يفصلني عنها موقف سيارة فارغ، ولما لم ينتبه الدكتور إليّ وهو يضع بعض الحاجيات في الصندوق الخلفي أهم بالاقتراب منه باسماء، فلما أوشك أن أصل إليه أسمع صوته يعلو بالسباب:

«الله يأخذكم.. غبية طول عمرك غبية وجاهلة».

أفكر أن أقفل راجعا، ولكن يا الله.. ما هذا؟ إنه يصفع زوجته.

...

حين يقدم الدكتور إلى المطعم في السادسة، يظهر بمظهر مختلف كليا، حتى أبدأ بالشك فيمن رأيت في سوق العتائق، وأبدأ أضلل اكتشافي الآثم وأزدر به كوهم فاحش. بالطبع لم أتوقع أن يأتي الدكتور بصحبة زوجته وولديه، فأنا قد دعوته هو ويعقوب وجاري أبا ميسم ولم أحسب أن يفهم الدعوة بنحو يشمل عائلته. لكنه فعل، الأمر المرهق لي من جهة التفكير في المبلغ الذي سأنفقه فيبعثر الميزانية المحددة، ومن جهة أخرى يعيد لي كل الأفكار السيئة التي تكونت إزاء عنفه الموجه لزوجته في السوق.

يقترّب من طاولتنا بابتسامة ثابتة، ومزاج عال، يزيح الكرسي لزوجته لتجلس كما أميرة مدللة، يقدّمها وغياله إلى ضيفي، ويوشوشها بين لحظة وأخرى ويبتسمان، أحاول أن أغض نظري عنهما لكن مشهد الصفحة مدموغ بذاكرتي ينصب بيننا حواجز شاهقة. يقبل النادل المصري، ليرصد طلباتنا، أشجع ضيوفي على طلب ما يحبون براحة تامة، وأوصي النادل بالمقבלات والعصائر والمياه الغازية، يذكر الجميع رغباتهم بينما يتكفل الدكتور بتوضيح طلب زوجته نيابة عنها فيختار الطبق الرئيسي والمشروب فيما تطبع على وجهها ابتسامة صامتة دون أن تطرف عينيها، أنتظر أن يسأل ولديه فلا يفعل أيضا بل يؤكد لي:

«يكفي يا الغالي».

أخشى أنه يتخرج من الطلب براحة مراعاة لوضعي المادي فأسأل الولدين بدوري، يجيب  
عبد اللطيف:

«بطاطا مقلية».

أطلب من النادل إضافة البطاطا المقلية بينما نقلت من الدكتور نظرة غريبة تجاه ولده.  
لكنه يلتفت لزوجته باسمها فتقوم وتمسك بيد عبد اللطيف وهي تسأل عن دورة المياه، ولما  
تبتعد تتفرق الأحاديث على الطاولة، لكنني أنشغل بكليتي في أحوال الدكتور الذي أحبه  
وأخاف من صدمة صاعقة به تغير مفاهيمي، أروح أتذبذب بين الشك واليقين عما يحدث  
وأكتشف أن هذه الأمور تتلف أعصابي فأقرر أنني سأبتعد عن عائلة دكتور عبد الرزاق فور  
فراغنا من هذه الدعوة، نعم سأبتعد تدريجياً، إلى أن أنسحب تماماً وأنشغل بتحصيلي  
العلمي فأنا وبكل صراحة لن أحتمل هذا الإرهاق وعبء الشك والتفكير. حين تعود أم  
جميل وتجلس مع ولدها حول الطاولة يرحب بها الدكتور برقة، وتصل حينها أطباق  
الطعام، يرتبها النادل وفقاً لأصحابها، ويهيئ المقبلات والخبز والمشروبات في الوسط. تمتد  
يد عبد اللطيف لقنينة صلصة الكاتشب، فيعاجله الدكتور ويأخذها منه:

«نأكل كاتشب؟».

يعيد عبد اللطيف يده إلى جيبه دون كلمة، بينما يؤكد الدكتور:

«الكاتشب ممنوع».

ينزل صمت على المكان، فأقول:

«يا الله بسم الله.. تفضلوا».

ألاحظ أن جميلاً لا يأكل، أتردد في حثه على ذلك خوفاً من شياطين غضبه، أو ردة فعل  
الدكتور، لكن أبا ميسم بتلقائيته يخاطبه واللقمة في فمه:

«مد يدك بابا».

يبتسم جميل نصف ابتسامة ويرفع حاجبا بصورة مستفزة:

«لبستُ على ذوقه وأكل على ذوقه؟».

يجمّدا الصمت لوهلة بينما تملو ضحكة أبي ميسم ويغمس قطعة الخبز في صحن الحمص، فيرد عليه الدكتور بضحكة أكبر وزوجته بضحكة تخفيها خلف كفها وهي تهبط برأسها. يهب يعقوب واقفا:

«أكرمكم الله.. أرجع أنا.. سكتني بعيد».

أحاول استبقائه لكنه يصر على الذهاب، ولا يبقى لشرب الشاي. يظهر النعاس على أبي ميسم الذي سيصطحبني بسيارته للبيت فأخرج من بقاء أسرة الدكتور وتبسط أفرادها بالجلوس. أو ربما تبسط الدكتور وحده. أخيرا يقوم الدكتور شاكرا، وواعدا إيانا بدعوة مقبلة في جنة بيته كما يسميها، نتبادل السلام ونتفرق إلى جهة السيارات، حين أركب قرب أبي ميسم أنطلق بتساؤلاتي ولا أقتنع بالإطار الذي يحاول جميل أن يحتكر والده به أو ما يحاول إيصاله إلينا، ففي كل الأحوال نحن بأستراليا، ولن يفلت أي أب بالعنف تجاه أسرته، زوجته وأبنائه. أرجح أن كل ما أراه ينبع من حرج المراهقة، وأحاول أن أطمئن لهذا الترجيح.

حين أصل إلى مسكني تدعكني أصابع الإرهاق، لكنني أجلس إلى جهاز الحاسوب لأتفقد بريدي الإلكتروني، ومن ثم المسنجر، أتبادل مع عصام حوارا بسيطا، يخبرني أنه خطب فتاة من المعارف، أبارك له ثم أنني المحادثة. أجد أيقونة حساب أمي منطفئة، أخمن أنها الآن تحضر وجبة الغداء حسب التوقيت في الكويت. قبل أن أقفل الجهاز يصلني إشعار برسالة عبر البريد الإلكتروني، أفتحها لأجدها من (cap)، أقرؤها بصبر نافد، يا للدهشة!

تطلب مجلة الحزب الشيوعي لمناصرة المضطهدين نشر البحث الذي قدّمته لمجلة جامعة  
ملبورن.

هل أقبل؟

أبدأ دراسة مواد الفصل الصيفي في ديسمبر.

أمشي كل صباح في أحشاء المدينة الدافئة، طريق مغطى بنضارة العشب، يُفضي بي إلى الحافلات ومن ثم إلى المحطة القريبة من مبنى الجامعة، ألمح كيف تتخفف الأشجار من أحمالها في الجو الدافئ الرطب، ولا أخشى هطول المطر أو التعثر في الأوحال، بعد سنتين في أستراليا أتأكد أنني أحب الموسم الجاف وأفضله. السحابة في السماء مسالمة ومطواعة ترحب بي حين أدخل المبنى وألتحق في القاعة المخصصة قبل بدء المحاضرة. اليوم سأقدم تقريرتي الخاص حول حياة اللاجئين في جزيرة كريسماس وسأصّب جهدي في الحديث حول محتجز الأطفال، أستذكر وجه أخت أمجد ويديها المعلقتين في الهواء وبالطبع أحتشد غضبا لما جرى جراء ذلك. لم أتوقع أن يطلب مني أستاذ المادة التقرير بهذه السرعة، غير أنني مذُنشرت مقالتي المسلسلة بعنوان «روبينسون كروزو يتيه في جزيرة كريسماس» عبر جريدة «ذا أستراليان» وأنا أحرص الإعجاب والتشجيع من قراء الصحيفة ومن بعض الطلبة والأساتذة، الآن أضحك. أتذكر كيف ومضت الفكرة في ذهني أول مرة. كنت أقف أمام النافذة وأحيي أبا ميسم في عطلة نهاية الأسبوع وأفكر كيف أنني أصعد على أعتاب الحلم، حلم المواطنة، ثم في لحظة كاشفة لا أعرف كيف أفسرها شعرت أنني فعلا في أستراليا، أنني ألمس ذلك وأتلفسه وأتذوقه وأصيره، قلت لنفسني حينها، نعم هذه أستراليا، أنا هنا مثل فلونة وأسررتها أصل إلى المكان الذي سعيت إليه والذي لم أكن أعرف منه إلا حيوان الكانغر والكوالا، على أنني لم أصادف أيا منهما حتى الآن، نعم صادفت طيوراً جميلة تحلق في السماء كنجوم ملونة، وشيكة وقريبة، أو كورود حُمر دوّارة في الأفق. أحد هذه الطيور يحط على نافذتي كل صباح، كسبنا معا هبة الألفة، حين أسمع

ترجيع صوته اللذيذ والمتفرد أهب إلى الستارة فأكشفها عن ريشه الأحمر ورأسه الذي يبدو وكأن قبعة زرقاء تعتمره.

أفكر الآن.. لو كنت رساما لرسمته، لكني لست كذلك.

اعتقدت دوما أنني فيزيائي، لكن التجارب تُدهشنا في كيفية تعريفنا على ذاتنا مرة بعد مرة، لذا أنا هنا الآن في فصل دراسة القانون وأقدم تقريرا حول اللاجئين في الجزيرة، الأشباح التي تزورني بعض الليالي وتشاركني الوسادة لتذكرني أنها مازالت هناك، ترتدي الثياب الموحدة اللون وتتطلع إلى الحياة من النوافذ.

يطلب مني الأستاذ أن أبدأ، أصعد على المنصة ولا أرتبك أبدا، أشعر أنني ابن المنصات والإذاعات، أحقق نصري الصغير وأقول:

«صمم المحتجز في جزيرة كريسماس لاحتجاز المجرمين الأستراليين، وعزلهم في مكان بعيد عن الأرخبيل الأساسي، ولكن لسوء الحظ في نورث ويست بوينت عومل اللاجئين معاملة السجناء والمدانين والمحكومين بالإعدام أحيانا، دون فهم الدوافع الإنسانية لهجرتهم من أوطانهم».

أتوجه لطالب في الصف الأمامي وأسأله:

«هل تقبل أن يُستبدل اسمك برقم؟».

لا أنتظر إجابته بل أقول:

«في ذلك المحتجز كلنا قد أنزلنا عراة أزيلت عنا أسماؤنا، ولكن من جحيم الوطن لا من جنة المأوى».

أنتظر تصفيقا لكني أحصل على تفاعل من نوع آخر إذ يتشرب المكان بالسكون ويظهر الإنصات على الجالسين أو هذا ما يخيل إلي، أقرر أن أسرد محنة أمجد، أفعل مع

المحافظة على ثبات صوتي.

حين أنتهي يذكر الأستاذ إفادة حول أعداد اللاجئين المتزايدة فيدور النقاش موزعا بين آراء متفاوتة لكنها تتفق جميعها على ضرورة إيجاد حل لهذا التورم الإنساني المأزوم. أخرج من القاعة ممتلئا بالنصر. النصر! نعم لأواجه الحقيقة وأقر أنني نحوت بالقضية إلى منحى ذاتي، نعم أنا مرتاح ومسرور خاطر لأنني أتحرك باتجاه القضية أولا ولأنني أجد مكاني من خلالها تاليا. السؤال الذي يقرع رأسي وأنا أمشي إلى مكتبة الجامعة هو: هل سيحافظ المناضل على قوة عزيمته لو لم يكن الكفاح يحقق له مكانة خاصة في قلوب المؤيدين؟ ولا أدري لماذا أبهظ نفسي بمثل هذه الأفكار، ويوجعني هاجس داخلي، لؤام، ومُنْتَقَص، يجرح فرحتي ويؤكد أن عليّ مناصرة ما أؤمن به بتجرد بعيدا عن التكبس الذاتي.

عند باب المكتبة أواجه الدكتور عبد الرزاق، أبتسم في وجهه وأحييه فيبادلني ذلك، لم أتوقع رؤيته خلال الفصل الصيفي فقد أخبرني مسبقا أنه سيقصد الكويت في إجازة الصيف، ولأنني اتخذت قرارا بالانفاذ من دائرة وصاله اليومية فإني ما استوثقت من سفره. وهو على كل حال يغيّر خططه بعشوائية، يقول إنه سيخرج من الولاية لمؤتمر ما فأصادفه في أسواق الشويري، أو في أروقة الجامعة، ويقول أحيانا إنه مرتبط سببب أسبوعا في محكمة اللاجئين فأراه يتريض في الشارع المقابل لمسكني.

الآن يحييني ويسألني عن أحوال الدراسة فأؤكد له أن الأمور بخير ونفترق مع شعوري بعدم الراحة.

ثمة أشياء لا تُحكى، أو لا تحتاج أن تُحكى لتظهر، لكنها قائمة تناوش راحتنا، لم يحصل ما بيني وبين الدكتور أي سوء تفاهم، لم يحتد بيننا نقاش، لم نختلف حتى، لكن حواجز غريبة صارت تنبت من العدم وتفصلنا، ففي العادة وحين نلتقي يحتم عليّ الدكتور أن أحضر وجبة الغداء في بيته أو أن ألتقيه في مكتبه الجامعي، لكننا هنا الآن في مكتبة الجامعة نلتقي كبعيدين مهذبين تحكهما روح المجاملة وحسب. بالطبع لم أكن لأقبل

دعوته، فاللقاءات في الفترة الأخيرة صارت مؤذية، ويبدو أنه انتبه لذلك، أو لأقل إنه انتبه إلى انتباهي وانكشافي على ما يُخفيه سنوات خلف جدران بيته.

بعد انتهاء الساعات الدراسية أخرج من مبنى الجامعة متجهاً إلى الحافلة، لأبدأ عملي في الوظيفة المجتزة، كان لابد لي من معالجة وضعي المادي، ويبدو أن خيار العمل في المطعم الأفغاني للبيتزا ملائم جداً، إذ أعمل بنصف وظيفة، ومبلغ شهري يضاف إلى الإعانة الأسبوعية الممنوحة من لجنة شؤون اللاجئين. أصل إلى المطعم لأضع ثيابي في كيس نايلون أسود ثم أرتدي الزي الخاص؛ بنظراً أبيض وقميصاً أبيض وقبعة حمراء وقفازين من النايلون، أخذ ثيابي إلى المصبغة اللصيقة والتي تعود لمالك المطعم ويديرها رامين الأفغاني من الهزارا، والذي انعقدت بيننا صداقة بكيفية لا أدريها، فجأة عرض عليّ مساعدته، قال لي بالإنجليزية «اترك ثيابك في الغسالة وعد وخذها بعد انتهاء ورديتك في المطعم.. سأتكفل بها» ولأنني لا أود أن تعلق بثيابي روائح البيتزا والسجق وصلصات الطماطم فإنني شكرته وأكبرت مساعدته، وصرت كل يوم أحمل ثيابي إلى المصبغة وأضع قروشي في الغسالة، أحيي رامين ثم أتجه إلى طلبات الزبائن، أجيّب على مكالمات تلو أخرى: بيتزا نباتية، بيتزا المارغريتا، بيتزا السجق، الحليب المخفوق. تنتهي ورديتي عند الثامنة وتظل الشمس حينها تُرهب أضواءها عبر ثقوب السماء، أخذ ثيابي النظيفة وأقصد محطة الباص للرجوع إلى السكن، في المحطة أتفقد رسائل الهاتف، أفتح المرسلات من أمي لأجد فيها رقماً هاتفياً يبدأ بـ ٠٠٤٤، كتبت أسفله كلمة واحدة:

«أبوك».

...

أهبط من الباص، تقع المحطة في الشارع الرئيس الذي يتفرع منه الشارع المؤدي إلى مسكني، ولئن بدأت الشمس تفكر بالانسحاب من الأفق فإن ألوان المساء الخاشعة تبدأ بالتدفق والإعلان عن نفسها على استحياء. أسير ببطء متعباً، أفكر في بحث يطلبه أستاذ مادة وفي مقالتي المسلسلة، في بصل معطوب أسفل خزانة المطبخ أقول لنفسي كل يوم

أني سأخرجه قبل أن ينشر عطنه في الشقة وأنسى، في غسل جواربي ونشرها قبل أن يأخذني سلطان النوم، في رسالة أُمي ورقم هاتف أبي.

قبل أن أسلك الشارع المتفرع ألمح سيدة تركض عبر الشارع المقابل باتجاه معاكس بينما تجر ذيل عباؤها خلفها، تركض ثم تسير كأنها تدهك الأرض تحتها. إنها زوجة الدكتور، لا أشك بذلك، أستطيع تمييزها، ألحق بها مستفسرا وقلقا:

«أم جميل.. خير إن شاء الله؟».

حين تلتفت ألحظ أن وجهها يستبدل غضبه بانكسار.

«الله لا يوفقه».

تقول ثم تختنق بالبكاء.

«ساعدي.. خلصني منه.. جنني والله جنني.. كسّرني».

تستدير وتكمل طريقها بينما ألتصق في مكاني متحيرا ومتسائلا عما يتوجب عليّ فعله، تمر دقيقة لتذوب في الطريق وتتلاشى بينما أسمع وقع خطوات خلفي، وإذ ألتفت أرى الدكتور يمشي بهدوء، يقترب مني فأختنق برائحة التبغ، أفاجا فلم أعرف بأنه يدخن قبل هذا، أتلعثم:

«دكتور عساكم بخير».

يبتلع ريقه، ويسألني:

«تتمشى؟».

لا أجيبه فيما يتجاوزني ويقول:

«نلتقيك إن شاء الله».

تتكاثف حيرتي، أجدني أمسك الهاتف لأتصل ببيعقوب وأطلعه عما أرى لكني أتردد وأحجم، هل سيُغيّر اتصالي شيئاً؟ البيوت أسرار، أهمّ بالعودة إلى المسكن، لكنّ خطواتي تأخذني إلى بيت الدكتور. ينزل الظلام على الشوارع، وتهب ريح رطبة تحمل عطر أوراق الشجر، أتوقف قرب البيت وأفكر بالسؤال عن الولدين في ظرف بغيض كهذا، قبل أن أضع إصبعي على الجرس أرى الدكتور يمشي بقرب زوجته الباسمة. هذه المرة يسدد نظرتة إليّ مستفهماً، فأبتلع ريقى بدوري، يسألني:

«أخدمك بشيء سيد؟».

أبادل النظر بينهما، أجد عينيها تسقط في الفراغ، أغضب منها ومن حماقتي فأنسحب مردداً:

«لا.. عسك تسلم دكتور.. كنت قريب».

يشير لي وأنا أبتعد:

«تفضّل».

أهز رأسي بالنفي وأبتعد.. أراهما بعيدين.. وصغيرين جداً.

وفي مسكني، حين أطلق سراج جسمي للنوم، يعتقلني عقلي بسجن السهر، يعذبني ويطرح أسئلة تستجوب أعماق وديان روحي، ما الذي أفعله؟ وما الذي سأفعله؟ لقد استنجدت بي.

لقد فعلت ذلك حتماً، هرولتها وصوتها ودموعها وحياد نظرتها الأخيرة وكلماتها، هل تتلاعب بي؟ أم هو من يتلاعب بنا؟

قالت في إحدى زياراتي إنها وحيدة هنا، ليس لديها معارف بين أفراد الجالية، وإن الدكتور وولديها هم كل حياتها. قالت إنها يتيمة انقلبت بأبيها شاحنة نقل عام وهي في عمر السنتين وتزوجت أمها بأحد الأقرباء في دولة أخرى لتكبر في بيت عمها وبين يدي زوجته التي تخلّصت منها لأول خاطب. هل قالت أيضا أنها الفتاة البدون التي يتوجب عليها أن ترضخ للأوامر المفروضة؟ لم تقل شيئا، لكني تتبعت كلماتها بحواسي الأخرى لأفهم انكسارها الكامن خلف الضحكات.

يا إلهي..

ليس هذا من شأنك يا مجاب..

ليس هذا من شأنك..

رأيتها تتهدى قرب زوجها في طريق العودة إلى بيتها، رأيت صمتها ونظرتها الجاحدة تلك إذن.. ما الذي تفعله أنت بينهما؟

يمسك برأسي الصداغ، أقوم للبحث عن قرص بندول، أفتح الهاتف وأجد على الشاشة صورة ملف الرسائل يعلوه رقم واحد يحارث ضيقي، أفتح ملف الرسائل وكما قادي حدسي.

إنه رقم غريب..

إنها رسالة منها..

إنها تستغيث بي.

نتفق على اللقاء.

في منتصف الأسبوع أستاذنا مدير المطعم، ويخبرني أن يوما من راتبي سيُحسم لكني لا أعبأ، أطلب سيارة أجرة عند مدخل سوق العتائق حيث تجلس أم جميل في كرسي قرب المدخل. تصل السيارة قبل أن أقطع الطريق إليها، فأشير إلى السائق بالتمهل ثم أشير لها بالركوب في المقاعد الخلفية فيما أركض وأجلس قرب السائق، أعطيه العنوان ثم أفتح حقيبتي وأرتب أوراقتي وملخصات محاضراتي الجامعية، ثم أخرج كرت مكتب المحاماة «شيرين أغائي» وأطلب الرقم المدون فيه، يجيب السكرتير على الطرف الآخر ويؤكد أن المحامية ستستقبلنا بعد نصف ساعة، أنني المكالمة وأنا أطالع ساعة معصمي وأطلب من الله ألا يعرقلنا ازدحام السيارات أو تفتيش عابر. حين نصل أخيرا أحثها على النزول بينما أنقذ السائق أجرته.

أقودها إلى مدخل العمارة، تمشي بتثاقل بينما أمشي بلهفة، أستحثها لكنها تبدو مترددة بنحو يربكني ويدفع الشك في أحشائي، لا تشبه هذه المرأة التي تمشي خلفي بامتعاض تلك التي حدّثتها عبر الهاتف، تلك التي تشكو زوجها وعنفه، تلك التي تستنجد بي للخلاص مما أسمته مأساة حياتها، تلك التي أكدت لي أنها وجدت في المخلص لأني أدرس الحقوق ولأنها لمست بي شهامة تذكرها بشهامة أهل الكويت.

في الممر المفضي للمكتب تبدو منزعجة، تؤكد لها أن المحامية التي نقصدها فاعلة في مجالها ومختصة بقضايا الأسرة في أستراليا، دلتني عليها رئيس تحرير الجريدة التي أكتب بها.

تهز رأسها بهدوء.

نصل إلى المكتب، يشير لنا السكرتير بالجلوس في ممر الانتظار. نجلس متقابلين فتحشر عينيها في شاشة هاتفها المتطور بينما أتأمل المكان وأفكر بشكل المكتب الذي سأتدرب به لممارسة المهنة وأتساءل عن شكل حياة المرافعات والقضايا. ولأكون صادقاً فإنني وللأسف أفكر فقط في تلك الجالسة أمامي الآن.

يخبرنا السكرتير بأن المحامية مستعدة للقائنا الآن، فأهّب واقفا وأسبق أم جميل بخطوات، تحيينا المحامية الأسترالية من أصل إيراني بـ «سلامٌ عليكم» فتشيع القليل من الارتياح، لكنها تتابع حديثها باللغة الإنجليزية.

- إذن.. ما هي قضيتكما؟

أندفع للحديث قائلا:

- إنها قضيتها هي، تريد الطلاق من زوجها، زوجها يعنفها ويعنف أولاده، وتريد معرفة حقوقها.

تبتسم في وجهي ببرود ثم توجه سؤالها إليها:

- إذن ترغبين برفع دعوى التعنيف الأسري ومن ثم الطلاق؟

- نعم.

- ستحصلين على البيت إن سارت الأمور بصالحك، وسيدفع لك تعويضات شهرية، وربما نستطيع أن نسجنه أشهرا ليعمل بعدها في الخدمات العامة، هل هنالك آثار للضرب على بدنك؟ تسجيلات أو صور أو تقارير طبية؟

- لا لا.. لا أريد أن أسجنه، فقط أريد الطلاق.

- إذن لن تقدمي أدلة على العنف.

ينزل الصمت على المكان، ثم تجيب:

- لا أواجه العنف البدني فقط، هنالك أمور لا أستطيع الحديث حولها، أشعر بالإهانة كل يوم، يخبرني دائما أنني غبية وجاهلة، لكنه يؤكد أنه يحبني ويحميني، ينفق عليّ وعلى

أولادي بسخاء لكنه يحصرنا بقوانين تشعرني أنني في سجن، أنظر كل صباح إلى بيتي وأقول لا يمكن أن يكون هذا بيتا ولا يمكن أن تكون هذه أسرة.

- لماذا الآن؟ لماذا تتخذين القرار الآن؟

- تعبت، كبر ولداي، لم تعد بي تلك الطاقة للمواجهة ولتصنع السعادة. يريد الزوج امرأة باسمة على الدوام وأنا لم أعد أقدر على ذلك.

- لن أناقش هذه المفاهيم الآن يا مريم، لكن أطلب منك الوثوق بقرارك وخطوتك، إذا سرنا في درب الطلاق فلا أعتقد أن هنالك طريقا لرجوع الأمور لما كانت عليه، هل أنت واثقة من خطوتك؟

- كيف سأدفع لك؟

- أووه.. إن ربحت القضية سأخذ أتعابي من التعويضات التي سيقدمها لك، وثقي أنك ستربحين.

تهبّ أم جميل واقفة أخيرا وتقول:

- سأفكر وأتواصل معك، شكرا لوقتك.

أتعجب منها، غضبها وارتباكها، أخاطب المحامية:

- شكرا لك، أين أقوم بدفع رسوم المقابلة؟

تبتسم الابتسامة الباردة نفسها وتجيب:

- لن تدفع، هذه خدمة لصديق.

أشكرها وأندفع عبر البوابة لأحق خطوات أم جميل التي تستبقني هذه المرة، أراها تتحدث في الهاتف، ثم تلتفت لي:

- مشكور وما قصرت.

أفهم أنها ستعود إلى بيتها دون رفقتي، فأفكر أن أستقل حافلة لا تكلفني المزيد من المصروفات. حين أخرج من باب العمارة أجد أم جميل توشك أن تركب سيارة أجرة، قبل أن تستقر في الكرسي الخلفي تقول لي:

«أرجوك.. لا تفضحه.. هذا أبو عيالي.»

...

في صباح يوم العطلة، أصحو بكسل، أفكر أن أنهي المقال المتسلسل أو أن أخرج للتبضع قبل موعد الوردية في المطعم، أو أن أدرس لاختبارات الأسبوع المقبل، أو أن أجمع حاجياتي. سأنتقل إلى مسكن آخر بعد أسبوعين، تطوّر وضعي كلاجئ وسأحصل على امتيازات أكبر، لكن أية حاجيات؟ لا أملك إلا قطعة قليلة من الملابس وكرسيا وجهاز حاسوب وبعض الإلكترونيات القليلة، فلن آخذ معي ما يخص هذه الشقة.

يرن هاتفي المحمول، يظهر رقم أمي من الكويت، أجيبها ونتحدث بفتور، ثم تسألني إن كنت قد اتصلت بأبي، فيأتيني السؤال بوقع غير محبب، لا أعرف أن أفسّر انزعاجي، لكني أجيبها بالنفي وأخبرها أنني سأحصل عما قريب على جواز خاص من فئة stateless يمكنني من الانتقال بين الدول الأوروبية، وأن الجامعة خيرتني بين البقاء للدراسة في ملبورن أو أن أحظى ببعثة إلى جامعة بون ديكسون في منطقة ستراند في لندن، فتدعو لي بالتوفيق دون أن تفهم المغزى من كلامي، وإذ ذاك أفضل أن أكتم عنها فكرة السفر التي تراودني للقاءه. حين ننهي المكالمة، أنهض لتبديل ملابسي وأجلس إلى الحاسوب دون أن أكتب شيئا، أشعر بتشويش كبير، أنهض وأفتح الستائر وأحيي أبا ميسم الذي يبتسم دائما، أفتح

الثلاجة لأجدها خالية تماما، تصعد حرقه الجوع إلى بلعومي فأقرر، سأذهب لمحل البقالة القريب.

قبل أن أخرج من باب المسكن أباغت باتصال آخر، يهوي قلبي على الأرض، إنه من الدكتور، لم أحداثه أو أصادفه منذ مدة طويلة، منذ التواصل مع زوجته. حين أجيب أشعر بشيء يُدِينُنِي، لا أفهمه ولا أفسره، يحييني بصوت ودود ويعاتبني على انقطاعي ثم يدعوني للعشاء في منزله الليلة. أجد قبول الدعوة ينساب من لساني بينما يُغلق عنها باب القلب. إذن سأراها الليلة.

أخرج أخيرا من الباب وأهبط عبر السلم إلى المدخل، أستقل دراجتي الهوائية وأقصد متجر البقالة وأشتري بيضا أسمرَ وخبزا أسمر وجبنة عربية وحليبا وعلبة فراولة، أضع الحاجيات في كيسها القماشي المخصص وأعود.

حين أهم بالدخول للمسكن أتفقد صندوق البريد، أحمل الرسائل وطرذا من مكتبة عربية كنت قد طلبت من إصداراتها كتابا بعنوان حيونة الإنسان عبر الإنترنت. في أستراليا يشتري الناس السلع والكتب والأثاث وربما كل ما يمكن عبر هذه الشبكة التي يسرت الكثير من الأمور.

أعد فطوري أخيرا، أضع طبق البيض أمام الشرفة وأسخن كوبا من الحليب، ألتهم الطعام بعجلة. عادة سيئة اكتسبتها منذ وطئت جزيرة كريسماس، ربما هي ردة فعلي الخاصة إزاء الجوع الذي رافقني في الرحلة وفي بيت ماكاسر وبالتأكيد على سطح سفينة الصيد. أتجشأ وأكتشف أنني أكسب المزيد من الوزن في الأيام الأخيرة مع حفاظي على قيادة الدراجة، أبقى أتأمل الشرفة، حركة الناس في العطلة، انفتاحهم على الحياة وتمسكهم بلحظات المتعة كواجب أسبوعي بعد مهام العمل. أحاول بعدها أن أكمل المقال المتسلسل، أكتب أربع كلمات بصعوبة، ثم أفضل في إضافة المزيد، أقلب الكتاب بين يدي، أقرأ المقدمة والسطور الأولى، لكنني أغيب. تبا! عليّ أن أواجه نفسي، لأواجه نفسي، لا بد من المواجهة،

والاعتراف بأن عقلي لا يبارح بيت الدكتور، دعوة العشاء هذه صعدت الأشياء المُلقاة على أرض الذاكرة. أدري أنني سأرتبك حين أراها ولن أستطيع أن أرتدي اتزاني.

هل أعتذر؟ وأمضي في قراري بالابتعاد والإعراض عن التواصل مع هذه العائلة المضطربة أم أذهب لأعابن تطورات الموضوع.

يحين موعد وردية المطعم، أصل بذهن شارد، أرتدي زي العمل وأرمي ثيابي لرامين بعجلة، أشعر بأن لديه ما يقوله لكني لا أنتظره. بل أهول منتقلا إلى المطعم الذي يبدأ بسحب خاطري تجاه الطلبات واتصالات الزبائن.

يحين موعد انتهاء مناوبتي، فأهرع إلى رامين وأخذ منه الثياب، أفكر بالاستحمام قبل الذهاب لمنزل الدكتور لكني أشعر أن الوقت لا يتسع لهذا فأسأل رامين إن كنت أقدر على غسل وجهي في دورة المياه، يجيبني بالإيجاب، فأفتح محبس الماء على شعري ووجهي ثم أجففه كيفما اتفق وأعمد إلى ارتداء ملابسي، أودع رامين بقلق وأستقل الحافلة ثم أنعطف إلى منزل الدكتور. أضرب الجرس باضطراب فيفتح عبد اللطيف الباب، أعبّر المدخل إلى صالة الضيوف وأجد يعقوب جالسا على الصوفا الطويلة مندفعا بالحديث مع الدكتور عن أمر لم أُميّزه، يقومان للترحيب بي ثم يكملان حديثهما.

يستأذنا الدكتور ليلتفت إلي يعقوب ويقول:

«مشتاقين».

أبتسم له وأؤكد:

«إي والله الدنيا شاغلتنا».

يخبرني أنه حصل على بعثة إلى جامعة تروندهام في النرويج وسيسافر قبل بداية الفصل الدراسي القادم فأبارك له وأخبره عن بعثتي المحتملة. يعود الدكتور حاملا صينية الشاي

فيما أبحث بعيني.. عن زوجته.

تنسرب ألوان الغروب من النافذة، يحضنا يعقوب على الصلاة، أدخل لدورة المياه وأتوضأ ثم أرهف السمع جهة قلب الدار، أخجل من نفسي وأجلدها بكبت التساؤل، نعم لا بد أن ينتهي هذا الجنون، ربما وجدا طريقا لحل الأمور العالقة بينهما، ما شأني أنا على كل حال، لكن السؤال الأهم.. لماذا لجأت إلي من الأساس.

بعد أن نتم الصلاة يدعونا الدكتور للطعام، ينظر في عيني بنحو يبيث فيهما الرعب ويقول:

«الأهل اليوم يعتذرون منكم.. تفضلوا على السفارة».

أخفق مرتعشا، ثم أقبض على زيغ نظراتي وأجلس معهما حول المائدة، أحاول أن أكل غير أنني أغيب في مغارة التساؤلات، هل يعرف؟ قد يعرف؟ ماذا لو كانت هذه الدعوة كلها لخلق مواجهة ما؟ هل أخطأت؟ لماذا أشعر أنني مدان ومذنب ومجرم؟

يسألني الدكتور:

«شبعت؟».

أقطع حيرتي وأقول:

«أحس أنني تعبان اليوم.. أكرمكم الله».

يهز الدكتور رأسه باسماء، بينما أهب واقفا ويتبعني يعقوب:

«سيد.. خذني معك».

نتجه للمغاسل ونشكر الدكتور خارجين إلى الشارع الهادي، أبدأ بالتنفس. يطلب مني يعقوب أن أمشي معه للمحطة القريبة حيث سيستقل الحافلة التي توصله إلى منطقته.

أسير بقربه، ينفخ في الهواء ثم يقول:

«الدكتور في محنة».

ألتفت إليه مستفهما:

«خير؟».

يرد بأسف:

«زوجته.. لعبت برأسها محامية.. و..أستغفر الله.. رجل حقير.. يشجعها على الطلاق.. خراب بيوت».

ينزلق العرق إلى ظهري ويتخشب لساني، أشعر بطنين قوي في أذني. لكني أعر على صوتي فأسأله:

«تطلب الطلاق بلا سبب؟».

يطالعني بنظرة توقد في حرائق الشكوك، أشعر أنني مفتضح، يقول:

«الله يصلح الحال».

أودعه ليركب الحافلة وأسير في الطريق إلى البيت، أروض وحش قلقي، لا بأس، لا بأس.. سأنتقل إلى مدينة أخرى قريبا، وقد أستغل البعثة لأقص خيوط العلاقة المجنونة بهذه الأسرة المجنونة.

حين أصل، أحاول أن أستأصل كل ما له علاقة بهذه الأسرة من عقلي، أبدأ بالاسترخاء مؤكدا أن الأمر انتهى، لن تكون هنالك لقاءات ولا مواجهات ولا أي شيء آخر.

يهتز الهاتف بجيبي، أهدق في الشاشة، ما هذا، اتصال من لندن، إنه أبي.

أمشي الآن تحت المطر.

تقوم شقتي الجديدة على جدران تختنق وسط عمارة في منطقة تبعد شارعين عن مسكني السابق، أبيت فيها خمسة أشهر دون منحة الارتياح، غير أنني أبقى أنعش نفسي، أقول ستتجاوز هذا يا مجاب. تذكر أنك لا تحب البدايات، لكن الأمور ستصير أسهل بعد فترة. المكان هنا أكبر، وأجمل، لديك سرير حقيقي في غرفة نوم حقيقية، صالة، ومطبخ منفصل، نعم ليس لديك شرفة كالسابق، لكن هذا أمر هين، تستطيع الخروج والتمشية في حرية المساحات خارج الشقة وفي الشوارع التي تطل على العمارة.

يترتب هيكل العمارة كالتالي، شقتان طرفيتان كبيرتان تحشُران في الوسط شقة بغرفة واحدة تشبه حرف عطف بين جملتين. عرفت مساحة الشقة المجاورة حين دعاني جاري البحريني مهدي إلى مجلسه الذي يقام أسبوعياً، قال لي «حياك الله في حسينية القاسم بن الحسن»، كانت ليلة الجمعة وقد أنهيت الوردية بعد يوم مكتظ بالمحاضرات الدراسية، صادفته قرب المدخل والسماء تلفعت بسوادها إذ صارت الشمس تغرب مبكراً كلما اقترب الشتاء. حككت حذائي بالسجادة المخصصة قرب الباب لأتخلص من بقايا الوحل فإذا بمهدي يطل عليّ مبتسماً، تبادلنا التعارف بود يتقنه أهل البحرين، وتضاعف الود حين أخبرته باسمي وألزمي بحضور مجلسه الأسبوعي. لم نكن في موسم محرم لكن مهدي يحرص على إقامة المجالس الأسبوعية والتي يجتمع فيها بأبناء الجالية البحرينية وبعض العراقيين، وشخصين من قطر. تلك المجالس صارت تُسري عني، على أنني لا أنتظم بحضورها إلا أنني أشعر من خلالها بالانسجام مع نسيج الحضور، كلهم مغتربون من أحشائهم تندفق الحكايات والتجارب ومغامرات الهرب وكرامات النجاة التي توسم بالمعاجز الخاصة.

حين ينتهي الخطيب يبدأ الناعي أبو صبا العراقي وصلته الخاصة، يتضمخ المكان بالدموع وتتصاعد الآهات، ليستوقفني -على أنني ابن هذه البيئة وسليل أسرة توارثت الصعود على المنابر- بكاء الرجال، وارتفاع صرخاتهم دون خجل فيما أستمع أحفر أنفاقاً في صدري

ليتحرر سيل القلب، وحين ينتهي أبو صبا يبدأ مهدي بتوزيع الطعام الذي نسميه بركة والذي يتقاسم نفقاته رواد المجلس، فكل أسبوع يتكفل بالبركة أحد، على قدر السعة. كان أبو ميسم من رواد المجلس وحين يحين دوره يقدم للحضور وجبة «تهجين» التي أحسبها أذ ما يمكن أن يؤكل في مثل هذه المجالس، وهي عبارة عن طبقتين من الأرز الأبيض بالزعفران يتوسطهما الدجاج المتبل ويعلوها «الزرشك» الأحمر الذي يجمع الحموضة والحلاوة. يربي أبو ميسم الدواجن ويبيعها للجالية في متجر خاص ويصدر دواجنه للمطاعم العربية.

بعد الطعام يبقى الحضور لتلقف الحكايا والأحاديث، وما يطرأ من أخبار تشغلهم. يتحدثون عن مخبأ صدام، وعن مستقبل العراق، عن الاقتصاد الأوروبي وعن الجمره الخبيثة وما يمكن أن تجرهم إليه القوانين في أستراليا، عن مصاعب التربية والخوف الملح من ضياع الأولاد وفقدان هويتهم ولغتهم ودينهم وأخلاقهم، غير أن حديثهم الأهم هو ذاك الذي يفعل سيل مشاعرهم في مخابئ الصدر، إذ يطوف حول قصص وصولهم إلى الأوطان الطارئة وما في ثناياها من أعاجيب وكرامات. يقول أبو ميسم أن ابن عمه في بريطانيا أراد أن يجتمع بزوجته التي لم تخرج من محافظة نينوى بعد سنتين من الفراق، ولئن لم تعد بريطانيا تسمح بمنح تأشيرة السفر للقادمين من العراق فقد قرر ابن عمه أن يهزّب زوجته من خلال حدود فرنسا، عندها تنقلت الزوجة من بلد إلى بلد ومن بر إلى بحر حتى وصلت بطريقة ما إلى فرنسا وعندما أوشكت أن تعبر الحدود إلى سيارته ضبطتها الشرطة الفرنسية، وأحالتها إلى الحجز والمحاكمة، أخبره المحامي حينها أن أهون ما يمكن أن يواجهه هو أن يتم حجزه ثلاث سنوات بتهمة التهريب وسحب جنسيته البريطانية منه فيما تعود زوجته إلى وطنها الأم، يقول أبو ميسم أن ابن عمه بات في الحجز ليلة الحكم يتوسل لله بالأولياء الصالحين، ويسفح دموعه منتخيا بآل البيت وينذر لله أن يفرق على حب النبي حلوى في المسجد كل جمعة، ويقسم على أنه إذا خرج من هذه المحنة بصحة زوجته فإنه سيقوم سبعة مجالس لسيد محمد ابن الإمام علي الهادي والملقب بسبع الدجيل، يقول أنه صار يبكي وينادي:

«سيد محمد.. يا صاحب الشارة.. يا أسد الدجيل».

يدفع أبو ميسم صوته في الهواء، يُكسب كلماته لحنا مخمليا فيتأوه الجالسون، يتأوهون ويشهقون ويبكي البعض، وحين يصل إلى الجزء الأهم، ذروة قوس الحكاية، يؤكد أن مامن محاكمة حصلت، وقد سُرح الزوجان بعد سماع أقوالهما فيرفع الحاضرون أصواتهم بالصلوات العالية.

أبحث حينها، بين التصديق والتكذيب، عن أشياء غير اعتيادية حصلت معي، وأفكر لماذا لست مثلهم تجري الحكاية على قلوبهم كماء صاف لا يتعكر بالأسئلة والشك.

حكى لي أمي عن حكاية مشابهة، ذكرت أنها كانت في الرابعة، وعرفت أن أمها تخرج كل صباح من البيت سيرا إلى الجمعية القريبة في منطقة شرق في الكويت، كانت أمي حينها تضع كرسيًا أسفل قدمها لترتفع فتراها من النافذة، وتتسلى بإحصاء خطواتها إلى أن تذوب في رحاب الطريق. تلك السنة اشتد الغبار وصار لابد أن تمتنع أمها من الذهاب لذلك المشوار خوفا على رئتها الوحيدة، صار حينها الصباح مملا دون رحلة التأمل عبر النافذة. يوما ما، طلبت أمي من الخادمة أن تأخذها لشراء الحلوى، طلبت من أخيها/ خالي، من جدتها، كلهم سوفوها لوقت لاحق لم يأت، فقررت أمرا!

فتحت باب بيت حصالتها الصغيرة، وانتعلت حذاءها اللامع، وتسلفت إلى الطريق الذي تسلكه أمها، حتى صار البيت خلفها تماما. قالت إنها سارت ولم تر الجمعية، وبدأت تفقد طريق العودة حتى تمرّدت الشمس أعلى رأسها، فوقفت في مكانها في ذلك النهار الجهم، تحجم عنها السيارات، وتتلصص عليها القطط الشاردة، فتصاعد طعم ملح غريب في فمها، وبدأت تغميم الصور.

حين ذاك انعطفت جهتها سيارة ما، لا تذكر إلى اليوم وجه السائق ولا لحن صوته، فقط تتذكر أنها ركبت في المقعد الخلفي، وتشاغلت بالنظر إلى سجادة حمراء كانت تنام تحت رجليها، تؤكد أنها لما رفعت رأسها، كانت تقف عند باب منزلها تماما. لم تسأله كيف استدل

إلى العنوان واهتدى إلى عتبة الباب ولم تسأل نفسها كيف انطوى الوقت. تقول أمي إنها حين عادت إلى البيت عرفت من أخيها انشغال الجميع بالبحث عنها، وقد كانت الجدة تنادي:

«يا صاحب الزمان.. أرجع بنتنا بخير وعافية».

يتداول الحضور قصصاً أكبر وأعمق، ثم يتحدثون عن أعمالهم. يعمل مهدي جراحاً مقيماً في مستشفى ملبورن الملكي ويتقاضى أجراً يفسر امتلاكه لهذه الشقة.

حين دخلت الشقة لأول مرة، ضيفني انشراح المكان واتساعه ورائحة خالصة ملتصقة في الذاكرة تبقى تبت انتعاشها، دعوت رامين مرة، ثم فكرت أن أدعو يعقوب لكني تراجعته خوفاً من الأبواب المشرعة بيننا والتي أحاول إغلاقها منذ انتقلت إلى مسكني الجديد. لم أتواصل مع يعقوب بعد لقائنا الأخير في بيت الدكتور، ولم ألتق بالدكتور أو أسمع عنه أو عن أسرته شيئاً، حتى في أروقة الجامعة إذ لم تحشرنا صدفة ما.

أستمر بالمشي الآن، المظلة تحرس رأسي بينما تتقاذف أفكارني، أقطع الشارع ذهاباً وإياباً، اليوم عطلة والسماء ثرثرة، والاختبارات ستبدأ بعد أسبوعين لأتخذ قراراً حول بعثتي إلى لندن. يفترض أن أنهي هذا الفصل بعد شهر ثم أستعد للانتقال إلى جامعة بون ديكسون في لندن، حيث تبدأ الدراسة هناك بعد ثلاثة أشهر بالضبط، ياه.. مواعيد ومواعيد، خطط وأفكار ولا قرار. أود الاستفادة من البعثة لكنني أتحفظ على المكان، ستراند في لندن قرب المدينة التي يقيم بها أبي، أبي الغريب.

أوصد عن أبي منافذ الروح، رغم أنه يحافظ على موعد مكالمتنا الأسبوعية، يوم السبت في العاشرة مساءً من كل أسبوع، يسألني عن أحوالي وتطور قضايا اللجوء والمواطنة، أخبره أنني حصلت على الإقامة الدائمة فيحرضني على المزيد، يسألني عن احتياجاتي المادية فأخبره أن أموري بخير، يطلب مني التواصل مع أخي أيوب الذي أكمل الثالثة عشر وأختي آيات التي تصغره بعام، فأحدثهما عبر الماسنجر أحياناً، يسألني عن وحدتي ويؤكد

أن لدي خيارات عديدة للارتباط بنات معارفه الساكنات في لندن وضواحيها، بنات الأسر  
البدون بنات المغتربات التي اندست حكايا التعب في جلودهن فأكسبتهن مناعة ضد  
الخطوب وسيرضين بعيشتي المتعبة، أو العراقيات أو اللبنانيات. يقول لي:

«مكانك بيننا..».

حين أصمت، يحتدّ صوته ويسألني:

«نيتك ترجع للكويت بعد كل هذا؟».

لا أجيبه إلا بـ:

«خير إن شاء الله».

وأنا.. هل أنوي العودة؟ هل أنوي السفر إلى لندن؟ أكره البدايات، فهل أبقى هنا في أستراليا  
قائما بالتخصص وساعيا إلى الاكتفاء.

يشتد المطر الآن، أفكر في الرجوع إلى الشقة وأخذ حمام ساخن يطرد البرد عن جلدي،  
أفكر في حليب ساخن بالشوكولاتة، لا بأس، المكان دائما يفرض أنماطا للمعيشة، أوقن أن  
المكان يشكّلنا، أصير من حيث لا أدري أشابه سكان ملبورن، وأتشكل مع قوالب حيواتهم،  
قهوة في الصباح، وفطائر محلاة، وغداء سريع بين المحاضرات الدراسية وكوب حليب في  
أول المساء. أتذكر أن بودرة الشوكولاتة نفدت منذ يومين، أوازن بين الرجوع إلى الشقة أو  
الدخول إلى المتجر مُبتلا.

أخيرا، ألتفت إلى متجر لم أدخله قبلا، متجر فخم أتجنبه فيما أحرص على شراء  
احتياجاتي من سوق الشويري العربي، أنظف حذائي وأغلق مظلتي، أدخل إلى المتجر  
الكبير مأخوذا بالسلع وباحثا عن بودرة الشوكولاتة من علامة نسكويك، أبحث في الممرات  
وبين الرفوف لأجدها أخيرا في قسم الحلويات، أتجه إلى المحصل السريع، ثم أفكر أن أنقد

المبلغ بواسطة جهاز المحاسبة الذاتي، لكنني أتراجع حين أرى الزحام عليه وأبقى في طابور المشتريات السريعة، ينتهي الرجل في أول الطابور، ثم تلحقه السيدة المسنة، ويحين دوري أخيراً، أضع العلبة الصفراء على الشريط الدوّار ثم أفتح المحفظة وأخرج الورقة النقدية لأسلمها لليد الصغيرة الممتدة من خلف جهاز المحاسبة، وحين يظهر الوجه المتوارى خلفه، أعرف أنني أمامها هي.. مريم.. أم جميل.

أسحب لساني الملتصق في جوف فمي، وأرمي «شكرا»، باردة وباهتة، حائرة ومرتبكة، فتبادلني بصمت ونظرة متجهة إلى شيء يشبه الفراغ.

حين أخرج من المتجر أقف ساهما، أبقى أطالع في واجهته، ثم أكتشف أنني لم أفتح المظلة وقد غمرني البلل.

...

يأكل السهر ليلتي، أقوم للمرة الثالثة من الصوفا وألقي عليّ المعطف المطري ثم أهرب من الباب إلى عراء السماء، تدق رأسي أزاميل الأفكار، تنحت فيه كيانا واحداً، وجهاً حُلُمياً، وجه مريم. في المرة الرابعة، تجف عيون السحب، وتبقى غيمة عقلي غيداقة، يحين الوقت لأتخذ الخطوة وأصدّق بوح البوصلة، ذلك السر الكبير الذي يللمم بعثرة خيوط الشعور وتشعثها، يدفعني الشيء الهادر في القلب للتصديق، للأمل، للسير جهة الظل المتشكل على جدار الفكرة.

حين يأتي الصباح لا يدع لي مجالاً للشك، يفتح مصباحاً على أوراق الليل فتتضح الصورة، تأتي كاملة، وأتي أمام مرايا الذات واضحاً وصريحاً، صادقاً معي ومع بوح رغبتني، مقدماً على الخطوة الأولى كشريد يبحث عن وطن صغير يللمم عمره، ومريم هي الوطن.

عرفت أنها انفصلت عن الدكتور قبل خمسة أشهر في مكتب المحامية التي سوّت الأمور بينهما بالاتفاق، لم تقدّم مريم الأدلة على العنف البدني مقابل أن يمنحها الطلاق. خرج

الدكتور من البيت لتبقى فيه مع ولديها، وصارت تعمل في المتجر لتغطي تكاليف المعيشة.

أسعى إلى مهدي، أطلب منه أن يوسّط بيننا زوجته، فتوافق مبتهجة بثواب من يجمع رأسين بالحلال، لكنها بعد ذلك تمرر لي عبر زوجها استغرابها من فارق السن، لا أعبأ ولا أكثرث، ولا تززعني الأسئلة الصامتة في أعين من حولي، أبقى فقط أنتظر ردها هي وأصبح في لذة الأمل.

في نهاية الأسبوع الثاني من الانتظار أجد الدكتور ويعقوب قرب مدخل باب العمارة، السماء تبرق وحادئي ملوث بالطين. نقف إزاء بعضنا متوثبين، يقول لي الدكتور:

«فتحت لك بيتي وأكلت من زادي وطعننتي في ظهري».

ألتفت إلى يعقوب الذي ينظر لي بألم:

«ما توقعتها منك يا سيد.. حسافة والله».

أدافع عن نفسي:

«تم الطلاق.. ما تدخلت أبدا».

يكز الدكتور على أسنانه:

«المفروض تصلح.. لكنك تستغل مشكلتنا لصالحك.. هذي خسة».

أحدق في عينيه:

«و ضرب الزوجة وإهانتها.. كرامة؟ الخسيس بيننا يعرف نفسه».

يسألني بصوت عال:

«سألتنني؟ سمعت مني؟ نصحتني حتى؟ غايتك وسخة.. تتزوجها وتطلب الجنسية الأسترالية عن طريقها.. صح؟».

أتخطاهما إلى مدخل العمارة دون إجابة وألجأ إلى سكون الشقة، أغلق الباب شاكرا الجدران البكماء التي لم تفتح أعينها بنافذة على الشارع.

في صباح اليوم الموالي يبلغني مهدي اعتذار زوجته عن الوساطة، ولا يؤكد عليّ حضور مجلس الأسبوع. يصد عني أبو ميسم نافرا فيما يطلب أبو صبا لقاء خاصا لينصحنني. أصير أرى ذاتي بأعينهم مهما تعاميت، أدرك سطوة الجماعة أخيرا وأدرك الشعور بالنبذ. ما الفرق؟ في الكويت كنت البدون إزاء الكويتيين، والنصف كويتي إزاء البدون، وكنت الطافي في البرزخ الهلامي بين الفئتين، وهنا في أستراليا أنا السوسة التي تنخر أمن البيوت والسارق الذي يؤلب الزوجات على أزواجهن ويرشدهن إلى مكاتب المحامين.

في نهاية الفصل الدراسي، أنهى اختباراتي بتقدير ممتاز وأوافق على البعثة إلى لندن، أؤكد لنفسي، هذا هروب ثان، يتم تحديد ميعاد السفر، فأنسج حولي خيوط العزلة، لا أبرح شقتي إلا للضرورة القصوى، أمضي يومي بطوله بصحبة الإنترنت، فيتورم في قلبي الفراغ.

في صبيحة يوم السفر، أهيب حقيبتني وحقيبة ظهري، أضع في قلبها وثائق السفر وجواز العبور، المال الذي جمعته وقمت بتبديل عملته أمس، مشطا صغيرا وعطرا مخففا، علقة وكتابا لم أكمله. أكتشف شقا في الحقيبة، فأقرر أن أقصد سوق العتائق لشراء أخرى لكنني أقرر أن أذهب لشارع «بورك» حيث الأسواق التذكارية ومحلات لبيع السلع كي أحظى بحقيبة أفضل. أطلب سيارة أجرة وأتفقد ساعتني لأطمئن إلى تحكمني في الوقت، أصل أخيرا، أبدأ بتفقد الأسواق، وأعثر على حقيبة ظهر بسعر مناسب ومواصفات جيدة، أنقد البائع الثمن ثم أثبتها على ظهري وأخرج من المحل، ويا للصدفة! العائلة السعيدة أمامي تماما، الدكتور وزوجته وابناهما.

أتنحى جانباً، مخذولاً، فيما يقترب جميل مني وهو يخلع النظارة الشمسية من عينيه،  
يواجهني لأكتشف أن ذقنه نبت بالشعر الكثيف وأن عينيه ضاقتا أكثر من ذي قبل، وأن  
السماء صارت بلون النحاس المصهور الذي أشعر أنه يُسكب على رأسي. يقول لي بلغة  
إنجليزية ولهجة أسترالية ممتازة:

«ابتعد عن أمي وإلا حطمت وجهك».

لم يكن هذا جيمي ابن الدكتور وزوجته.. كان أنا.. وكنث.. زوج أمي.

# الحكاية الثانية

أعلّق القلب على مسمارين

وأعد للعشرة

لأعرف أيهما وطني!

دخيل الخليفة

## مذكرات خاصة جداً

### الدفتر الثالث:

الكويت

٥ يناير ٢٠٠٧

الساعة العاشر صباحاً

اليوم هو يوم زفافي.

استيقظت في الساعة والربع، وجدت من عيسى رسالة نصية، جميلة ومهذبة، يقول لي فيها: صباح الخير يا عروسي، اضطربت معدتي، وشعرت أنني أمشي على جبل الفرح المتأرجح، تعلق بي قوة الفرح وتهبط بي احتمالات المغامرة.

تركت الهاتف على المنضدة قرب رأسي وأفقت، رحت أتأمل ثوب الزفاف النائم على الصوفا الكبيرة، ومجازا سأطلق عليه ثوب زفاف، فما سيحصل هذه الليلة لن يكون زفافا بالمعنى الحقيقي، بل هو مجرد انتقال من غرفتي في منزل الجابرية إلى غرفتي في منزل عائلة عيسى في ضاحية صباح السالم، وسيصاحب الانتقال عشاء بسيط قامت بتجهيزه والدتي للأسرتين دون أي ضيوف من خارج الدائرة القريبة، بالطبع كان من الممكن أن يكون الأمر مختلفا، مبهجا وأكثر فخامة، لو كنت قد تخليت عن عنادي، ورضيت أن يتكلف أبو حسين بالمصروفات والمبالغ المقررة لزفاف معتبر، غير أنني ولما أوضحت عائلة عيسى أنها لن تتكفل باحتفال ولن تفضل حدوثه، اكتفيت بهذا القدر البسيط.

تخاف أم عيسى من الحسد والعين، بل تمنع في مخاوفها، تؤكد أنها لا تود أن يخسر عيسى زواجه الثالث، وتقول باسمه بعد ذلك وهي تنظر في عيني محاولة سكب أكبر قدر من الطمأنينة:

«الثالثة ثابتة».

الثالثة ثابتة، ربما.

أتأرجح غالبا بين فكرة الثابت والمتغير، ولأنني الفتاة بدون الدائمة الشعور بأنها في الظل المهمل وأنها في حرب دائمة بين المحظورات والممكنات فإني أرجئ الحكم على مقولة أم عيسى وأكتفي بعيش لحظة الانتقال وتفاصيلها، ورغم هذا.. في عمق عمقي، وحين أكون في مواجهة ناصعة أمام نفسي ودون أية شوائب -كما حالي الآن وأنا أكتب هذه الورقة في دفترتي الثالث- أدرك أنني رغم كل الظروف أتشبث بفكرة الانتصار، أو فكرة النهاية السعيدة، فهل زواجي من عيسى الكويتي يشكّل نهايتي السعيدة، أو ينهي قصتي الحزينة لتبدأ قصتي السعيدة؟

اليوم وقبل أن يستيقظ أحد، هبطت إلى الطابق السفلي، أرى البيت يسبح في سكونه، لم تستيقظ العاملات بعد، جلست على الكنب الطويلة أتأمل المكان الذي أستعد لفراقه،

سنوات انقضت لم تحقق الألفة بيننا، بقيت أنظر إلى هذا البيت نظرة المكان الطارئ وأنظر  
لنفسى فىه نظرة الدخيلة، اليوم وحينما هدأت نفسى أو هذا ما أظنه أستطيع القول أنى  
سأحن إليه. تبقى للأماكن سطوتها فى الذاكرة.

كنت قد أتممت الحادية عشر حينما سكنت فى هذا البيت، وبعد غرفتنا البسيطة فى بيت  
جدي لأمى يُعد جناحي الخاص فى أعلى بيت الجابرية والمؤثث بنحو معتنى فىه هبة  
حقيقية، غير أن زواج أمى لم يزل يحقننى بالغضب بنحو قبح هذا المكان فى عيني ولم  
يكشف لى الأستار عن جماله، وقتها اعتصمت ببيت جدي وظننت أنى بهذه الفعلة أشكل  
ضغطا على أمى وأعاقبها أحملها على الرجوع عن قرارها، لكنى فى النهاية رضخت وحملت  
ما تبقى من حاجياتى بعد أيام ثلاثة من زواجها وانتقالها وذهبت للمكوث معها وزوجها،  
ولئن بقيت طيلة ستة عشر عاما أحلم بلحظة الفكك من هذا البيت المعضلة فإنى اليوم  
وحين شرع الباب صرت أخاف وأتوجس من الآتى، لكنى آمل وأحلم عبر مشاعرى  
المختلطة بالأمن فى النهاية.

اليوم تفحصت الطاولات التى أعدت للمناسبة، غطتها أمى بالمفارش الفاخرة المزينة  
بالدانتيل، ورتبت فوقها سخانات الطعام فاغرة الأفواه، شعرت بجمال الاحتفاء ومسنى  
خجل ما، فمهما باعدت بين الأهل الظروف والاختيارات فإن مناسبات كهذه تقربهم، هذا ما  
ألمسه، وأشعره، وأتمناه، لعل زواجى يعود بمياه قلبى الراكدة ويلطف شراستى ويمكننى  
من الصفح عما أعتقدها «أخطاء أمى»، ويمكننى من المغفرة لأبى ومجاب ومن يدري لعلى  
أفتح شبابيك القلب لزواج أمى أيضا؟

عندما تعالت أصوات من المطبخ، عرفت أن عاملة قد استيقظت وبدأت تعد الفطور  
اليومى، تنهى لسمعى صوت الأطباق ورنين الملاعق، صوت هسيس الماء المغلى وآلة  
العصير، باب الثلاجة الذى يُقفل ويفتح ويفتح أبواب أسئلتى عن ملامح حياتى المقبلة، عن  
طبيعة السكن ونمط الحياة، هل سيطلب منى عيسى أن أطهو مثلا؟ وهل من ترتيبات  
يحرص عليها فى حياته اليومية. بالنظر لكونه عاش تجربة الزواج لمرتين فإنى أرجح أن

لديه طباعا حادة، لكن أمه تؤكد أنه أطيب أولادها. حين خُطبت قبل أربعة أشهر، أقبلت خالتي شيماء ببياناته، أوضحت أن اسمه عيسى، يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاما، يعيش في منزل والديه بعد زيجتين صمدت أطولهما لثلاث سنوات، يعمل في وظيفة حكومية بسيطة ويتقاضى راتبا بسيطا فيما يوفر له والداه دخلا آخر يتجمع من أرباح محل خياطة يمتلكانه، ومزرعة في منطقة العبدلي. لديه إخوة وأخوات، تسكنه في البيت أسرتا أخويه حيث خصص لكل منهما طابق مستقل في بيت العائلة الكبير، مليح الوجه، يميل للاسمرار، حنون وطيب ويتصرف وفق نواياه النقية.

لم أكن مقتنعة بما قيل، لكن أمورا كثيرة كانت تدفعني للمحاولة وفتح باب لقاء التعارف الأولي، فالفتاة البدون التي أكملت السابعة والعشرين دون أن يطرق بابها خاطب واحد، الفتاة البدون في أسرة الكويتيين لا بد لها من خفض سقف التوقعات والتحلي بقناعة فضفاضة، الفتاة البدون التي تخرجت من الثانوية بمعدل ممتاز فيما تغلق الجامعات أبوابا في وجهها لتبقى طيلة السنوات التسع رهينة الفراغ الكبير.. وترى الأخريات حولها يزدهرن ويتقدمن على عدة صُعد.. أسرية وفكرية ودراسية.. الفتاة هذه لا بد أن تقبل بالخاطب الكويتي وتشكر الفرصة.

حين زارنا في البيت للمرة الأولى برفقة والدته وأخته الكبرى، دخل صامتا دون أن ينظر إلي، قامت أمي بتضييفهم شراب الليمون بالنعناع وماء الورد، ثم قدمت الفطائر وأصابع الحلويات العربية الغارقة بالقطر، بعدها طلبت من أمه وأخته مرافقتها للصالة الجانبية حتى نتحدث بخصوصية- بقي صامتا ينظر إلى الأرض وأنظر إلى حذائه، بعد برهة من السكون نسيت فيها هدف اللقاء وأخذني هواء التكييف الموجه مباشرة لوجهي إلى مكان بعيد. ثم نطق، قال كلاما كثيرا مصفوفا ومرتبنا ذكّرني بأحاديث الندوات الثقافية، لكنه ينم عن ذكاء مُحدّثي وغزارة قراءاته.

تقول أمي أن اللقاء الأول هو ما يمهد للقبول أو الرفض، تلاقي الأرواح أو نفورها، غير أنني لم أنفر من عيسى ولم أقبله، كنت أشعر أنني أقوم بلقاء صحفي أو تلفازي لا يتعلق بي، إذ

يتحدث عن مواصفات الزوجة التي يريدها ويلمّح بصورة مواربة عن أخطاء ومساوئ زوجتيه السابقتين.

حالما انتهى من حديثه حل جدار من صمت بيننا، وكان جزء مني قد ركض بعيدا عن المكان وصار يشاهدنا من عل، جزء يتأملني وأنا صامتة، مطواعة، مختلفة عما أكونه من حدية الطبع في أوقاتي العادية، لم يفارقني غضبي، بل على الأرجح كنت أحتفظ به في مكان ما من روحي ذلك أني أدرك حقيقة الأمر التي أعجز عن تسميتها، لأقل حقيقة التنازلات التي تقدمها الفتاة بدون ذات السابعة والعشرين لتتزوج من رجل يكبرها بعقد وتعثر بزواجه مرتين. ولا أدري هل تنبه عيسى لشرودي أم لا، لأنه هب واقفا بعد حديثه مما دعا أمه وأخته للاستعداد للرحيل، وتقديم أطف كلمات الوداع والوعد بالتواصل القريب.

بعد يومين طلب عيسى مقابلة ثانية، وحينها كنت قد أجمعت أمري على القبول، لماذا يا ترى؟ هذه هي الحقيقة التي لن يطلع عليها أحد. لماذا قبلت يا خولة؟ لأن ابنة خالتك ذات الثامنة عشر قد خُطبت وحدد موعد زفافها وصار القلق ينهشك وتعصر السوداوية معجونها في عقلك وشعرت أنك تشيخين في الفراغ.

ياه ما أفضح هشاشتي! لم أظهر السبب أمام الجميع، لكني هنا، في مذكرتي الشخصية، لابد لي من أن أحرك صخرة الكتمان التي تسد كهف البوح في صدري، لابد لي من الإقرار أنني أتخذ خطوات خارجة عن قناعاتي فقط لأحمي نفسي من كلمات الآخرين وهمساتهم ونظراتهم التي لا أملك إلا أن أوولها وأفسرها، فأنا بكل صراحة لن أحتمل تلك المكانة التي وضعتني بها نساء العائلة.

في زيارتنا العائلية لبيت جدي، وحالما تجتمع أمي بخالتي وزوجات أخوالي، تقوم خالتي الصغرى «شيماء» بسرد حكاياها التي تدور حول التوفيق بين الرؤوس بالحلال. خالتي شيماء معلمة تُدرّس الأحياء لطالبات المرحلة الثانوية، ولديها عدة أنشطة اجتماعية تطوعية، تسافر برفقة زوجها عبر حملة يملكها للحج والعمرة والزيارة، وتقيم في محرم

مجلسا خاصا للنساء، ويكاد هاتفها لا يسكن لكثرة الاتصالات والمجاملات، تفترش وجهها ضحكة كبيرة حين تؤكد أنها تعرف ثلاثة أرباع الناس في الكويت. تسألها الأمهات الراغبات بتزويج أبنائهن وتطلب إليها أمهات الفتيات أن تسعى لسترهن. تنشط في ذلك بدورها، وتزوج كل فتيات العائلة اللاتي تفتحت ورودهن بينما لم تلتف إليّ يوما. أو ربما كنت في آخر القائمة.

أعلم.. إنه وضعي.

لن يقبل الكويتي بالزواج مني ليُمنع الآلاف التي تمنحها إياه الحكومة في حال زواجه من كويتية، فلماذا المجازفة؟ ولماذا تقترحني خالتي شيماء-التي لا ألومها أبدا بالمناسبة- على أي من الأمهات الحالما بأعراس أبنائهن. الحاصل أنها فعلت ذلك بالنهاية وتوسطت لعائلة عيسى، وقبلت به، وها أنا عروس اليوم.

أردت بصدق أن أمنحني فرصة أخرى عبر هذا الزواج، بعد كآبة تسع سنوات، من اللا شيء، من الفراغ، من العزلة، من التواصل المحتقن بيني وبين من حولي، لذا قمت أمس بالذهاب إلى مكتبة جمعية الجابرية التعاونية، واشترت دفترا جميل الغلاف ذا زهور بارزة وزاهية لبداية عهد جديد من الكتابة عن الذات ومحو الماضي، لم أتخلص من دفترتي السابقين لكنني وعدت نفسي ألا أقرأ ما دُونَ فيهما من غضبي المكبوت وسخطي العارم، أخذتهما وخبأتهما أسفل سريري في غرفة بيت الجابرية، بالقرب من صور مجاب وأبي، وأجمعت أمري على إتلافهما في حين صرت مستعدة لذلك. سيكون هذا الدفتر رفيقي الخالي من العقد، المتحرر من وجع الماضي، رفيقي الآمل، وولادتي الجديدة.

هذا ما أرجوه.

الكويت

٢٢ يناير ٢٠٠٧

## الثالثة ليلا

يا إلهي.. ماذا فعلت بنفسي؟

هل يمكن أن تعود الأمور لسابق عهدها؟ لا يمكن.

أين أنا ومع من؟ من هؤلاء الذين يحيطون بي ويستبدلون الوجوه التي كانت تؤثت حياتي؟

اليوم اتهمني عيسى بطول اللسان. «يا ملسونة» قالها أمام أمه وأختيه الصغيرتين، وأخيه وزوجته، وأبيه أيضا، صمت الجميع بعدها، ولم يُسمع إلا صوت إبريق الشاي الذي يصفر بتقطع وسط الطاولة في الصالة الكبيرة. طفح قلبي بالألم، وغضبت لذلك، ولما أكاد أصيره، وعجبت من صمتي واستكانتي والروح التي أستعيرها، وصار مرة أخرى ذلك الجزء مني يهرول بعيدا ويتفرج عليّ من عل ويهمس بأذني قائلا: كم تغيرت يا خولة.

لماذا قالها بصوت مرتفع؟ كان يمكن أن يحدثني في غرفتنا بعيدين عن صخب العائلة، لم تكن المرة الأولى التي ينتقص فيها مني على مدار أيام زواجنا، وكم ألمني ذلك وآلمني أن أخنع له ولا أتمكن من مجابته، وآلمني اليوم أكثر أنه يتناول عليّ أمام الجميع. كنت سألته في الصباح أن يوصلني إلى بيت والدتي، فأجابني بالإيجاب، أكد أننا سنخرج قبل الواحدة ظهرا، ارتديت ثيابي وتهيأت لذلك، وصرت أنتظره أن يُنهي فيلم الأنمي الذي يتابعه، مرت الساعات، وحان موعد الغداء، وتجمّلت بأكبر قدر من الصبر حين طلب مني أن نجلس مع العائلة حول المائدة، وحل العصر، ثم المغرب، وفرش المساء عتمته وامتلات الصالة خلف باب غرفتي مرة أخرى بالضجيج وصوت السكان بعد نومة العصر وصلاة العشاء، فسألته متى ستوصلني، ومررت له ضيقي عبر جملة «ضاع اليوم» ففتح باب الغرفة ليخرج غاضبا، وصار يصرخ أمام الباب المفتوح وفي حضرة الجميع ويتهمني بطول اللسان. أغلقت باب الغرفة عليّ، فإذا به يفتحه هادرا، وهو يندد بفعلي ويحذرنني من أن أقفل الباب بوجهه مرة أخرى، تدخّلت أمه حينها، وطلبت منه بلطف شديد ألا يرهق نفسه

ولا يتعب أعصابه! وسألته دون صوت حينها عبر سؤال يخفق في بئر ذاتي: ماذا عني؟ ثم نظرت إلي نظرة لائمة وأغلقت علي الباب وقالت «الله يهديكم».

لم أكن أتخيّل أبداً أن تلك القصص التي تدور بين النساء عن العلاقة المرتبكة بين الكنة والخالة مفاجئة بهذه الصورة، تلك اللحظة وحالما أغلقت علي أم عيسى الباب رأيتها بصورة شيطانة خبيثة، تداري ولدها وتدللّه وتمعن في الاستهانة بمشاعري وراحتي.

سألت نفسي وأسألها الآن مرة أخرى: ماذا أفعل أنا هنا؟ هل يمكن أن يكون هذا هو الزواج الذي تحلم به الفتيات؟ بالطبع لم تكن أحلامي وردية، ولا مبالغة في الشعاعية، لكن لا أظن أن الحياة يجب أن تكون بهذه الفظاعة، الكلمات والحركات والهمسات محسوبة عبر مسطرة خاصة في جعبة عيسى الذي أبدأ الآن باكتشاف سبب طلاقه وسبب رسوبه المتكرر. أعرف أنه مزاجي، يعيش حياته ضمن نطاق المتع الآنية، بلا أي التزامات، لا عمل مُلِح، ولا مهام أسرية، يقوم والداه بتوفير كل ما يحتاجه بينما يقضي يومه في مشاهدة أفلام الأنمي أو اللعب بجهاز السوني أو قراءة الكتب والروايات ومشاهدة الأفلام وتحليلها. هل هو مضطرب؟ هل هو مجنون؟ أفعاله غريبة لا أستطيع تصنيفها.

بالأمس كان رائق البال، ذهبنا للتمشية ليلا على رمل شاطئ سوق شرق، كان الجو منعشا يفتح مسام الروح، اشترى لي القهوة، ثم طلبت منه أن نتسوق في مركز سلطان كي أعبئ رصيد هاتفي الذي نفذ منذ يومين، كنت أود الحديث مع أمي، فاقترح علي أن أستخدم هاتف المنزل العمومي، أخبرته حينها أنني أستحي أن أخرج من غرفتي إلى الصالة لإجراء مكالمة يستمع إليها الجميع، فتغيّر وجهه، ونظر في وجهي مضيّقا عينيه وقال لي: صيري آدمية.. أكره تلميحاتك.

لم أفهم حينها أية تلميحات يقصد، وقبل أن أتفوه بكلمة، أمرني أن نعود إلى السيارة، صار يقودها بسرعة أجفلتني، حتى وصلنا إلى البيت في صباح السالم، أطفأ محرك السيارة وهو يطيل النظر إلى المقود فتسلقني الرعب، ودهكت عقلي الظنون، أسأل نفسي ماذا سيفعل

الآن بعد هذا الهدوء المرير أمام مقود السيارة؟ بدأت أبتلع ريقى جاهلة بما يتوجب عليّ فعله، هل أنزل من السيارة؟ هل أحدثه؟ هل أعتذر منه.. لكن على ماذا؟

كنت أتفتت من الغيظ والخوف والإحساس بالضعفة، لكنني ولا أدري كيف أتبدل فضّلت أن تمرق الأمور بسلام، وأن أجنح للود، وأن أكون زوجة صالحة تمتص غضب زوجها وتداري غضبه، حاولت سؤاله عن غضبه، فصرخ في وجهي لأنزل وهو يؤكد أنه يكره تحامق النساء وخبثهن.

أنا خبيثة، لئيمة، متحامقة، يحاول أن يقنعني بتلك الصفات لأصدق أنها تُشكلني، ارتميت على وسادتي أبكي كحمقاء، وأغضب لضعفي، وأفكر بالخطوة التي سوف أتخذها، لكنه دخل الغرفة مبتسما، وملاطفا، ففكرت أنه سيعتذر، غير أنه لم يفعل، إنما اكتفى بأن يمنحني مزاجا طيبا.

سئمت من مزاجيته.

الساعة الثالثة ليلا ولا أدري أين هو، ولا أعرف شيئا مذ أغلقت أمه بابي هذا المساء. لم يدعني أحد للعشاء فيما أتضور جوعا، ولا أملك رصيذا كي أكلم أمي. لا شيء أفعله سوى التفكير، واتخاذ قرارات متضاربة، أتخيل أنني أرى أبي أمامي وأحكي له وضعي، وأتساءل إن عرف مجاب ما يجري معي كيف سيتصرف، وحين ذاك.. أبكي كثيرا.

حين خُطبت، أوضحت أم عيسى أنني سأسكن غرفة في بيت العائلة ذي الطوابق الثلاث والسرداب الأرضي، يومها طلبت أمي أن يتم توفير ثلاثة خاصة لي في الغرفة، وعين غاز صغيرة وقابلت أم عيسى طلب أمي بالترحاب، ووعدت بتنفيذه، لكنها إلى اليوم تتلكأ في ذلك وتسوفني مؤكدة أن البيت كله بيتي، والمطبخ والثلاجة والأفران كلها طوع أمري، أشكر لها ذلك لكنني أود الإحساس بخصوصيتي، وأن أنفذ من إحراج الجوع في مثل هذه الورطة التي أمتحن بها الآن. فكّرت مرارا أن أخرج من الغرفة، لما هدا البيت وأطفئت الأضواء، لكنني أخاف أن أصادف أحدا فيتسلقني الحرج.

بكل صدق أخاف أن أصادفه.

بكل صدق أنا أخافه.

كيف صرت جبانة يا خولة؟

الكويت

٢٢ فبراير ٢٠٠٧

الساعة العاشرة مساء

ذهبت اليوم لزيارة أمي في بيتها في الجابرية، كنت محتقنة بغضبي أنتظر أن أراها لأهدر حكاياي الخبيثة في صدري، فتحت العاملة الباب تسلّم عليّ بترحاب، أحسست تجاهها بود كبير كأنها جزء من ماض أليف يغطيني بطمأنينة قديمة. تدافع إخوتي لتحيتي فيما بقيت أمي على الكنبة الكبيرة تشير إلي أن أتقدم وهي مكسورة خاطر، ترتعش شفتها السفلى. هجمت عليّ مخالب الرعب وأنا أسألها عما حدث، فأخبرتني أنها تلقت مكالمة من صديق لمجاب، يطلعها على حالته الصحية بعد أن أجرى عملية الزائدة الدودية. كانت تبكي وهي تردد «ولدي وحيد في أستراليا، ليته بقي في لندن». أعدت أنفاسي إلى صدري لأتذكر أن أمي جزوعة بطبعها، حسنا لا بأس، عاد مجاب إلى أستراليا واستقر في سيدني ونال الجنسية الأسترالية أخيرا وتخرج من الجامعة وأجرى عملية الزائدة الدودية وهو الآن بخير، ينام فقط بعد العملية، لكن ماذا عني؟ أنا التي أسحق عبر طاحونة الوجد اليومي في بيت أهل عيسى في صباح السالم.

أخذت أواسيها، أسري عنها وأؤكد لها أن الأمور ستكون بخير، كانت ترفع يديها للدعاء وتردد «يا رب.. يا رب تمر على خير» ثم أخذت سماعة الهاتف البيتي مرة أخرى وطلبت من خالتي أن تحدث زوجها المتطوع في مبرة خيرية، أوصتها أن يقوم زوجها بذبح كبش وتوزيع لحمه على الفقراء دفعا للبلاء الذي يمكن أن ينال من مجاب، لا أدري لماذا رأيت في

كلامها عيني الكبش والتماعهما ثم ومض في رأسي التماع السكين فتحسست عنقي بنحو لا إرادي. أطلعتني على نيتها بقضاء الصيف في أستراليا هذا العام، فأخبرتها مداعبة أن صيفهم شتاء وبرد غير أنها لم تضحك.

يضايقني أنه لا يسأل عن أحوالي، وشعرت بشيء لا أعرف أن أسميه حين رأوه في مشهد قبل عدة أعوام. أحيانا أفكر هل أشغل من ذاكرة مجاب حيزا؟ لا أدري.

أمرتني أمي:

«حاولي تسألين عنه».

أومأت برأسي، ثم حان وقت الغداء ورأيت زوج أمي يخرج من غرفة الديوانية مرحبا وهاشا وباشا ولا أدري لماذا شعرت بالغرابة وبأنفاسي تسقط أسفل قدمي، فلا أنا قادرة على مجاراته بالترحيب، ولا أنا قادرة على التفكير في إعادة الأمور لما كانت عليه، ولا أنا قادرة على المضي في حياتي ولا أنا قادرة على فهم ما أريد، لكنني قررت أن أحادث أمي في أحوال عيسى بعد الفراغ من وجبة الغداء. ولما كنتُ جائعة ونهمة إلى طهو أمي أو لأقل طهو الخادمت في بيت أمي، فإني أكلت كثيرا حتى شعرت بالتخمة فيما كان أبو حسين يحرضني على أكل المزيد ويمرر لأمي أنه يراني قد نحفت، لقد لاحظ أبو حسين ما لم تلاحظه أمي وهي في غمرة انشغالها بأحوال مجاب.

انتهت الوجبة أخيرا، وحملت أطباق المائدة، وشربت أمي الشاي مع زوجها الذي انسحب إلى غرفته، وانشغل أخوأي بالألعاب الفيديو، وألحت عليّ سارة أن أصنع لها ضفيرة في شعرها الناعم، ولما ساد الهدوء بدأت أمرر لأمي جزءا بسيطا من أحوالي، أخبرتها أنني لا أعرف كيف أتعامل مع عيسى، وأنه يحاسبني على كل كلمة، وأنه يقضي يومه باللعب والمتع. أخبرتها كيف يحاول أبواه معالجة كل أخطائه دون أن يحمله أية مسؤولية يمكن أن تصقل شخصيته. أطلعتها على حادثة الأسبوع الماضي إذ كنت مصابة بالتلبك المعدي وطلبت منه أن نقصد الطبيب فتكاسل وأجل المشوار إلى أن تقيأت في دورة المياه التي

تطل على صالة الجلوس، بصوت عال ومخجل سمعه كل من يجلس هناك، فاضطرت أمه لاصطحابي للمستوصف فيما كان النوم قد نال منه.

صمتت أمي تحدّق بي وقد ركبّ الهم علاماته على وجهها. تنهدت ثم قالت:

«الزواج يحتاج صبر.. حاولي معه بالطيب.. يتغير».

أه يا قلبي، لم أتوقع هذا الرد، أين ذهبت حساسيتك يا أمي؟ أين ذهب جزعك وإغماؤك حين ترين جرحا بسيطا يخدش جلودنا؟ تقول لي بحياء ومداراة:

«أنت عصبية يا خولة.. أنت صعبة.. تلطفي معه.. الرجل يحب الحنان».

فهمت كيف تراني، كيف يراني الجميع ولا يرون تبدلاتي وتحولاتي، وفهمت كيف سيقاضونني وستدمغني الإدانة مهما قدمت من تبريرات وشواهد، فأنا المخطئة في الأحوال كلها، ولن يصدق أحد أن خولة الشرسة ذات الأسلوب القاس يمكن أن تكون زوجة لطيفة.

لن يرحمني أحد. لن تُغفر أبدا أخطاؤنا القديمة.

حاولت أمي بعدها أن تطرّي قلبي، تحدثت كثيرا عن سنوات الزواج الأولى ومصاعبها وفوارق الطباع بين الزوجين، وددت حينها أن تصمت. فما من شيء كان يمكن له أن يُسليني.

اتصل عند ذلك عيسى، أخبرني أنه سيصل لاصطحابي إلى ما يسميه البيت بعد ربع ساعة، أوصتني أمي أن أستعد ولا أبقيه منتظرا قرب الباب، فتهيأتُ كدمية فقدت شعورها، أو كنعجة توشك أن تذبح، سمعت زامور السيارة، فخرجت من الباب وركبت قربه دون أن أتحدث، قال لي:

«مشتاق».

ابتسمت بينما استبد بي شعور طاغ بالكراهية، سارت السيارة بنا في الطريق، شارع بعد شارع، نلتف إلى المنطقة، دوّار يفضي بنا إلى مدرسة فاطمة بنت عبد الملك، ثم مطعم برجر كنج، ومدرسة معازة العدوية، وأخيرا الشارع الذي ينتهي بالبيت.

كم أكره هذا الطريق.

الكويت

٣٠ مارس ٢٠٠٧

الساعة الرابعة عصرا

هذا الطريق لن يعود بنا.

اليوم حملت أني عروس أذرع ممرا طويلا، تجملني عاملة صالون الحلاقة، وأنظر لوجهي في المرأة فأرى فتاة جميلة لا تشبهني بالطبع.

استيقظت متعبة، وفاترة الروح، وجع يئن في مفاصلي، وظهري، وحرارة في معدتي، كنت أخمن السبب، نعم عرفته وفهمته جيدا، وحين تأكدت منه، وأفشيتة للجميع، لعيسى وأمه وأخواته، انفصل عني ذلك الجزء مرة أخرى، ورأى فرحة الجميع واستبشارهم، لهفتهم المطبوعة على الوجوه، ورأى أني بعيدة، كنجمة شاردة في سماء عسية.

سألتنني أخت عيسى:

«بنت؟ ولد؟».

فشعرت حينئذ أني سجين يُخير بين زنانتين.

اتصلت بأمي أخبرها عن الحمل، فرحت ودعت لي بالخير، والتمام، والولادة بالسلامة، وأن يكون الطفل القادم وجها للخير في حياتي، وسألتني إن كان عيسى قد حقق تقدما في معاملات حصولي على الجنسية الكويتية فأخبرتها أنه لم يتقدم إلى الآن بالطلب المسمى إعلان رغبة، صمتت ووعدتني بالحديث مع والدته. وشعرت بالالا جدوى.

كنت قد قرأت سابقا، أيام حريتي، الكثير من الكتب حول الأمومة والتربية، لأنني لطالما حلمتُ بأن أدرس تخصصا اجتماعيا في الجامعة، علم النفس مثلا، أو المرشد التربوي، أو حتى معالجا سلوكيا في المدارس، وحينما يصطحبنا أبو حسين لمعرض الكتاب السنوي كنت أتجه مباشرة لكتب علم النفس، أفهم بعضها وأعجز عن بعضها، أتذكر أنني قرأت مرة في كتاب بعنوان الطفل بين الوراثة والتربية أن المشاعر السلبية للأم تتدفق لجنينها، لذا سأحاول أن أتماسك منذ اليوم، وأطررد كل الأفكار السيئة وأحمال النفس المتعبة عن أحشائي حتى أوفر بيئة نقية لطفلي القادم. ما أتعجب منه أن عيسى القارئ النهم يعجز عن العناية بهذه التفاصيل، أو لأقل أنه يعجز عن تطبيقها. أراقبه حينما يحدث أصحابه عبر الهاتف، وكيف يغمرهم بالنصائح السلوكية التي يفترض أنها تحسن أيام الحياة وتلطفها، كيف ينصح الزوج الجديد بالصبر على جهل زوجته وسوء أخلاقها ويحثه على الصبر والتفهم، أتساءل حينها ماذا عني؟ لم لا يعتبرني ضمن تلك الزوجات الجاهلات البسيطات فيما يعاملني كند له.

حسنا، أدري أنني أيضا لا أطبق ما أقرؤه، أقر أننا في مآزق حيواتنا نعجز عن تجسيد ما نعتقده. أنا وزوج أمي مثلا.

في الأسبوع الماضي حين زرتهم في بيت الجابرية آثر الجلوس معنا طيلة الوقت، وصار يحدثني كأب يتفقد أحوال ابنته رغم اختبائي خلف الحواجز التي أثبتتها بيننا، وحين هممت بالمغادرة، قدّم لي ظرفا يحوي مئتي دينار، أفقت من دهشتي على سؤال، لماذا؟ أجابني بأنه يود أن يهديني هذا المبلغ في منتصف كل شهر منذ تلك اللحظة، بلهجته اللينة ذكر أنه يعرف ظروفنا، ويحاول أن يقدم القليل من المساعدة. شكرته والحسرة تخنقني

لأنني سأمد يدي مرة أخرى لمن حاولت أن أهرب من قيد إحسانه، ولطفه، ولأنني أدركت أن أمي مررت له شكواي من ظروف المادية.

عيسى ليس بخيلا، لكنه متنفذ في كل الأمور التي تخصني بحيث لا أحصل على مساحة للاختيار أو التصرف وفق قناعاتي أو اختياراتي، يؤكد علي أن أطلب منه كل احتياجاتي، مصروفاتي، التزاماتي، غير أنني حين أفعل، يبدي رأيه الذي يسلبني حرية الاختيار. مثلا حين طلبت منه مبلغا لتهديب شعري في صالون الحلاقة، أكد أنه لا يرى لذلك من داع، وحين طلبت مبلغا لشراء هدية عيد الأم لأمه وأمي، اصطحبني إلى السوق وقام باختيار الهدية حسب معايير. تجري الأمور ذاتها دائما، والمعضلة الأهم أنه يؤجل المهام، لأنه يدرك أن والديه سيؤديان عنه ما يتنصل منه، استبدال المدفأة، إصلاح الكرسي المكسور، تبديل أضواء الغرفة، أخذ ثيابي من محل الخياطة، أتساءل مرة أخرى كيف سيكون شكل حياة الطفل القادم.

مذ سمعت أمه الخبر، قررت أنها ستشتري سرير الطفل، ودولاب ثيابه، تمنيت حينها أن أسمع شيئا إضافيا، كأن تقول مثلا أنها ستمنحنا غرفة أخرى. لكنها لم تفعل. الأسبوع الماضي دعنتني «فاطمة علي» إلى شقتها في الدور الثالث، وفاطمة علي زوجة محمد أخ عيسى، تزوجت بعدي بأسبوعين، ناديتها بفاطمة علي للتفريق بينها وبين «فاطمة كريم» زوجة حسن الكنة الأولى، كلاهما تسكنان في البيت وقد حُصص لكل منهما شقة تفتش طابقا كاملا ذا مخرج منفصل. الحقيقة أكلني قلبي، حسدا؟ لا.. بل شعورا طاغيا بالغبن، وإدراكا عظيما بالاستهانة، لكل منهما مطبخ خاص، عُرف وصالة كبيرة، ومعتزل لغسيل الثياب، وأخرى للعاملة. لم ترزق فاطمة كريم بالأطفال على أنها تزوجت قبلي بعدة أعوام، غير أنها خصصت في شقتها غرفة للطفل المنتظر.

يومها فكرت في برنامجي اليومي، كيف أخرج من غرفتي الخاصة بحجابي لأدخل إلى دورة المياه، وكيف أضطر لاستعمال المطبخ العام، والنزول بسلة الثياب المتسخة لغرفة الغسيل في الطابق الأرضي ومن ثم الصعود بها أمام كل الجلوس في الصالة. وتساءلت

أيضا، هل عاشت زوجتا عيسى السابقتان هذه الظروف أيضا؟ أتذكر أن أمه أقبلت إلي بعد أن هبطت من شقة «فاطمة علي» إلى غرفتي وذكّرتني بأسلوب لا يخلو من لين أنني مختلفة عن الأخريات. قالت:

«إنت البيت كله بيتك».

صحيح، لأنني بدون التي لن تحظى ببيت مستقل.

أم لأنني زوجة عيسى المتكل على أبويه والمنشغل بعالمه الخاص الذي لا يتعدى ذاتيته.

لا أدري.

لكن ما أعرفه أنني أود أن أؤمن لطفلي القادم غرفة جميلة، ومكانا ينمو فيه آمنة مما يشوه روحه. أحلم كل ليلة به، ليس ذلك الحلم الذي يُغطسنا في بحر الغياب إنما تلك الأحلام التي ننسجها بأنفسنا وآمالنا على أجنحة الخيال، أسأل هل سيشبهني؟ أم يشبه مجاب؟ أم ربما سيرث من أبي الملامح الأصيلة، أتمنى أن يكون ذكيا، مثلنا تماما، متوفقا في الدراسة، سيكون كويتيا بالطبع، لن تضطره الحياة للهجرة أو الركض في مسار الحرمان والإقصاء، ولكن ماذا لو ورث من أبيه هذا المرض الذي لا أستطيع تشخيصه ولا تسميته؟

الكويت

٢٢ / أبريل ٢٠٠٧

الساعة السابعة والنصف صباحا

مستشفى الصباح قسم أمراض النساء والحمل

أخيرا انتهت الممرضة السمراء «جاني» من تثبيت أنبوب المغذي في وريدي بعد أن طفر الدم من رسغي ولطخ اللحاف الأبيض، غضبت مني، ثم صاحت على مرافقتها التي تحاذي

السريير المقابل وطلبت منها تبديل البياضات. تأففتُ وقد تسرب مني الصبر، فهذا يعني أن أقوم من رقدتي وأنتظر إتمام المهمة على الكرسي البارد. تمنيت حينها أن تباشرني الممرضة المناوبة التي كانت تتابعني في الأمس، لطيفة الوجه وخفيفة اليد، لكنني لم أرها. سألتني «جاني» عما إن كنت استطعت أكل شيء منذ الأمس فأجبتها بالنفي. أوضحت لي أن دواء الزوفران الماشي الآن في أوردتي سيقوم بتهدئة معدتي وجعلها تتقبل بعض أنواع الطعام، ثم أخبرتني أن طبيب المناوبة سيقوم بالمرور عليّ قبل العاشرة، وبعدها سأنزل إلى غرفة الفحص والسونار.

هذا هو اليوم الثالث من دخولي إلى المستشفى وأنا في أول الشهر الثالث من الحمل، شخّصت الدكتورة النسائية إصابتي بالجفاف الشديد وصعود الأستون في دمي إلى موجب أربعة، الأمور التي لم أفهمها غير أنني أدركت أنني في خطر، فأنا منذ نحو أسبوعين لم أطق أن أحتفظ بشيء في جوفي، حتى الماء، أتخلص منه عبر قيء حارق يلهب أحشائي ويتركني جثة على السريير، أنفصل عن العالم كله في قناطر طويلة من الغياب.

قبل أسبوع حملت بأني أرتب أحذية سكان منزل صباح السالم، كانت الأحذية متناثرة قرب المدخل وأنا أقوم بتصفيها في خطوط طويلة، رفعت رأسي للسماء ورأيت أنني أقف وسط ظل حذاء كبير يشبه أحذية رجال العصور الوسطى في الرسوم الكرتونية، حاولت أن أنزح من الظل ففوجئت بإخوتي الصغار حسين وأحمد وسارة يدخلون عليّ البيت حفاة وقذري الأقدام، فصرت فجأة أغسل أرجلهم بخرطوم الماء الطويل المثبت في حوش المنزل. ثم رأيتني أستلقي على أرض ترابية ناعمة أنظر للسماء التي صارت حانية الظلمة، وكانت نجومها مضيئة بنحو فاتن، حينها بدأت أرتفع، أرتفع، أرتفع بنحو غريب، هدوء خاشع يرفعني ويسحرنني، سكون يغمرنني تماما ويتمشى في كل بدني، خدر لذيذ من رأسي إلى أطرافي، صرت كأني ألمس سقف السماء بعيني والأرض بدت بعيدة جدا، حتى دخل رنين الهاتف في أذن الحلم وأيقظني. كانت أمي على الجانب الآخر، أمرتني أن أرتدي ثياب الخروج لأنها ستأخذني إلى المستوصف، لا أعرف دافعها لأني لا أشعر أنني أعني ماحولي. حين وصلت سيارتها وحلت في مرأب البيت أخذتُ معي علبة المحارم الورقية حتى

أستخدم أوراقها في التخلص من رياتي المتدفقة من فمي، فمذ ارتفع حملي وأنا لا أتمكن من ابتلاع لعابي، وأخذت كيساً لأتخلص فيه من أوراق المحارم المملوحة بسيولي، ركبت السيارة وأنا أرتعش، ولما وصلنا إلى المستوصف دفعت أُمي رسوم العلاج وأخبرها الطبيب أنني أعاني من جفاف شديد.

سألني:

«تأكلين؟».

أجبت:

«صعب.. أحس أنني أموت».

لم أخبره كيف يجبرني عيسى على برنامج غذائي أقذف كل محتوياته من أحشائي ويطحنني بعدها الوهن إذ تهرب مني طاقة الحديث. الحقيقة، كنت فرحة باهتمام عيسى في البداية، سعادته بحملي دفعته للحرص على طعامي، وراحتي، واسترخائي، لقد قرأ الكثير من الكتب المتعلقة بالحمل ورعاية الأم والجنين، لكن المشكلة تكمن في التطبيق مرة أخرى.. والتفهم.

كتب في ورقة علّقها على مرآة التسريحة النظام الغذائي الذي يتوجب عليّ الالتزام به، حليب ومكسرات نيئة، وجبة سمك أسبوعية، لحوم حمراء، فواكه مشبعة بالحديد، غير أنني كنت أستفرغ كل ما أحاول ابتلاعه، ثم بدأت أمتنع عن المحاولة، وأرفض التجربة مهما قُدمت لها المحسنات.

صار يتهمني بعد أن عجزت عن ازدراد هذا الجدول الغذائي بالعناد والتقصير، كيف سيفهم أن الأمر يخرج عن سيطرتي، أن كل الزاد يلبكني ويدعوني للاستفراغ، أخيراً حنق عليّ وغضب مني وانعزل في الديوانية يمضي أوقاته بمشاهدة الأنمي ولعب الفيديو فيما كنت

أذبل يوما بعد يوم. كانت أمه تدخل غرفتي لتتفقدني، فأكتشف أنها حنون، لكنها غير مقدره لحالتي، تؤكد أن عليّ المحاولة، تصر:

«حاولي تاكلين أي شيء، جبن قليل الدسم، بسكويت مالح، فواكه، روب، عصير».

كيف أخبرها أنني لا أستطيع، الوحام يختلف من امرأة لأخرى، أجدها تصمت ثم تقول:

«على راحتك» وهي تحمل في صوتها عتبا خفيضا.

لكن الأمور تفاقمت أخيرا، فأصرت أمي على عرضي على طبيب المستوصف، وصف لي الطبيب أقراص «الأوندا» و«الفوليك أسيد» وأوصاني بالراحة، غير أنني لم أستجب لتلك الأقراص بل سببت لي ألم المغص، الأمر الذي أجبر أم زوجي على اصطحابي إلى مستشفى الصباح فصممت طبيبة المناوبة على دخولي لجناح المتابعة والبقاء حتى تتحسن صحتي وتبدأ المحاليل الطبية بإرواء جسدي الجاف.

اتصل بي عيسى بعد استقراره في الجناح، كان غاضبا، يلومني ويقول:

«لو تسمعين الكلام.. ما صار الذي صار».

وفي حالتي الراهنة لم أكن لأقدر أن أفكك الكلام أو أدافع عن نفسي، فصرت أبكي، بينما هو أنهى المكالمة. الحقيقة، أدرك أنني أصبحت بكاءة منذ فترة، حساسة وهشة، وأعرف أنني خلعت قوتي مذ رضخت لسلطة عيسى التي كان من الممكن أن تحلو فتصير رفقة طيبة بدل حالة السجين والسجان والأمر والمأمور، وأكره نفسي لذلك، بل أصير لا أتعرف عليها وأنغرب عنها، لكن هل أعرف أحدا غيرها؟ هل أعرف أمي مثلا؟ هل أعرف عيسى؟ الزوج الغامض الذي أستوحش من وسامة وجهه ولياقة بدنه وحسن منطقه وكلامه مع الأصدقاء والمعارف، من أعرف؟ أبي البعيد الذي يعيش حياته دون أن ينغصها ألم فراقنا؟ مجاب الذي اختلسه الرحيل وصار كذكرى لها ثقل الغبار.

حين اتصلت أُمِّي لتطمئن عليّ عصر الأُمس أخبرتني أن مجابًا عقد قرانه على فتاة أسترالية من أصل لبناني، وأنه ينوي أن يأخذها إلى لندن فور زواجهما لكي تتعرف على أبي وأسرته، وأنه في أقرب فرصة ممكنة سيحاول أن يسافر بصحبتها إلى دولة قريبة منا كالإمارات مثلا أو قطر حتى يلتقيا بأُمِّي وإخوتي. بالطبع وكما هو متوقع، لم يحاول أن يتواصل معي ويطلعني على الأمر السعيد، بالرغم من وجود الهواتف النقالة وبرنامج المسنجر، كان يستطيع أن يحمّل أُمِّي سلاما خاصا لي لكنه لم يفعل، وأشعر أنه لن يفعل، حتى أظل أتساءل.. هل أعرفه؟ هل يعرفني؟

آه..

أنا غريبة يا الله في هذه الدنيا. غريبة حتى عن ذاتي، غريبة عن صورتي التي تحملني على الجزع حين أنظر إليها، أنت هذه يا خولة؟ من هذه المرأة المكدودة ذات الوجه المنتفخ والعينين الميتين والشفيتين اللتين شققهما جفاف الحمل. أين صوتك؟ عنادك؟ تهورك؟ أنت تتداعين يا خولة.

نعم أنا أتداعى. حاولت أن أكون ابنة بارة، حاولت أن أكون مواطنة منتجة حاولت أن أكون أختا طيبة حاولت أن أكون زوجة صالحة، لكنني أخفق في كل هذا، والآن وحين أرتعش لهذا الدبيب في رحمي، أخاف.. أخاف كثيرا.. أي أم سأكون؟

الكويت

٢٠٠٧ / ١٢ / ١١

الساعة الواحدة ليلا

لقد تحرك شيء في قلبي، أو ربما تم إحياء الأجزاء المتحجرة منه.

رائحة عبد الهادي التي تفرض سطوتها على غرفتي تؤكد لي أنه ثمة أمور تستحق العناء. لا أدري كيف لم أكتشف محبتي للأطفال، غيبي غضبي عن عواطف الناصعة الخبيثة في كئيبان قلبي، أستطيع أن أقول الآن أنه يملأ حياتي، يلونها ويعطرها ويكاد يجعلني أحبها. أكتشف معه أمومتي، حين أقوم بتنظيفه وتبديل ثيابه وتغذيته وتلحين تهويده النوم، حين أرى أشياءه تزرع أجزاء من غرفتي الميته بعشب الحياة، صناديق الغيارات، اللهاية التي يرفضها، رف لماء العطر وزيت بيبي جونسون وغسول الرأس، قطن الأذن، الثياب الصغيرة التي تسلب القلب والدمى المحشوة.

لقد ساعدني عبد الهادي على اكتشاف الآخرين أيضا، لأطرد عني الأوهام والظنون السيئة، فحين تأتي أم عيسى صباحا إلى غرفتي وتحمله من سريره وهي تقول:  
«تعال يا قطعة من روعي».

أنتعش وأحبها لحبها إياه، وأحب أخوات عيسى اللاتي يناغيه ويستمطرن ضحكته كما الأرض العطشى، وأخال أنني أبدأ بحب عيسى الذي تتحول صفته إلى «أب ولدي» والذي يبدو أنه يطير فرحا به. وأشعر أن هذا البيت بيتي وناسه أهلي، يصير هذا الطفل محور كوني، مستحوذا على أفكاري، أفرح حين تتلقفه الأيادي وهي تدله وتبتسم في عينيه الصغيرتين كأنها تطلب رضاه. أتفعل خيرا وأظن أن حضوره سيفقد علينا خيرا كثيرا، وسيغير أحوالنا، هذا ما أرجوه، فبالأمس أبلغني عيسى أن والده سيفتح غرفتنا على غرفة أخرى فيتنسج مكاننا، فرحت لذلك كما فرحت بثلاجتي الصغيرة. أتذكر فرحتي يوم أهدتني أمي الثلاجة، صبت السعادة في قلبي كما يجدر بثوب عيد لفتاة صغيرة، صار بإمكانني أن أفتح بابها كلما شعرت بالجوع دون اللجوء إلى مطبخ البيت الكبير، أكل التفاح أو الخيار أو الخبز والجبن المثلث، أتمكن من الاحتفاظ بقناني الماء وعلب العصير، غير أنني الآن وبعد الإنجاب صرت أحب أن أنتمي لأركان هذا البيت. فنائه وصالته ومطبخه، وعرفت أن الأشياء لا تتغير إنما تُغيرها نظرنا إليها. لماذا لم أسع للتودد لأهل البيت؟ لماذا لم الأطف أخوات زوجي وأمه وأباه وأتشارك معهم الأحاديث كما تفعل فاطمة كريم أو فاطمة علي،

هل كانت المشكلة بي؟ هل كنت أشعر بالضجة مثلاً فأنسج على نفسي خيوط العزلة؟ هل كنت أتحنى بنفسى كما فعلت بأمى وزوجها؟ والسؤال هل نصنع انتماءنا أم يصنعه المكان؟

بالأمس زارتنى أمى وسارونة، كانت قد طهت لى حساء الدجاج بالسبانخ والخضار. حين حضرت أخبرتها أن أم عيسى قد سبقتها بإعداد وجبة غدائى، ضحكت وقالت:

«يا مكارة».

شاركتها الفرحة الصافية، فأم عيسى تهتم الآن بتغذيتى وراحتى، وأخبرتها أن ترتاح من قلقها على فأنا بخير وأسير فى درب الاستقرار بحياتى، دمعت عينها وذكرت أنها تود أن تطمئن علينا جميعاً، بالطبع تقصدنى ومجاب وإخوتى، وسأقت لى بحبور خبر حصول مجاب على درجة الماجستير فى الحقوق. فأخبرتها أن عيسى قدم الطلب المسمى بإعلان رغبة، لتجنيسى قبل يومين.

حين ذهبت أخذت أتأمل مسارنا، أنا ومجاب، وأدهشنى أنى لم ألتفت إلى تغايرنا، فهو قرر أن يشكل غده بما يرتضيه، سافر إلى أستراليا وحصل على المواطنة والماجستير، بينما بقيت بعد الدراسة الثانوية رهينة فراغى الطاعن وتيهى، لم أفكر أن أعمل فى الوظائف المتاحة كما شببهاتى من البدون، لم أفكر أن أفعل ذكائى ومواهبى فى مشروع أستثمر من خلاله طاقتى، كأنى كنت أنتظر معجزة المواطنة تأتىنى كهبة من السماء فتخولنى الدراسة فى الجامعة والتقدم فى مراكز الدولة، أتخيل أنى أحمل أعباء وزارة مثلاً، أو أقوم بمهام عظيمة لا أعرفها، بقيت فى دهاليز الخيال، والغضب، ألوم الجميع على تخليهم عنى، وأتشاجر مع أمى، كنت ابنة سيئة، ليت أمى تغفر لى ذلك، فأنا لا أود أن يعقبنى ولدى إذا كبر. هل أصبحت أفكر كالنساء العاجزات الآن؟

قررت اليوم فى لحظة تأمل خالصة أن أغير ملامح حياتى، وفكرت فى هذه النقاط:

١. سأقترب من عيسى وأحاول فهمه واستغلال حبه لعبد الهادي لإشعاره بالمسؤولية تجاهنا.

٢. سأطلب من عيسى أن يسمح لي بالعمل، أي عمل يناسبني، في حضانة للأطفال مثلا.

٣. سأفتح قلبي لمحبة الجميع، سأغفر لأمي وأسامحها، وأحاول أن أغفر لأبي ولمجاب.

٤. سأجتهد في تربية ولدي، سأمنحه طعاما صحيا وبيئة نظيفة، سأمنع تداول السباب أمامه، وأبعد عنه البرامج التلفازية السيئة.

٥. سأقترب من أم عيسى وأخواته، وأكتشف محبتهم، وأصدق في مودتهم.

٦. سأعيد الوصال مع بنات العائلة، بنات أخوالي وخالتي اللاتي انقطعت عن رؤيتهن.

علاقتي ببنات الخؤولة طيبة، لكنها فترت منذ مدة، مذ سبقني بالزواج والارتباط وصارت حكاياتهن تدور حول البيت والأولاد وتطلبات الأزواج، أو حول الوظيفة وتسلط المدراء، لم أكن أملك في عالمي المحدود ما يجاريهن، ما يقترب منهن، لذا تدرّعت بصمتي ونأيت عنهن في الجلسات العائلية، حتى صرت أتجنبها وأقضي أيامها وحيدة في البيت. أما علاقتي ببنات عائلة زوج أمي فإنها سيئة، بل سيئة جدا، أتذكر حين قضينا فترة الغزو في الإمارات وحشرنا الظرف في جيرة تعيسة، تُلزمننا بقضاء الأوقات معا، وتشارك اللعب، وكيف مورس عليّ الإقصاء والتنمر.

مرة قررنا اللعب في شقة أخت زوج أمي، اجتمعت الفتيات هناك، ابنتا أخته «دلال ودانة» وبنات خؤولتي، وُرّعت عرائس الأحلام التي تجمعها دانة في زاوية قرب سريرها، أخذت كل فتاة دمية وأهدتها اسما للعب: ميمي، لالا، فلورا، رنين، فلونة، هايدي، فيما انتظرت أن يحين دوري لأختار لدمية ما اسمها. بقيت دمية واحدة أتذكر أنها ترتدي فستانا أحمر من المخمل وقبعة تتسرب منها جديلتان ذهبيتان، لم أحب أن تكون هذه الدمية لي لأنها

الوحيدة التي تملك عينين ثابتتين لا تطرفان كبقية الدمى، لكنني قبلت بها خشية من أن  
أحرم اللعب. مددت يدي لأخذها وتسميتها، قلت:

«سالي».

ردت عليّ دانة بصوت ممطوط:

«ويع».

وصاحت بي دلال:

«لا.. هذي لا».

تساءلت حينها عن السبب فأخبرتني أن أمها قد منعت اللعب بها تحديداً، طلبت منهن  
انتظاري حتى أحضر لعبتي من شقتنا، فتهاوسن ووعدتني دانة بذلك، أخذت أركض سارية  
من بابهن إلى باب شقتنا، صعدت السلم بسرعة فتعثرت ومُرَّق جوربي الطويل جهة ركبتي  
اليمنى، أخذت الدمية النائمة في فراشي الصغير وهرعت إليهن أسابق لهاثي، كان الباب  
مقفلاً، صرت أطرقه بهدوء ثم بعنف، أعاود ضرب الجرس دون جدوى، لم يفتح لي أحد  
الباب، ولما كانت النساء تجتمع في صالة شقتنا فإني قصدت أُمِّي أشهق بالبكاء. حين  
وقعت أبصارهن عليّ تأففن، قالت خالتي:

«أقبلت النحيسة».

ونظرت لأُمِّي بابتسامة خجلى، مُداعبة بينما ضجت الأخريات بالضحك وبعضهن يردد «آه  
من دلح البنات». قامت أُمِّي وأمسكت بيدي وقادتني إلى غرفتي بالطابق الأول وهي تؤكد  
أنني الوحيدة التي أواجه مشكلات القبول بين الفتيات، أوصتني أن أتحلّى بالمرونة وأن  
أحسن الصحبة ولكنني صرت أبكي وأصرخ وأؤكد لها أنها لا تفهم.

لم تتوقف مؤامرات دلال ودانة عليّ، كانت تشتد كلما كبرنا في العمر، وكلما سجننتي معهما صدفه عائلية ما. حين تقدمان لزيارة بيت الجابرية، تقومان باستفزازي كأن تدخلان إلى غرفتي وتستكشfan أغراضي بنحو مستفز وحين أقوم بطردهما تتبجحان وتقول إحداهما: «بمزا جنا.. بيت خالنا».

أو أن تنزلان إلى الطابق الأرضي متضاحكتين، تعبثان في المطبخ وتعطسان متعمدتين في ماعون الخبز الإيراني المهياً للعشاء، وحين أنقل لأمي ما يجري في غيابها، تتسع أعينهما وتشهقان ثم تصرخان بصوت واحد: «كذابة».

فتطلب مني أمي إغلاق الموضوع.

كانت دلال تعيرني دائما بأني لا أسافر، تمد أمامي أحرف كلمة لندن حين تريني سلعة اشترتها من هناك، أو تتحدث بلؤم عن سعادة التحليق بين الغيوم في طيارة تعرض أفلاما جميلة وطعاما طيبا وهدايا. تعيرني لغياب أبي، وصارت تتباهى أمامي فيما بعد بدراستها في كلية الأحياء. كلما التقيتهما كان هنالك مادة محضرة للتباهي، لاستصغاري، هذا ما أعتقده وأتأكد منه كل مرة. اليوم أنا أحاول أن أصفح عن الجميع، لكني لا أقدر أن أصفح عنهما.

الكويت

١٤/١٠/٢٠١٠

الساعة الثانية صباحا

لم أتوقع أن أجد الرغبة في الكتابة بعد كل هذه السنوات، لم أتوقع أن أجد الدفتر في درج خزانتي أصلا، فبعد فترة من ولادة عبد الهادي شهدت موت رغبة البوح لدي، لم تعد بي

طاقة للكلام أو الكتابة، استسلمت للأسف لكل تلك الظروف القاهرة، وعجبت مما أتحوّل إليه.

تأملت في ولادة طفلي الأول خيرا، صدقت وعود عيسى وأهله بأخذ بوصلة الحياة جهة الأفضل، صدقت أنه سيهتم بعمله، ويوسّع غرفتي الخاصة، ويكون أبا يعتمد عليه لكن الوعود كلها هربت من منافذ سكرة الفرحة، فجأة تحوّلْتُ لكائن لاهت خلف مهام اليوم، راکضة خلف الوعود المؤجلة، يلزمني أن أحارب في معارك أبدية لتوفير أدنى شكل من العيش المقبول، لا بد أن أتشاجر كي يفكر عيسى بكسر متعه الخاصة ويتنازل بالذهاب إلى الجمعية لشراء غيارات الطفل، أو يضحى بيوم من أسبوعه لنقوم بأخذه لمشوار التطعيم، أو صالون الحلاقة، أو شراء الثياب، أو عيادة أسنان. حروب مستمرة، أنهكتني، لتصير الوسادة في الليل صفيحا ساخنا يحرق رأسي ويذيب كياني. قاومت كثيرا، طلبت أن يسمح لي بالقيادة دون جدوى، حتى استسلمت لشكل حياتي، عالجت الاحتياجات بقصد المعونة من أمي، من والديه، من زوجة أخيه، من أخواته، ثم بصمت بدأت أخفي حياتي السرية، وأعمل بكتابة البحوث المدرسية نظير مبالغ بسيطة كي أشعر بقليل من الكرامة وأتكفل بتبعات طفلي. ثم نزل خبر حملي بطفلي الثاني كنعني في صحيفة الصباح. حتى مت كثيرا، مت طويلا. ثم بدأت الأمور تتغير ببطء ربما لأنني قررت التغيير.

الرسالة التي وصلت إلي عبر الواتساب اليوم من لندن أنعشتني وقادتني لأبحث عن قلم ما وأدون ما أحسست به. كانت الرسالة من أبي، ياه يا أبي، أخيرا نطق الحجر، أي حجر؟ أهو قلبي أم قلبه؟ آه يا أبي، أغص بالحكايا لدرجة أنني لا أعرف من أين أبدأ، ولكنني أقر أن عليّ أن أشكر عيسى على هديته، جهاز الآيفون هذا اختزل المسافات ومكنني من ترتيب قطع الأحلام المتناثرة، جاءني به قبل أسبوع وهو رائع المزاج، قال لي «هديتك» ففتحت العلبة وتلمست الشاشة المسطحة بلا بروز والتي كنت أراها بين يدي الجميع، أكد عيسى أن مكالماتنا ستكون مجانية وهذا بوجهة نظره أفضل، شكرته وحمدت الله على مزاجه الطيب، لا بأس، حياتي الآن مطابقة، معتادة، يوم حلو، يوم مر، مشابهة لأغلب الزيجات. أعتقد أن عيسى راجع نفسه بعد أن مكثت في بيت أمي عقب ولادة علي، صحيح أن

شجارات كثيرة امتدت بيننا، وصحيح أن أمي لمّحت لي أنها لا تؤيد طلاقى ولا تشجعني عليه، وصحيح أنني رجعت لداري مكسورة خاطر، لكني لم أخسر، وأتوسم الخير في القادم، فلعل الآتي خير، ولعل الجواز الأزرق وأوراق المواطنة سترفر في كفي بعد عامين كما هو مفترض، ولعل عيسى يتغير، هو في الواقع تغير للأفضل، لم يعد يدقق كثيرا على كلماتي، ولم يعد ينهرني وينتقدي بصورة دائمة.

مساء الأمس في الصالة الكبيرة قام عبد الهادي بسرد حكاية فرخ البط القبيح بلغة عربية سليمة، حصد ولدي حبيبي إعجاب الجميع وهو طفل يوشك أن يكمل الثالثة، صفق له عمه محمد وقبلته جدته وهي تردد «ما شاء الله لا قوة إلا بالله تبارك الله» وأهداه جده عشرة دنائير بينما تلتهم عينا عيسى بالفرحة، قال لي باسم «ما توقعت والله» نعم يعرف الجميع أن عبد الهادي يسبق أقرانه بالنطق والتعبير، وأدرك في دخيلتي أنه ورث ذكاه من خاله ومنطقه من أجدادنا أهل الخطابة والفصاحة في الفاو، وهذا ما يملؤني بهجة وفرحا، وأدعو الله أن يوفق ولدي ويحميه، وكذلك أخاه قرّة عيني علي، لكن أن يسرد قصة بهذه التفاصيل وبهذه اللغة وبهذه الثقة وبهذا العمر، فهذا شيء لم يُتَوَقَّع.

الحمد لله.

حين تواصلت مع أبي بالأمس، بعثت له صورة لعيسى والولدين، ثم بعثت صورة لي، فبعث بدوره صورة له ولأخي سيد أيوب وأختي بيبي آيات، وحينها ضاعت مني الكلمات وأسفت على العمر الذي يمضي بالفراق. فكرت أنني أحظى بستة إخوة، لكني أعجز عن التواصل مع ثلاثة منهم، وأحتك بخفوت مع الثلاثة الآخرين، لا بأس، أعزز منذ فترة اهتمامي بأسرتي، وأحاول أن أستنقذها.

أخبرتني أمي أن مجابا انفصل عن زوجته اللبنانية، فأوجعني فشله كما لو كنت أنا من أواجه لوعة الطلاق، اسودت الدنيا في عيني، صرت أفكر بحيرة، لماذا لا نملك إلا أن نتعثر، أنا وأخي، أنا ومجاب، لماذا تُستصعب أمورنا بهذا النحو، أبي طلق أمي، ومجاب طلق زوجته، وأنا وقفت على حافة الطلاق مرتين. قلت لنفسى لو كنت أملك أن أتحدث مع

مجاب، لو استطعت ذلك، لسألته عن السبب، سبب صعوبة حياتنا وعلاقتنا مع الآخرين، ومعضلتنا الأساسية في عدم الانتماء لأي جماعة، لا إلى البدون لنقبل بعدم التشبث بوطنيتنا، ولا إلى الكويتيين، أهلنا وأقاربنا، ولا إلى غربتنا وأوطاننا الطارئة.

سألت أمي لماذا لا يعود مجاب إلى الكويت بعد أن حصل على الجنسية الأسترالية، فقالت أسفة وحانقة ويأسه إنه لن يعود أبدا، وسيبقى يتنقل بين أستراليا ولندن حيث مكتب المحاماة الذي يعمل به، وأخبرتني أنه بدأ بالتحضير لرسالة الدكتوراة، فدعوت له أمامها بالتوفيق. وتساءلت مرة أخرى لماذا لا يحدثني.

أيعقل أنه ينساني؟ أنه يطردني من ذاكرته؟ أ تُقصيني أنت أيضا يا مجاب؟ ألا تكفيني قسوة هذه الدنيا عليّ؟

قبل يومين، اجتمعت عائلة عيسى في موعد الزيارة الأسبوعية، حضرت أخته المتزوجة الساكنة في منطقة بيان مع أطفالها، والتمت العائلة كلها، كنت قد أعددت طبق المعكرونة بالبشميل الذي يحبه الجميع، وسلطة الفراولة التي عرفت مقاديرها من خلال اليوتيوب، وبعد الغداء هبط الرجال إلى الديوانية فيما بقيت النساء في الصالة، فقممت مع خالتي بتقطيع طبق الكعك بالشوكولاتة وتقديمها للحاضرات. ثم جلست إليهن لتداول الأحاديث والحكايا.

قالت فاطمة كريم:

«يوسف خطب».

كانت تعني أخاها، فباركنا لها، لكن أخت زوجي الكبرى تساءلت عن كونه متزوجا قبل هذا، فردت فاطمة باشمزاز:

«قطيعة.. طلقها.. كانت بدون».

ثم أخذت تسرد كيف أن أبويها لم يقبلا يوماً بزوجة أخيها السابقة، وأن الأصل والفصل والنسب ثوابت راسخة في عائلتها العريقة ذات اللقب الرنان، ولا أدري هل انتبهت لوجودي، هل سهت عني أم تعمدت أن تسمعني هذا الكلام الجارح. قمت من مكاني مطعونة القلب، ناقمة على حنجرتي التي يخمشها السكوت، وغير قادرة على مجابعتها بالرد وتشاغلت بصب الشاي.

حين أطل المساء، وهدأ المكان، بقيتُ مع أخوات زوجي وأمه، وحالما أردت الدخول إلى غرفتي اقتربت مني أصغر أخوات زوجي، والتي أكملت العشرين هذا الشهر، طيبت خاطري ثم قالت:

«اتركيها عنك.. تغار منك».

بالطبع لم أقتنع بتفسيرها لكني شكرتها. فمِمَّ تغار بنت الحسب والنسب واللقب العالي الصيت؟ من خولة، البدون، المكسورة، لا يمكن أن يغار مني أحد، غير أنني في تلك اللحظة وحين أغلقت عليّ بابي لأنيم الولدين، أخذت أكلم الطفلة المجروحة في داخلي، أقول لها يا خولة، لا تعبئي بها، من قال أن جذور البدون لا تضرب في عمق هذه الأرض، من قال أنك لست ابنة حسب ونسب، تذكرني من أنت يا بنت السادة، تذكرني من تكونين.

لكنني عدت لأفريق نفسي من سكرتها، ولأربي خولة الصغيرة في داخلي من جديد، قلت لها مرة أخرى، يا خولة الطيبة، ليس الإنسان إلا بعمله وعطائه ونقاء روحه. لكن ما هو عملي وما هو عطائي؟ أسئلة كثيرة يتوجب عليّ أن أجيبها، ونوافذ جديدة يجب عليّ أن أفتحها، وهواء جديد عليّ أن أتنفسه. لقد رزحت في سجن ذاتي كل هذه السنوات، وعليّ أن أقرر الحرية.

# السقوط من جنة الأسماء

## حكايتنا نحن

أخَفَ مِنْ نَسَمَةٍ فِي اللَّيْلِ أَنْتَقِلُ

وَمُدُّ يِرَانِي ثَقِيلًا يَهْرَبُ الظَّلَلُ

يُشِيرُ لِي مِنْ بَعِيدٍ، ثُمَّ الْحَقُّهُ

مُدُّ جِئْتُ، لَكِنِّي لِلآنَ لَا أُصِلُ

أَمْرٌ فِي دَوْلٍ مَا مَرَّهَا أَحَدٌ

وَلَيْسَ تَكْفِي لِحَزَنِي هَذِهِ الدُّوَلُ

محمد الصفار

«خولة.. خولة.. خولة».

أستمر بسماع هذا النداء، يوم ثالث ورابع وربما خامس، يندس الصوت قربي ويشغلني عن تيهي، أتعجب وأسأل من المنادي؟ من المنادي؟

أحاول فتح عيني. الضوء الخجول السائل من المسارب يربك نظرتي، ثم يخفت الصوت أو ربما يزول، أو ربما أنوب أنا في الغياب مرة أخرى.

«خولة.. خولة.....».

أصوات قريبة، أصوات بعيدة، ربما كانت مقتطفة من أحلامي. ماهي الأحلام؟ ما هو  
الصحو؟

«خولة...».

يُنَادِي الصوت مرة أخرى، ينزلق على سمعي، يا ترى.. هل يناديني؟

خولة..

هل هذا هو اسمي؟

(.....)

صَدَّقني يا مجاب ليست الأسماء مهمة الآن، لكنني أسألك لماذا عدت، كان قرارك الأخير أن  
تفنع بوطنك المستعار، وتربي طفل ووطنيتك الوليد من رحم الغربية، تنشئه على الانتماء  
والقبول بملامح الجموع المحيطة بك وتقلّم أظافر تمرده. لماذا عدت؟ صحيح أنني في  
الأيام الأخيرة تخليت عن عنادي وقررت أن أسعى إليك وأكسر الحواجز بيننا وأرتق الرقاع  
الكبيرة في أخوتنا، صحيح أنني صرتُ لا أطلب من الدنيا -بعد اكتمال أوراق المواطنة- إلا  
رؤيتك والتواصل معك، صحيح أنني وحين صرت قادرة على السفر حلقت إلى لندن مع  
زوجي وأطفالي لألتقيك غير أنني فُجعت هناك بأنك قد عدت إلى أستراليا، لماذا كنت تهرب  
مني يا أخي؟

حين وصلتُ إلى لندن زرت أبي في قولدرز قرين، رأيت بيته الواسع الأنيق الذي يطل على  
حديقة تشبه جنة مرسومة في لوحة حائط، عرّفني على زوجته الشديدة الشبه به،  
المتحدثة اللبقة، العليمة بالأحكام الشرعية، الخطيبة ذات الصوت الرخيم، أطلعتني بتودد  
كصديقة قديمة على تفاصيل حياتهم، نمط معيشة أخوي، ساعات نومهم ونظام دراستهم  
في المدارس العربية. طباع أبي الجديدة، بياض فوديه وفراغ رأسه من الشعر. تغير قلبه  
لكن روحه ظلت كما هي، لم يزل هو سيد عبد الله المثقف الذي يتحدث بلغة عالية ويناقش

الأمر بهدوء ويستمر بسلب أسماع الجلوس حين يحكي حكاياه والجانب الذي لم أشهده من رحلته. غير أنني في كل ذاك كنتُ أبحث عنك أنت. خرجتُ من ضيافتهم إلى الشارع العام، أتأمل سماء لندن المتلغفة بضبابها. أخبرت أنك تسكن في منطقة ستراند في مبنى «باريس جاردن» وتُدرس الحقوق في جامعة «كنجز كوليج» يا ترى هل ذكرت في المنهج الدراسي قصتك؟ قصتنا؟ قصة أم خالد التي تغسل دورات المياه في المساجد والحاجة أم جواد التي ماتت وهي تنظر في شباك بيتها تترقب عودة أولادها الأربعة المغتربين. هل ذكرت قصة ليلى السكرتيرة الطيبة التي تخرجت من الثانوية بمعدل ٩٩.٧ بالمائة دون أن تستقبلها أبواب الجامعة، أعلم.. إنها قصة مكررة.

انظر يا عزيزي، ركبتُ الحافلة الحمراء لأتوقف في الشارع الذي يضم مسكنك، تنفست هواء المكان بشوق إليك، ركبت قاربا خشبيا لأعبر نهر التايمز حتى أصل إلى بيتك الذي لم تعد تقطنه، أنحت في عقلي كل لوحات الحياة التي رسمتكم ثم نزعتم، كما سقطنا نحن بدون عراة بلا أوطان من جنة الأسماء. تعب أطفالتي، صارت ابنتي تبكي في عربتها الحمراء الزاهية، وألزميني زوجي بالرجوع إلى منطقة إيجور رود حيث نزل في عمارة خاصة بالسياح العرب. التزمت الشقة أرابط في مكاني دون رغبة التعرف على ملامح المنطقة، لا تعينني الأسواق ولا المتاحف ولا المقاهي. فكل ما يعينني هو أنت. وحين انتهت الرحلة، عدتُ إلى الكويت، أطلب أخبارك، وأرضخ لعواطفني التي صارت أشرس من قسوتي فأخرج صورك من الصندوق الغافي أسفل سريري في بيت الجابرية. أشاهد الصور، أتفحصها مفجوعة بغيابك عنها، وأسترجع نتوءات تتدرن في ذاكرتي، هل قمتُ يوما بتمزيق صورك يا ترى؟ أين أنت؟ أين كنت؟ أين صرت؟

بعدها قمت برحلة أخرى إلى أستراليا، هذه المرة كنتُ وحدي، تركت زوجي وأولادي في الكويت وقدمت إليك، في المطار هاتفتك مرارا دون إجابة، لم أكن أعلم أي عنوان أقصده لآتيك، هل أذهب لبيتك في ملبورن أم بيتك في سيدني؟ حين اتصلت بأمي لأستفسر منها أخبرتني ببرود أنك عدت إلى لندن أو سافرت إلى جامعة تروندهام في النرويج، وتساءلتُ حينها أيعقل أن تجهل هي مكانك، فقفلت راجعة.

أخيراً، أخبرتني أمي أنك عائد، بعد شهادة الدكتوراه وطلاقين، ومرة أخرى سألتها عن تخصصك ونوع شهادتك لتخبرني أنها دكتوراه في الحقوق، ومرة أخرى أيضاً.. وبعد رحلتي إلى الجامعة التي تُدرّس بها أتأكد أنني لا أعرفك، ولو كان قد سألني أحدهم عنك يوماً ما لحكيت بكل يقين، وأخبرت الجميع بثبات أنك لن تدرس غير الفيزياء. فماذا جرى لنا يا مجاب؟ ماذا جرى لك؟ لماذا عدت عن قرارك وعدت من استقرارك في الأوطان المختلطة من ركض العمر؟ لماذا عدت للكويت لتُصعق بالنبذ مرة أخرى، تملك الآن أوراقك الثبوتية، جنسيتك الأسترالية، لكنك دخيل في كل الأحوال وناقص، رفضت بنات الأخوال مرة أخرى، ورفضت الجامعة أن توظّفك، ورفضت بدورك أن تغسل وجهك وتقنع بما خط على جبينك وما دُمغت به من وصمة الاختلاف، وبقيت في منزل الجابرية تعتزل الحياة شهوراً وتهجر كل مظاهرها، أكلمك فلا تجيبني، أعرفك على خولة الجديدة فتصد عني، أقول لك أنني سافرت للبحث عنك فلا تصدقني، أحرصك على العودة إلى لندن أو أستراليا فتهزأ بي.

يبدو أنك أصبت بالاكئاب.

ما السبب؟ ربما لأنك سعيّت لخطبة مريم بعد طلاقها من جابر ورفضتك، كنت تتوقع أن تقبل بك هذه المرة بعد أن برزت الدال قبل اسمك وامتلكت أوراق مواطنتك، حدثت خالي مالك من أجلك لكنه صمت ونظر إليّ كأنني أجذّف بالكفريات، حدثت بعده مريم بنفسني، رفعت سماعة الهاتف واتصلت بها، فصرخت بوجهي وقالت «ما تستحون» ثم أغلقت الخط. هل خذوك مرة أخرى؟

أم أنك تكتئب بسبب إذاعة أخبار انتحارات «جماعتنا». لماذا أتيت؟ كنت بعيداً تتنفس هواء أوروبا وتتنقل في أرخبيل أستراليا وتأكل الفطائر المحلاة والخضار المسلوقة وتنام باكراً، غير أن عنادك قادم لتعديل المسار والعودة للكويت لتشهد بنفسك الخبر المفجع لانتحار هذا الشاب البدون. أنا أيضاً تأثرت يا أخي، وأحسست أن السماء صارت ثقيلة،

وبدأت أفتح الستائر في كل لحظة لأتأكد أنها لن تسقط على رؤوسنا، لكنني تذكرت أمرا وصرت أتصل بليلى السكرتيرة في الحضانة لأطمئن عليها دون أن أحصل منها على رد.

هل تكتئب بسبب طرد أصحابك القدامى من وظائفهم؟ أم بسبب توقف رواتبهم؟ اسمع مني، تكمن المشكلة فيك، يمشي الخطأ في صفائح دمك. أنت الملام.

قرار العودة خاطئ يا أخي، كان من المفترض أن تقنع بالأوطان الجديدة، وأن تقنع بزيارات عابرة للبيت القديم، لكنك تصر على إيذاء نفسك وتتقدم بأوراق إقامتك ظنا منك بأنك وجدت مرفأك الآمن الأخير، هل تريد أن تشيخ وسط أهلك؟ هل قادتك شعرة بيضاء في رأسك للتفكير في مثواك الأخير، هل تساءلت عن القبر الذي ستسكنه، أما تدري أنك تنقلت بين القبور؟ أنت تدمن ما يؤذيك يا مجاب، أنا أعرف ذلك صدقني، ذلك اليوم حين قصدت المعالجة النفسية أخبرتني أن كل الخارجين من تجارب سيئة، علاقات سامة، أو تعذيب بدني، أو نفسي، كلهم يلزمهم التحرر من إدمان القلق، تعجبت وسألتها أيعقل أن ندمن القلق؟ فأكدت لي ذلك، القلق كالكافيين أو المخدرات، يؤذينا لكن أجسامنا تصير معتادة عليه تطلبه حال خلوها منه، قالت لي: انظري لنفسك يا خولة، لا تستطيعين أن تنعمي بالحرية، ولا أن تهني بحياتك الجديدة بعد الطلاق لأنك أدمنت امتهان زوجك لك، انتفضت وأخبرتها أنني لم أمر بتجربة الطلاق أبدا، فأكدت لي:

«بلى. لقد انفصلت بعد حصولك على الجنسية الكويتية واتهموك بالاستغلال ونكران الجميل والجحود ورفع زوجك عليك قضية يطلب فيها حضانة ابنتك، وتعيشين في شقة مُستأجرة في عمارة سكنية الآن».

ضحكت عليها مشيرة لصدري مستفهمة «أنا؟»، وخرجت من غرفة اللقاء دون أن أَدفع رسوم الاستشارة، هل تعرفني هذه أكثر من نفسي؟ رغم هذا.. أقر أننا ندمن القلق، وأنت يا مجاب تدمن الشعور بالنبذ، لماذا عدت؟ تقول أُمي إنك مريض تعتزل الحياة في غرفتك في منزل الجابرية، أسمعها كل يوم حين نلتقي صباحا ومساء، تبكي عليك بحرقه ثم تدعو وهي تشهق «يالله نجاتك يا رب». ظننت أنك نجوت حين هاجرت تطلب اللجوء

والتجنيس، وأنا ظننتُ أنني نجوت حين تزوجت عيسى واستعرت خولة أخرى لا أعرفها  
لتصبر عليه، ووضعت في حقيبتني الجواز الأزرق فظننت أنها النهاية السعيدة، أي منا نجى  
يا ترى، أسألك مرارا ولا تلتفت إلي، أناديك فلا تسمعني، أناديك باسمك فلا تجيبني، أناديك  
باسمي فلا تجيبني، بأي الأسماء أناديك؟ أريد منك أن تنجو، على أحدنا أن ينجو يا مجاب،  
على أحدنا أن يجيب.

١/١١/٢٠٢٠

الكويت

# شكر ومودة

ل أمي.. للنهر المتدفق بالحكايا.

ل أمنة خزعل إذ فتحت لي صناديق القلب وغمرتني بالتجربة وأمدتني بالكثير من المعلومات عبر أخيها المكرم الأستاذ يعقوب خزعل.. لولاهما لما كانت هذه الرواية.

ل الأستاذة زهراء الحبيب لسخاء جهدها وتدقيقها ومراجعتها النص.

ل الشاعر محمد العتابي وملاحظاته المثريّة، ولمنشورات تكوين لاحتضان العمل.

ل ابنتي رقية نزار وأختي فجر الحبيب إذ كانتا معي فصلا بفصل، تشاركانني كل سطر بكرم وكل حدث بمناقشة.

ل الكاتبة الأستاذة استبرق أحمد ورؤاها المساندة ودعمها ومشاركتها في تحرير النص.

للکاتب والناقد الأستاذ حسين المطوع وإضاءاته القيمة.

ل الشاعر أحمد الرويعي ورؤيته السخية والتفاته وعنايته بالنص.

ل الروائية ريماء إبراهيم ومشاركتها الدائمة في معمل الكتابة.

ل الروائية مريم المدحوب لنصائحها ومعايشتها الأحداث.

ل الشاعر محمد الصفار القطيفي وما أثرى به النص من توجيهات.

ل أمل كرم وتعاونها الغامر.

لدار الفراشة: الأستاذ فهد الهندال والأستاذة هديل الحساوي.

لأستوديو سيماء: الأستاذ محمد السالم للمراجعة والتدقيق والملاحظات والنصائح  
والكثير من الفضل.

ل عين للتدقيق اللغوي: الأستاذ علي آل طالب حيث سرعة ودقة العمل.

لأستاذة: حوراء الحبيب ومساعدتها عبر الاستشارات القانونية.

ل ورشة المخطط الروائي إذ تمت مناقشة البذرة الأولى للرواية، ولنادي ومضة ولالأستاذ  
حسين المتروك وتوجيهاته.

للقارئة العزيزة: مرح الهندال إذ سخت بوقتها لمساعدتي في تكوين صورة لانطباع القارئ،  
للقارئة المكرمة وفاء وملاحظاتها.

للشاعر حسن الفضلي لما أمدني به من أشعار أغنت محتوى الرواية.

لكرم القراء شاكرة سؤالهم المستمر عن الرواية.

ولك يا ضيفي السخي، والصبور، والمتفهم..

لن تفي كلمات الشكر..

# تسنيم يحيى الحبيب

كاتبة من الكويت

عضو رابطة الأدباء

للمراسلة: Tasneem214@hotmail.com

الإصدارات:

آخر الشطآن: مجموعة قصصية/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

بوح الندى: مجموعة قصصية/ دار الفراشة.

صداح زينب: سرد/ دار العنوان / الطبعة الثانية دار الفراشة.

سماء قريبة أعرفها: رواية / دار نوبا بلس.

بلا جهات ثوبك وحدك: شعر/ دار الفراشة.

أقفاص: مجموعة قصصية/ دار الفراشة.

الخروج من مدينة الزجاج: رواية للفتيان / دار الفراشة.

إضاءات العتمة الأخيرة: سرد ومنتاليات قصصية / دار الفراشة.

أمنحي ٩ كلمات: إصدار مشترك \_ الكتاب الثالث / دار الفراشة.

أمنية أخيرة: رواية للناشئة / منشورات تكوين.

دِيم الحنين: رواية للناشئة / دار الفراشة.

أثر فراشة حق النرجس: نصوص / دار الباقيات الصالحات.

أنت الأفضل: رواية للأطفال / دار كشمش.

1. الغلاف
2. السقوط من جنة الأسماء
3. السقوط من جنة الأسماء
4. مرايا
5. طيور و هجرة في غير موسمها
6. الحكاية الأولى
7. نوافذ
8. أوطان في نزل الغريب
9. الحكاية الثانية
10. السقوط من جنة الأسماء
11. شكر و مودة
12. تسليم يحيى الحبيب